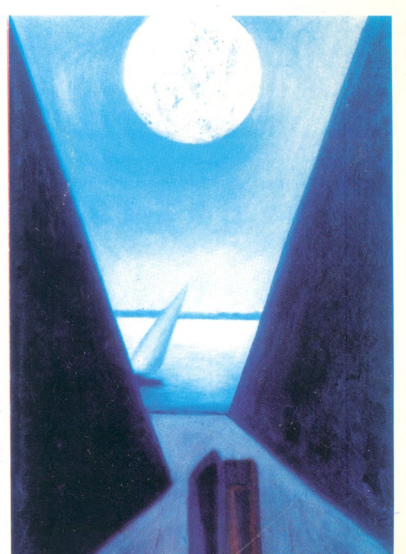
فكر وإبداع

إصدار علمي محكّم



- كولريدج حول الشعر.
- عالمية الشعر المكتوب بالإسبانية.
- مفهوم الأمن القومى فى عصر المعلومات.
- دور الجامعات فى مواجهة التحديات المعاصرة
- ديناميات صورة السلطة لدى المسجون فى (اللص والكلاب).
- الغزو الثقافى والتحديات الحضارية
- أداء الحليات فى العزف على الناى.
- المشهد الروائى فى روايتى حافة الفردوس، وفرس النبى
- مؤتمر طهران لحوار الحضارات.
- مؤتمر العرب وأوربا عبر عصور التاريخ.
- تاريخية الرؤية المعاصرة فى إضاءة التراث النقدى.

العدد (٤)

ديسمبر ١٩٩٩



قواعد النشر بالإصدار

• يقبل إصدار فكر وإبداع نشر المواد وفقا للاعتبارات التالية:

١ - أن تكون المواد المرسلة إلى الإصدار - مبتكرة ولم يسبق نشرها.

٢ - تخضع المواد للتحكيم النوعى المتخصص.

٣ - يخطر الإصدار الكتاب بقرار صلاحية المواد أو عدمها.

٤ - لا يقبل الإصدار المواد المنشورة أو المقدمة إلى جهات أخرى.

٥ - البحوث والدراسات التى يرى المحكمون تعديل مواضع فيها - تردّ إلى أصحابها لتنفيذ ملاحظات المحكمين لكى تأخذ طريقها إلى النشر.

٦ - الإصدار غير ملزم بإعادة الأصول المرسلة إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

• المواد المنشورة بالإصدار تعبّر عن آراء أصحابها فقط

فكر وإبداع

إصدار متخصص

يعنى بنشر بحوث ودراسات علمية محكمة

المراسلات:

جميع المراسلات توجه باسم المشرف على الإصدار . د حسن البندارى

القاهرة - مصر الجديدة . روكسي - شارع أسماء فهمى كلية البنات - جامعة عين شمس

ت ٥٨٥٦٦٢٢ فاكس : ٥٨٢٨١١٤

فكر وإبـداع

إصدار متخصص علمى محكم

يصدر عن مركز الحضارة العربية

***

ـ مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة. تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.

يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات. والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

ـ يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ونشره وتوزيعه.

ـ يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

ـ الأراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ شارع العلمين ـ عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات ـ الجيزة ج. م. ع

تليفاكس: ٣٤٤٨٣٦٨

لوحة الغلاف
للفنان الكبير
مصطفى أحمد

مستشارو الإصدار

* أ . د . إبراهيم عبد الرحمن
* أ . د . أحمد الشعراوى
* أ . د . أحمد عبد الرحيم طه
* أ . د . أحمد كمال زكى
* أ . د . أميرة مطر
* أ . د . توفيق الفيل
* أ . د . جابر عصفور
* أ . د . حسين أمين (أستاذ الجراحة)
* أ . د . حمدى السكوت
* أ . د . رتيبة الحفنى
* أ . د . رجاء عيد
* أ . د . زكريا عنانى
* الفنانة التشكيلية أ . د . زينب السجينى
* أ . د . زين نصار
* أ . د . سامية الساعاتى
* أ . د . السعيد بدوى
* أ . د . صفاء الأعسر
* الفنان التشكيلى: صلاح طاهر
* أ . د . صلاح فضل
* أ . د . الطاهر مكى
* أ . د . عاطف العراقى
* أ . د . عبد الحكيم حسان
* أ . د . عبد الحميد إبراهيم
* أ . د . عبده الراجحى
* الفنان التشكيلى أ . د . عبد الرحمن النشار
* أ . د . عبد الفتاح جلال
* أ . د . عبد المنعم تليمة
* أ . د . عز الدين حلمى
* أ . د . عمر الدقاق
* أ . د . على أبو المكارم
* أ . د . على الحديدى
* أ . د . على عشرى
* أ . د . علياء شكرى
* . فاروق خورشيد
* أ . د . فضيلة فتوح
* أ . د . محمد أحمد العزب
* أ . د . محمد بلتاجى
* أ . د . محمد السعدى فرهود
* أ . د . محمد السعيد جمال الدين
* أ . د . محمد حسن عبد الله
* أ . د . محمد حماسة عبد اللطيف
* أ . د . محمد زكى العشماوى
* أ . د . محمد عبد المطلب
* أ . د . محمد عبد الرحيم كافود
* أ . د . محمد عبد المنعم خفاجى
* أ . د . محمد على الكردى
* أ . د . محمد عنانى
* أ . د . محمود فهمى حجازى
* أ . د . نبيل راغب
* أ . د . نفيسة عليش
* أ . د . نهاد صليحة
* . يوسف الشارونى
* أ . د . يوسف نوفل
* أ . د . يونان لبيب رزق

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد
في ختام الألفية الثانية

د.حسن البنداري

يصدر هذا العدد (الرابع) من فكر وإبداع في آخر شهر من الألفية الثانية - مصحوباً بمشاعر حزن عميق انداحت في الوطن المصرى وأوطان أخرى من العالم، نتيجة كارثة سقوط الطائرة المصرية - الشهر الماضى - بجميع ركابها في مياه المحيط أمام الساحل الأمريكى - وهى كارثة زلزلت القلوب والعقول، وفجرت تساؤلات غير مريحة ماتزال تبحث عن سبب مقنع لوقوع هذه الكارثة لمنجز حضارى تحقق فى العقد الثانى من القرن العشرين ليتهاوى - بعد عمليات تطوير هائلة وتحديث مُذهل - ويتناثر فوق سطح مياه المحيط وفى أعماقه قبيل بداية القرن الواحد والعشرين.

كما يصحب صدور هذا العدد شعور بالأسف وإحساس بالفقد مبعثهما رحيل عَلمين مستنيرين من أعلام الفن التشكيلى المعاصر، منذ أيام بالتعاقب وهما فى قمة عطائهما الإبداعى، وذروة نضجهما الفنى، وبروز تأثيرهما فى الحركة الفنية التشكيلية منذ بداية ستينيات هذا القرن.

أول هذين العَلمين هو : الفنان التشكيلى : مصطفى أحمد الذى يحمل غلاف هذا العدد صورة لاحدى لوحاته الدالة على اتجاه فنى يختص به، يمثل تياراً متميزاً فى نهر الإبداع التشكيلى المعاصر.

وثانيهما هو : الفنان التشكيلى الأكاديمى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن النشار، أحد مستشارى هذا الإصدار، الذى سانده «بمواقف» تفيض تحمسا له واقتناعا به. و«بصور للوحاته» تصدرت اثنتان منها غلافى العدد الثانى (مايو ١٩٩٩)، والعدد الثالث (أكتوبر ١٩٩٩)، و«بكلمات» كانت وما تزال دَعْما لعزيمتنا، ودعوة لتجاوز المشاعر المغرضة، والأصوات المعترضة. وكيف يمكن أن يُنسى صوت النشار المتفائل المستبشر، النبيل؟

حقاً يجيء هذا العدد الرابع فى ختام الألفية الثانية والقلب مفعم «بمشاعر الحزن والأسف»، ولكننا نؤمن بأن هذه المشاعر ستقابل بإصرارنا على تواصل «فكر وإبداع» بأحاسيس الأمل والتفاؤل والبشارة، ونحن ندخل من بوابة الألفية الثالثة لنشارك بعدد جديد من هذا الإصدار فى المشهد العلمى الثقافى للقرن الواحد والعشرين.

المادة العربية

* البحث
* المقال النقدى

كولريدج حول الشعر



د. عبد الحكيم حسان *

« كان مذهب كولريدج تعبيراً عن ثورة العقل الإنسانى ضد فلسفة القرن الثامن عشر. فقد كان هذا المذهب معرفيا بينما كانت تلك الفلسفة تجريبية، وكان محافظا بينما كانت ابتداعية، وكان دينيا بينما كانت ملحدة، وكان تجسيديا تاريخيا بينما كانت تجريدية ميتا فيزيقية، وكان شعريا بينما كانت نثرية»

ج. س. ميل

هناك اختلاف جوهرى بين النقد العربى القديم والنقد الأروبى، هو أن النقد القديم لم يقم على أساس فلسفى فى حين نشأ النقد الأدبى الأوربى فى أحضان الفلسفة. وقد استمرت هذه الظاهرة فى تاريخ هذين التراثين النقديين، وكان لها من التأثير ما جعل كلا منهما يتخذ طابعا يختلف عن الطابع الذى اتخذه التراث النقدى الآخر، رغم توافر قنوات الاتصال بينهما منذ القرن الثالث الهجرى. وكان من أهم آثار هذا الاختلاف أن ركز النقد العربى جل اهتمامه على لغة العمل الأدبى والتقاليد التى تحكم صياغته، وبذلك ضاق مجال التجديد أمام الشعراء من ناحية، وأغفل النقد الاهتمام بالبحث فى مصادر الشعر فى نفس الشاعر أو كيفية تأثير العمل الأدبى فى

* أستاذ الأدب المقارن ، بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة .

نفس المتلقى. ولأسباب لا مجال لتفصيلها الآن، كان اتصال النقد العربى بالنقد الأوربى فى العصر الحديث أقوى وأعمق تأثيرا وأوسع نطاقا من اتصالهما فى العصر القديم . وقد انعكست آثار هذا الاتصال على النقد العربى الحديث فوسعت من اهتماماته وعمقت نظرته وأثارت أمامه من القضايا ما لاعهد له به من قبل . كانت هذه التأثيرات التجديدية التى ظهرت فى النقد العربى فى النصف الأول من القرن العشرين نتيجة الاتصال بالنقد الرومانتيكى، بالرغم من أن هذا النقد كان قد أصبح تاريخا فى أوربا . لكن هذا النقد الرومانتيكى كان سمة من سمات الفكر الحديث فى أوربا بعد أن تحررت من تبعيتها للفكر اليونانى القديم طوال العصر الكلاسيكى .، ولذلك كان هذا الاتصال بداية لتواصل الصلة بين النقد العربى والتطورات النقدية التالية فى أوربا. وبعبارة أخرى يمكن أن يقال: إن بداية اتصال النقد العربى بالنقد الرومانتيكى كانت بداية حقيقية لنقد عربى حديث وإذا كانت للنقد الرومانتيكى هذه الأهمية فإن كولريدج يعد أهم ممثلى هذا النقد، بل إنه ليعد : «أول ناقد حديث بالمعنى الصحيح(١)»

* * *

يشكل فكر كولريدج صعوبة لكل متصد للبحث فيه لا لخصوبة هذا الفكر فحسب، بل لأن حياته المبكرة يكتنفها شىء من الغموض، ولأنه لا يؤثر عنه كلام منشور يمكن أن يلقى الضوء على هذه الحياة المبكرة إلى أن قارب الأربعين. فليس هناك ما يمكن الاعتماد عليه من مصادر إلا رسالة وبعض العبارات المتفرقة من مذكراته الخاصة وقصائده، ثم كتابه الهام (السيرة الأدبية)(٢)

من هذه المصادر القليلة يمكن اكتشاف بعض العوامل الفعالة التى كان لها تأثير فى تكييف فكر كولريدج الفلسفى والدينى والاجتماعى والفنى . فأول هذه العوامل ما حكاه عن نفسه من أنه كان طفلا حساسا انطوائيا لا يقبل على مشاركة رفاقه لعبهم . فقد ابتدع لنفسه عالما غير عالمهم وأمن بهذا العالم الخاص الذى استخصله ـ إلى حد بعيد ـ من (ألف ليلة وليلة) و (ربنسون كروزو) وغير ذلك من كتب الغرائب والخيال المجنح . وبالإضافة إلى ذلك كان يستمع إلى والده بشغف وإعجاب حين كان يحدثه عن النجوم وضخامتها وحركاتها العجيبة، دون أن يتساءل عن حقيقة ما يسمع . «كان عقلى قد اعتاد على الرحب، ولم أنظر إلى حواسى مطلقا على أنها هى معيار اعتقادى. فكل

1 - Stanley Edgar Hyman, the Armed Vision , (New york 1955) P.13.

2 - J Showcross, Biographta Literaria, By S.T. Coleridge (OUPX1969), Introduction , PP . XI - XII.

معتقداتى فى تلك السن كونتها عن طريق تصوراتى لا عن طريق بصرى»، لكن ذلك لم يجعل منه مجرد حالم يقظ أو عبدا لخيالاته المجنحة . فقد أشار فى إحدى رسائله إلى أن هذا النوع من المعرفة من شأنه أن يحقق غاية تربوية لها قيمتها بالنسبة للأطفال. وتساءل هل ينبغى أن يسمح للأطفال بقراءة الرومانسيات وحكايات العمالقة والسحرة والجن؟! وأجاب بالإيجاب لأنه لا يعرف طريقا آخر يمكن أن يمنح الذهن حب ما هو عظيم وكلى، وأن أولئك الذين كانت حواسهم هى الأساس الوحيد لثقافتهم ينقصهم ما كان يملكه هو .... فالكون بالنسبة لهم ليس إلا كومة من الأشياء الصغيرة (١) . فى حين أن حقيقة الكون أنه كل عضوى هائل . ويعنى هذا أن الفلسفة التجريبية التى ارتكزت عليها النهضة العلمية، والتى كانت سائدة قبل أواخر القرن الثامن عشر ـ كانت غريبة كل الغرابة منذ البداية بالنسبة لتفكير كولريدج . وهكذا لم يلق نيوتن ولا فلاسفة القرن الثامن عشر وبخاصة لوك قبولا لديه.

وثانى هذه العوامل: ثقافته العلمية. فقد جذب العالم المادى انتباهه وهو لا يزال صغيرا، وكان لوصول أخيه لوقا إلى لندن لدراسة الطب فى إحدى مستشفياتها أثر فى توجيه فكره هذه الوجهة . فقد أكب على دراسة كتب أخيه الطبية التى وجدها فى متناول يده .

ويبدو أن القراءة العلمية قد كشفت له عن تفسير جديد للأشياء كان من الصعب أن يتفق مع تأملاته المثالية التى لم تتأثر به حتى ذلك الحين، ومن ثم اتجه إلى قراءة ڤولتير. «بعد أن قرأت القاموس الفلسفى لڤولتير لعب الكفر برأسى ، لكن ضلاله لم يمس قلبى مطلقا» . وهكذا تنبه فى ذلك الوقت المبكر إلى وجود تنافر بين العقل والقلب. ذلك التنافر الذى اتخذ من فك ألغازه مهمة شغلت حياته كلها (٢) .

وتمثل الفلسفة والتصوف ثالث هذه العوامل التى شكلت تفكير كولريدج . ففى السنوات التى تلت تسجيل اسمه فى جامعة كيمبريدج كانت اهتماماته كثيرة التعدد بل والاختلاف، مما أعجزه عن أن يحقق إنجازا ملحوظا فى أى منها. فقد اشتغل بالسياسة واللاهوت والعلم وما وراء الطبيعة. وقد اجتذبت هذه المجالات انتباهه الواحد بعد الآخر . لكنه بعد أن تعرف على صديقه صوذى وبعد أن نضج مشروع «البانتيسوكراسى» اتجه إلى الإصلاح السياسى والاجتماعى. وفى كيمبريدج التحق بجمعية أدبية كتب من خلال نشاطه

J - Showcross, Biographia Literaria, By S.T. Caleridge (OUPX1969), IntroducIntro , PP . XI - XII.

2- J . Shaw cross , (op . Cit.) PP . XII - XIII

فيها مجموعة من المقالات (ضاعت مع الأسف) رد الاعتبار فيها لشيكسبير، وعرض بعض أعماله عرضا نقديا . ولو بقيت هذه الأعمال لألقت ضوءا على ما يثار دائما حول صلة كولريدج بالفكر الألماني . وعلى أى حال ، فقد بقيت تأملاته بعد ذلك فترة ما على تعددها . وفى تلك السنوات «أضاف إلى قراءة أفلاطون والأفلاطونيين المحدثين قراءة جاكوب بومه ومتصوفين مسيحيين آخرين. بينما تلا فولتير قراءة لوك ولايبنتس وهارتلى . وكان هذا الأخير أقواهم تأثيراً على نظريته فى الخيال . وظل كولريدج لعدة سنوات معروفا بأنه تابع لفلسفة هارتلى وإن كان الإيمان بالجبر لم يتمكن من كيانه كله (١)

والعامل الرابع الذى أحاط بالحياة الفكرية لكولريدج عامل الدين . فمن المعروف أنه فقد والده فى وقت مبكر من حياته، وأنه بدأ تعليمه فى مدرسة خيرية، وأشتغل بالوعظ فى صدر حياته . وقد اجتذبت فصاحته جماهير المتدينين إليه. والواقع أن اهتمامه بالأدب والفلسفة والعلم والاصلاح السياسى والاجتماعى لم يكن إلا من خلال صلة ذلك كله بالدين بطريق مباشر أو غير مباشر. فقد كتب فى إحدى رسائله : «لصالح الدين أوجه باخلاص كل ملكاتى . وإذا كنت أرغب فى التحصيل بوصفى فيلسوفا أو شاعرا فإنى أضرع إلى الله أن أظل أحس بما أحس به الآن من أن دافعى الأعظم للرغبة في هذا أو ذاك، إنما هو أن معرفتى به من شأنها أن تعيننى على الدفاع باقتدار عن الدين، وأن أوجه الانتباه - من خلال اشتهارى بذلك - إلى الدفاع عنه(٢)، وفى الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٧٩٧ أخبر كولريدج تيلوال قائلا : «إن عقلى يحس بما يشبه الألم من أجل أن يدرك شيئا عظيما، شيئا واحدا لا يتجزأ. فبالإيمان بذلك وحده أجد فى الصخور والشلالات والجبال والكهوف الإحساس والجلال، وبهذا الإحساس تكون كل الأشياء محاكاة للانهائية»(٣)

* * *

هذه العوامل شكلت فكر كولريدج من ناحية، وأسهمت فى تكوينه من ناحية أخرى ، وأعطته تلك الطبيعة المتعددة الجوانب التى لا تخلو عناصرها المتنوعة من تضارب بين ما يتطلبه العقل وما يتطلبه القلب. بهذا الفكر أقبل كولريدج على الشعر قرضا ونقداً، وإن كان هذا الإقبال لم يأت إلا فى وقت متأخر بعض الشىء . فقد ظلت موهبة كولريدج الشعرية خامدة زمنا طويلا إذ كانت محاولاته الأولى فى قرض الشعر -

1 - Ibid , PP. XiV - XVI
2 - P.S . Sastri, Coleridg ,s Theoy of poetry ,(New Delslhi, dete)p.3
3- See, Ibid , p.247.

وهو لا يزال فى المدرسة الثانوية ــ لا تزيد كثيراً عن التمارين الآلية حين لم تجد موهبته الكامنة ما يثيرها. لكن هذا المثير وجد ــ حتى قبل انتهاء دراسته الثانوية ــ ممثلا فى صونيتا بويلز، التى وجد فيها كولريدج أول معالجة غير تقليدية للطبيعة وأول منبر أصيل للكشف عن إيحاءاتها . وتبع ذلك مثير آخر، هو اتصاله بمارى ايفانز. وكان كولريدج قد تعلم قبل أن يغادر المدرسة الثانوية من أستاذه بوير أن للشعر ــ بما فى ذلك أرقى القصائد وأكثرها خروجاً على النمط العادى ــ منطقه الخاص الذى لا يقل صرامة عن منطق العلم. وربما يزيد عليه صعوبة لأنه أكثر رقة وتعقيدا واعتمادا على مقدمات لا تفتأ تتفلت من اليد. وقد ساعد هذا على توجيه النشاط التأملى لكولريدج ــ منذ أواخر حياته المدرسية وأوائل حياته الجامعية ــ إلى البحث عن : «أساس متين يمكن أن أقيم عليه بصفه دائمة آرائى فى القدرات المكونة للذهن البشرى وقيمة هذه القدرات وأهميتها»(١) . وبالرغم من أن هذه الاتجاهات المبكرة لم تكن لها ثمرة تستحق الملاحظة فإنها تبين إلى أى مدى تكونت لدى كولريدج فى وقت مبكر من حياته عادة تطبيق المبادىء الفلسفية على نظراته فى الشعر والدين . ومرة أخرى ينبغى أن يوضع هذا فى الحسبان عند تقدير نور كولريدج للفكر الألمانى .

ظل كولريدج من الناحية الفكرية مقسما فترة من الزمن بين الفلسفة التجريبية الإنجليزية من ناحية والفلسفة المثالية التى ترجع إلى الأفلاطونية الجديدة والتصوف المسيحى من ناحية أخرى. ويبدو أن فكرة الترابط أوتداعى المعانى كما تمسى احيانا، والتى أخذها كولريدج من فلسفة هارتلى والدراسات النفسية فى اسكوتلاندا ــ كانت هى الأساس الذى أقام عليه فكرته عن الوهم ، وأن الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى كان لها أتباع نشطون فى كيمبريدج والتصوف المسيحى كانا أساس نظرته إلى الخيال، وإن كان لم يكن قد وصل إلى التمييز بين هاتين القدرتين من قدرات الذهن الإنسانى فى ذلك الوقت ، وبينما ظلت المقدمات العقلية فى ذهنه صحيحة من الناحية العقلية فإنها، لم تستطع أن تشبع حاجاته الروحية . وكان طبيعيا أن يشك فى قدرة العقل على أن يكون هاديه فى كل الأحوال. ولهذا كرس السنوات التى قضاها منعزلا فى ستووى للتفكير فى الأسس التى يقوم عليها الدين والأخلاق. بالرغم من أن التفسير الرمزى للطبيعة والاستخدام الرمزى لصورها كانا ــ فيما يبدو ــ موضوعا لتأملات كولريدج حتى قبل أن يستقر فى ستووى، إلا أنه لا يوجد مايدل على أنه كان قد حدث ــ قبل هذا

1 - See, J . Shawcross (op.eit.) XIII - XIV

التاريخ ـ قدرة معينة من قدرات الذهن الانسانى تختص بهذا المجال الرمزى أو أنه أطلق على مثل هذه القدرة اسم الخيال . ففى رسالة له بعث بها إلى تيلوال قبل سفره إلى ستووى مباشرة تحدث فيها عن الصور فى الكتاب المقدس على أنها أعلى نمط من استخدامات الوهم Fany, فى حين أنه بعد أن اكتشف الخيال وفرق بينه وبين الوهم, بعد ذلك تحدث عن هذه الصور ذاتها على أنها مثال من أمثلة عمل الخيال. ذلك أن الفلسفة الإنجليزية كانت لا تزال تستخدم كلمة الخيال فيما سماه كولريدج فيما بعد باسم الوهم. وقد جاء أول تعبير عن هذا من هوبز الذى كان له تأثيره على كثير ممن كتبوا بعده ففى كتابه. Leviatlion : أننا نظل بعد أن نزيل موضوع الرؤية أو بعد أن نغلق أعيننا نحتفظ بصورة الموضوع الذى رأيناه ... وهذا ما يسميه اللاتنين: بالخيال اشتقاقا من الصور الحاصلة عن الرؤية. لكن الأغريق يسمونه: الوهم وهو ما يدل على المظهر(١).

* * *

كان لقاء كولريدج بورد زورث وبداية الاحتكاك الفكرى بينهما نقطة تحول فيما يتصل بنظرية كولريدج فى الخيال، ومن ثم فى ظروف تأليف السيرة الأدبية. ففى سنة ١٧٩٦ وفى واحد من اللقاءات بين الشاعرين استمع كولريدج إلى قصيدة لوردزورث The Borderers فاعجب بها أيما أعجاب . وذلك لما ظهر فى القصيدة من موهبة أصيلة فى توزيع النغمات وللجو العام فى القصيدة وعمق العالم المثالى فيه وسموه . وقد قاده هذا الإعجاب إلى تكرار التأمل فى القصيدة . وقد أدى به طول التأمل إلى الظن الذى تحول مع التحليل الدقيق للقدرات البشرية ومظاهرها ووظائفها وتأثيراتها إلى اقتناع كامل بأن الوهم والخيال قدرتان متميزتان تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافا بينا، ولم تكونا ـ كما كان يظن من قبل ـ اسمين لمسمى واحد، أو اسمين لأعلى درجة وأحط درجة لقدرة واحدة. ومعنى هذا أن فكرة التفريق بين الوهم والخيال نشأت فى ذهن كولريدج لا فى ذهن وردزورث، أما تفاصيل الفكرة فقد أصبحت موضوع مناقشات متكررة بين الشاعرين وإن كان اهتمام كولريدج قد اتجه إلى المصدر الحقيقى للشعر فى الذهن البشرى، بينما اتجه ورد زورث إلى مظاهر التفريق بين الوهم والخيال فى الشعر نفسه. والذى يبدو أن مظاهر هذا التفريق فى الشعر ـ وليس اختلاف هاتين القدرتين فى الذهن الإنسانى ـ هو الذى شكل موضوع المناقشات بين الشاعرين. فقد كان، الهدف من وراء هذه المناقشات عمليا لا تأمليا . وهذا الهدف هو أن يقوم الشاعران بإبداع نوع أصيل من الشعر عن طريق إضفاء

1- See , P.S. Sastri , p.21 .

الجدة على مظاهر الطبيعة، ورأيا أن ذلك يمكن أن يتم بطريقتين: إحداهما إضفاء أهمية إنسانية على عناصر أو مواقف مما فوق الطبيعة، وذلك بواسطة فعالية العواطف التى من شأنها أن تصاحب هذه العناصر أو المواقف لو حدث أنها تحولت إلى واقع. والطريقة الثانية: توجيه اهتمام الذهن إلى ما فى العام المألوف من جمال وعجائب أضفى عليها التعود نوعا من الألف غطى على هذا الجمال وهذه العجائب . وقد اتفق الشاعران على أن يبدع كولريدج بالطريقة الأولى وأن يبدع ورد زورث بالطريقة الثانية وأن ينشر هذا الشعر الجديد فى ديوان مشترك عنوانه «الأقاصيص الشعرية الوجدانية» Lyrical Ballads ، وقد ظهرت الطبيعة الأولى لهذا الديوان سنة ١٧٩٨ ثم ظهرت الطبعة الثانية سنة ١٨٠٠ مصدرة بمقدمة كتبها ورد زورث.

لقد أشار كولريدج فى رسالة إل دانيال سيتوارت فى سبتمبر ١٨٠٠ إلى أن هذه المقدمة (سنة ١٨٠٠) نتيجة لفكر مشترك بينه وبين ورد زورث حول الشعر. وربما يقصد كولريدج بذلك تلك المناقشات التى دارت قبل ذلك بين الشاعرين حول الشعر، والتى سبقت الإشارة إليها منذ قليل، وأنه فوجئ بعد ظهور المقدمة بوجود اختلاف فى الرأى بينه وبين ورد زورث فى بعض ما جاء بالمقدمة من آراء. فقد كتب إلى صوذى فى يوليو (سنة ١٨٠٢) يقول : «بالرغم من أن مقدمة ورد زورث ابن مشترك لذهنينا وأنها إنما نشأت نتيجة لمناقشات تكررت بيننا ـ مع استسناءات قليلة ـ فإن أيّامنًا لا يستطيع أن يدعى بشكل يقينى أنه كان صاحب فكرة بعينها . إننى اتحدث عن مقدمة الطبعة الثانية ومع ذلك فأنا أبعد ما أكون عن أن أذهب مع ورد زورث إلى المدى الذى ذهب إليه(١) . أما القدر المشترك بين الشاعرين فى هذه المقدمة فهو الجزء الخاص بطبيعة الشعر ووظيفته، والذى يعد مبدءاً رومانتيكيا مشتركا. لكن الإجزاء الأخيرة من المقدمة والتى يورد ورد زورث فيها آراءه حول لغة الشعر ووزنه تختلف عن آراء كولريدج حول الموضوع إلى حد أنه أعلن أنه لا يستطيع قبولها. إن أراء ورد زورث النقدية سواء فى هذه المقدمة أو غيرها هى فى الواقع من مخلفات القرن الثامن عشر، فى حين كان شعره يختلف تماما عن شعر القرن الثامن عشر لأنه كان يعد جديداً كل الجدة . ولهذا نرى كولريدج يعدّ ورد زورث أعظم شاعر فى الإنجليزية بعد شيكسبير بينما يفند آراءه النقدية وبخاصة فيما يتعلق بلغة الشعر ووزنه.

* * *

وكما كان تأمل كولريدج لقصيدة ورد زورث The Borderers هو نقطة الانطلاق إلى امتدائه لنظريته فى الخيال، كان إنكاره لبعض آراء ورد زورث النقدية حول لغة الشعر ووزنه فى مقدمة (سنة ١٨٠٠) نقطة البداية لتاليف كتابه السيرة

1- See, } . Shawcross, (P.eit.).

الأدبية . وقد تحدث كولريدج فى السيرة الأدبية عن الكيفية التى نما بها الكتاب حتى صار إلى شكله الذى ظهر به، لكن حديثه غامض. وقد ألحق السيد Shawcross بمقدمته للسيرة الأدبية تعليقا(١) أوضح فيه الظروف التى أحاطت بظهور الكتاب،، ومن هذا التعليق يخرج القارىء بالحقائق التالية: فى مارس (سنة ١٨١٥) كتب كولريدج إلى كوتل أنه كان قد جمع مسودات لقصائد مبعثرة تكفى لتكوين ديوان دون أن يضمن حديثه هذا أية إشارات إلى مقدمة . لكنه فى مايو من السنة نفسها أشار عرضا فى رسالة كتبها إلى ورد زورث إلى أنه عاكف على كتابة مقدمة سيفرغ منها خلال يومين أوثلاثة وليست هناك أية إشارة إلى طبيعة هذه المقدمة (وما إذا كانت نقدية أو ترجمة ذاتية أو كليهما) لكن المعتقد أن البذرة الأولى للسيرة تكمن فى هذه المقدمة . فبعد شهرين كتب كولريدج إلى دكتور برايانت أنه عاكف على بسط ما قصد به أصلا أن يكون مقدمة لسيرة ذاتية أدبية تتضمن تخطيطا لحياته وآرائه الأدبية فيما يتصل بالشعر ونقده . والذى يبدو أن المقدمة الأصلية قصد بها أن تكون ترجمة ذاتية أدبية لكنها طالت بحيث تطلبت هى أن تكتب لها مقدمة . لقد كان هدف كولريدج من وراء بسط ما كان أصلا مقدمة أن يعرض الجدل الدائر حول شعر ورد زورث ونظراته النقدية وجزءا - على الأقل - من آراء كولريدج حول الخيال . لكن هذه المقدمة وقد طالت تبين أنها لم تعد تصلح مقدمة وأنها هى تحتاج إلى مقدمة . وفى أغسطس (سنة ١٨١٥) أرسل كولريدج بقدر من المخطوطة إلى ناشر فى بريستول بعد أن تم الاتفاق على نشر جزءا واحد يتضمن ترجمة ذاتية وجزءا آخر يضم بعض القصائد . لكن كولريدج مضى فى الكتابة - أثناء الطبع وقد ضلله الناشر كما يقول - إلى أن زادت المادة التى كتبها عن أن يستوعبها جزء واحد. وكان ذلك سببا فى نشأة خلاف بينه وبين الناشر لم ينته إلا فى إبريل (سنة ١٨١٦)، بالاتفاق على إخراج المادة المطبوعة فى ثلاث أجزاء ، جزأين للسيرة الأدبية (والثالث للشعر) ولم يلبث خلاف آخر أن دب بين كولريدج وناشره دام بضعة أشهر أخرى وانتهى بإنهاء الاتفاق بينهما وتحويل الكتاب إلى ناشر آخر فى لندن.

وتبين فى لندن أن الجزء الثانى لم يكن من الطول بحيث يتناسب مع الجزء الأول. وقد عاق كولريدج عن بسطه خلافات نشأت بينه وبين الناشر الجديد. فقد كتب كولريدج فى الثالث والعشرين من سبتمبر (سنة ١٨١٦) : «سأبدأ فى الأسبوع القادم فى الموضوع الذى أرغمنى كذب الناشر وخطؤه الجسيم على إضافته إلى «الحياة» الأدبية لكى يكون الجزآن فى حجم متماثل». وقد

١ - يقع هذا التعليق فيما بين صفحتى XC - XVII فى آخر المقدمة See,} .Showcross

تضمن هذا الموضوع الجديد (الذى يوجد الآن فى الفصل الثانى والعشرين فى الجزء الثانى من السيرة الأدبية) تقديراً عظيما لشعر ورد زورث كان قد استبعد قبل أكثر من عام من النظرية الخاصة بمعالجة لغة الشعر. ومع هذه الإضافة ظل الجزء الثانى اصغر من أن يتناسب حجما مع الجزء الأول. ولذلك رئى أول الأمر ملء الفراغ بمسرحية (زبولا) التى كان كولريدج قد كتبها منذ وقت قصير. لكن الرأى استقر آخر الأمر على (رسائل المانية) لأنها أكثر مناسبة من عدة وجوه. كما أضيف نقد لشعر برترام ـ وكان قد نشر قبل ذلك ـ كما أضيف فصل ختامى وصفحات على سبيل التقديم. وعلى هذا ظهرت السيرة الأدبية فى صيف (سنة ١٨١٧).

من شأن هذا التعليق أن يكشف عن سبب ما يبدو على السيرة الأدبية من تفكك لفت نظر النقاد والقراء على السواء . ولقد أخذ النقاد على كولريدج أن أقل مناقشاته إقناعا فى الكتاب هى تلك التى أدارها حول أهم نظرية فيه وهى نظرية الخيال. ففى مالايزيد كثيرا عن صفحة واحدة فى آخر الفصل الثالث عشر من السيرة الأدبية، عرض كولريدج نظريته فى الخيال وقسمه إلى خيال أولى وخيال ثانوى . لقد كان يتوقع من كولريدج أن يعرض فى هذا الفصل الثالث عشر الذى وصل إليه بعد كثير من الضجيج، والذى وضع له عنوانا «فى الخيال أو القدرة الموحدة» ـ أن يعرض نظريته الهامة هذه بالتفصيل، فيقدم إيضاحا كافيا لطبيعة كل من هذين النوعين من الخيال يحدد طبيعة كل منهما ويوضح الفرق بينهما . لكنه بدلاً من ذلك تعلل بنصيحة وصلته من صديق، أن يمسك عن التفصيل فى هذا الموضوع لأن تأملاته حوله ستكون مستغلقة كل الاستغلاق بالنسبة للعقول التى لم يسبق لها أن استعدت لذلك . ثم يعلق كولريدج بقوله : «نتيجة لهذه الرسالة البالغة الحكمة والتى اقتنعت بها اقتناعا كاملا سوف اكتفى الآن بعرض النتيجة الاساسية للفصل الذى احتفظت به لعمل ينشر فى المستقبل، سيجد القارىء نشرة، تفصيلية عنه فى آخر الجزء الثانى(١) لكن ذلك العمل لم ينشر كما لم تظهر النشرة التفصيلية التى لا وجود لها فى آخر الجزء الثانى.

* * *

ومع هذا الإجمال، فإن كتاب السيرة الأدبية يقدم للقارىء نظرية متكاملة لكولريدج عن الخيال فقد تلا هذا الإجمال فى التفريق بين الخيال الأولى والخيال الثانوى فى آخر الفصل الثالث عشر من الكتاب تفريق مفصل بين الوهم والخيال فى الفصل الرابع عشر . ولا أدل على ذلك من أن هذه النظرية استحوذت على أنتباه النقاد

(١) راجع الفقرات الأخيرة من الفصل الثالث عشر من السيرة الأدبية.

ولا تزال حتى الآن. فالخيال كما عرفه الرومانتيكيون: قدرة مبدعة خلاقة قاسوا عملها على العمل الإلهى فى الخلق . ولهذا فإن أهميته عندهم تبلغ درجة التقديس . وقد كان عندهم أساسا لنظرية عميقة فى الشعر يتختلف اختلافا كبيرا عما سبقها من نظريات . فالشعراء قبلهم استحسنوا الاستخدام الجيد للصور الشعرية التى قصدوا بها الانطباعات البصرية والاستعارات، لكن الأهمية القصوى للشعر عندهم كانت صدقة فى تصوير العواطف. لقد كانوا يتحدثون حديثا عاما عن التجارب المشتركة بين الناس ولم يهتموا بالخطرات الشخصية فى خلق عوالم جديدة . والشاعر عندهم مفسر لا مبدع، يهتم بالكشف عن جمال ما نعرف أكثر مما يهتم باكتشاف الخفى وغير المألوف. كانوا يهتمون بمظاهر الحياة أكثر مما يهتمون بأسرارها، وكانوا يعتقدون أن مهمتهم هى أن يعرفوا ذلك بأكبر قدر من الجمال والصدق. أما الخيال عند الرومانتيكيين فهوا أساسى لأن الشعر بدونه عندهم غير ممكن(١).

لقد سادت فى انجلترا ـ ولمدة قرن ـ فلسفة لوك التى كانت ترى أن العقل فى حالة الإدراك ليس له إلا دور سلبى هو التلقى، فهو بمثابة صفحة بيضاء تسجل عليه الانطباعات المختلفة التى ترد إليه عن طريق الحواس . وهذه الفلسفة تتناسب تماما مع طبيعة التأمل العلمى الذى مثله فى ذلك الوقت نيوتن. وقد اتفق الفلاسفة والعلماء على تفسير الكون تفسرا آليا بمعنى أنه كان فى نظرهم آلة ضخمة أو كومة من الأشياء المتفرقة ضم بعضها إلى بعض. وفى هذا إهمال تام للنفس الإنسانية وما ركز فيها من قدرات ونزعات، لكن الثورة ضد هذه الفلسفة ما لبثت أن اندلعت منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر. فلم تعد الانطباعات والمدركات الحسية هى منشأ كل المعلومات الممكنة كما كان يعتقد من قبل، بل أصبح دور هذه الانطباعات والمدركات الحسية قاصرا على تزويد طاقة من طاقات الذهن الإنسانى هى الوهم بمادة يحتفظ بها، ليقدمها عند الحاجة إلى طاقة أخرى تعمل عليها تعقلا أو ابداعا، هذه الطاقة التى تسمى الوهم Fancy هى عند كولريدج شبيهة بالذاكرة متحررة من الزمان والمكان . لأن العلاقة بين هذه الانطباعات أو المدركات الحسية هى الترابط، بمعنى أن الواحد منها يستدعى الآخر لعلاقة تربطه به. وهذه العلاقة غير علاقة الزمان والمكان، لأن علاقة الزمان والمكان هى التى تربط بين ما تحتفظ به الذاكرة. ولهذا رأى كولريدج أن الوهم نوع من الذاكرة منحدرة من الزمان والمكان، ووظيفة الوهم هى تقديم

(١) راجع الفقرة الأخيرة من الفصل الثالث عشر من السيرة الأدبية .

1- C. M . Bowra , The Romantic Imagination, (1961),P.I

الانطباعات أو المدركات الحسية للخيال. فالوهم قدرة مجمعة ترابطية ليس لها ما تعمل عليه إلا الثوابت والمحدودات، أى أن عمله لا يعدو أن يكون نوعا من الإدراك الحسى . من هذا يتبين أن كولريدج يؤكد أهمية العالم الخارجي الطبيعي، لا على أنه ظل لعالم مثالي، ولا على أنه إبداع ذاتى من جانب الفنان بل على أنه عالم حيوى عضوى ناتج عن عملية اكتشاف. وعلى ذلك فالفن - بوصفه وسيطا بين الإنسان وبين الطبيعة وبوصفه مفسرا للواقع الخارجي - يجب أن لا يرخي قبضته عن المادى العضوى، ولا أن يسمح له أن ينقلب إلى مجرد تجريد . وعلى الرغم من أن الوهم لا يعمل إلا على الثوابت والمحدودات أى على العالم المادى، فإنه كان مصدرا أساسيا من مصادر الإبداع الشعرى لدى كثير من الشعراء وبخاصة شعراء القرن الثامن عشر. لكن هذا الشعر لم يكن من ذلك الطراز الذى يرضى عنه الرومانتيكيون بصفة عامة، وكولريدج بصفة خاصة لأن المدركات الحسية للوهم تظل فى الشعر على طبيعتها مالم يتناولها الخيال بالعمل.

أما الخيال فهو القدرة التى تعمل فيما يقدمه إليها الوهم من انطباعات حسية، فيرتفع بهذه الانطباعات وينظمها وينفث فيها من طبيعته فيوفق بين المتضادات وبين الجزئى الذى يقدمه الوهم والكلى الذى يقدمه هو : بين الخاص والعام وبين المحدد والمطلق وبين المحدود والمجرد وبين الصورة والفكرة وبين الفردى والنموذج، كل عن طريق ما يحققه من استبصارات فى الواقع الخارجى حين يتجه إليه. ومن هنا كانت المقارنة التى عقدها كولريدج بين الخيال وبين المبدأ الخلاق فى الطبيعة فى عبارته المشهورة : «إن الخيال هو تكرار فى الذهن المحدد لعملية الخلق الخالدة فى الوعى اللامتناهى» ، ويعنى هذا أن قدرتى الوهم والخيال - رغم تمايزهما من حيث الطبيعة والوظيفة - متكاملتان لأنهما تشاركان فى فى عملية الإبداع ، بل إن كلا من القدرتين تعتمد على الأخرى فى هذه العملية . فالخيال يعتمد على الوهم لأنه يعمل على ما يقدمه إليه الوهم من انطباعات ومدركات حسية، والوهم أيضا يعتمد على الخيال لأن التصورات الذهنية يستحيل أن تتحقق فى الوهم إذا لم يكن هناك عون من الخيال. والخيال بهذا المعنى (الأولى) موجود فى كل عملية إدراك بدائية. وبهذا الخيال ندرك أمور حياتنا اليومية . وهذا الخيال يضفى صفة الفردية على كل استبصار عقلى فيما هو كلى. وبذلك يصبح عمله هذا تكرارا فى الذهن لعملية الخلق الخالدة . وبهذا ينطوى الفردى الملموس على قيمة الكلى أو ومغزاه. والخيال بهذا المعنى خلاق لأنه يجعل من الممكن قيام عالم من المدركات أمام النفس. وفى هذا نمارس ملكتنا الإدراكية بطريقة غير واعية، وبدون ذلك لا يمكن أن يكون

هناك إدراك . فالخيال الأولى هو الملكة الحية والعامل الأول فى كل إدراك إنسانى . وكل ألوان النشاط الذهنى الأخرى إنما هى تطورات ونتائج لهذا النشاط الأساسى الذى يقوم به الخيال الأولى.

وهكذا يهتم الخيال الأولى بمظاهر الأشياء، لكن الخيال الثانوى الذى يعده كولريدج صدى للخيال الأولى وأنه يشبهه فى طريقة عمله يختلف عنه فى أنه يهتم بحقائق الأشياء، فالخيال الأولى نفعى أما الخيال الثانوى فإنه لا يعبر عن أى اهتمامات نفعية، بل عن قيم. والخيال الأولى يبقى على ازدواجية الحياة العادية. أما الخيال الثانوى فيحاول أن يتجاوز العالم الخارجى بالارتفاع به إلى مستوى المثال وتوحيده معه. هذا الخيال الثانوى هو الذى يتضمن بذور كل تطور خلقى أو علمى، وهو الخاصة المميزة للإنسان من حيث هو كائن متقدم متطور، لأنه يجمع الظروف المتعددة فى لحظة من لحظات الوعى، وهو الذى يحقق غاية كل فكرة إنسانية أو شعور إنسانى. إنه أعلى ملكات الذهن البشرى على الإطلاق. إن التفريق بين الخيال الأولى والخيال الثانوى يتضمن التفريق بين النشاط الذهنى غير الواعى والنشاط الذهنى الواعى. وإذا كان كولريدج يؤكد أن الخيال الثانوى هو فى الحقيقة صدى الخيال الأولى فإنه بين اختلافه عنه فى أنه (الخيال الثانوى) يتعايش مع الإرادة الواعية. فهما يتحدان فى نوع العمل ويختلفان فى الدرجة والطريقة(١).

وتتمثل عملية الإبداع التى يقوم بها الخيال الثانوى فى أنه يكوّن فى لحظة التوتر انفعالا شعريا، وينفث فى مادة التجربة وموضوع التأمل من روحه، فيضفى عليهما مغزى وأهمية لم يكونا فيهما من قبل. وبهذا تنشأ المتعة الجمالية لا من الموضوع قبل لحظة الإبداع بل بما يضفيه عليه الشاعر. فقبل عملية الإبداع لا تكون المادة التى تتكون منها التجربة موحدة ولا يكون لها من الدلالة والمغزى والأهمية ما يكفى لانفعال المتلقى بها. لكنها بعد أن يوحدها الخيال الثانوى للشاعر ويضفى عليها من الدلالة والمغزى ما أدركه هو فيها نتيجة لانفعاله بها تكتسب من القدرة على التأثير فى المتلقى مالم يكن لها من قبل . ومن أجل ذلك يستخدم الخيال الثانوى كلمات اللغة استخداما رمزيا، فيرتفع بالكلمات إلى مستوى الأشياء، أو على الأقل يستخدم كلمات اللغة استخداما مجازيا، فالاستعارات مثلا ندرك أساسا على أنها صور. وبصدور الصور عن الخيال الثانوى تحمل معها طبيعة الانفعال الذى مر به، فتتحرك الصور بنفس الإيقاع الذى نتج عن الانفعال فى الخيال الثانوى. وإذا كان الخيال الأولى موجوداً لدى كل الناس فإن

1- See,P.S. Sastri, (Op . Cit.) P.31

الخيال الثانوى لا يوجد إلا عند قلة منهم . وهؤلاء هم المبدعون الذين ولدوا بهذه الموهبة(١).

* * *

كانت اهتمامات كولريدج فى السنوات التى سبقت اتصاله بوردزروث تتجه إلى الدين وما وراء الطبيعة بقدر ما كانت تتجه إلى الجمال. ويبين هذا أن جهود كولريدج فى تحليل قدرات الذهن البشرى كانت طويلة وشاقة. ومن الجدير بالملاحظة أن كولريدج كان قد قام - قبل أن يفرق بين الوهم والخيال - بالتفريق بين قدرتين أخريين من قدرات الذهن الإنسانى هما قدرة التعقل Reason وقدرة الفهم Understanding، وهو تفريق غير مقطوع الصلة بالتفريق بين الوهم والخيال فى النظرية الشعرية، ويحتل فى مجال الدين وما وراء الطبيعة مكانا مركزيا، كذلك الذى يحتله التفريق بين الوهم والخيال فى مجال الشعر. بل إنه ليمكن القول إن التفريق فى الحالتين واحد وأن القضية ليست إلا قضية اختلاف المجال. فنسبة التعقل للفهم هى نسبة الخيال للوهم . فقد فهم كولريدج التعقل على أنه أداة لإدراك ما وراء الحس، وأن الفهم أداة لترتيب ظواهر الإدراك وتعميمها. التعقل هو معرفة القوانين التى تتحكم فى الكل بوصفه وحدة، والفهم علم الظواهر. إن التعقل أداة الوصول إلى الغايات، أما الفهم فإنه يدرس الوسائل. التعقل هو مصدر الحق المجرد وجوهره والفهم ملكة تحكم حسب قوانين الحواس. التعقل هو عين الروح والموهبة التى بها يدرك الواقع الروحى إدراكا روحيا أما الفهم فهو عقل الجسد(٢). هكذا يفترض كولريدج وجود جانبين هامين فى الذهن لكل منهما وظيفة تختلف عن الوظيفة التى يؤديها الجانب الآخر، ولكن الوقوف عند هذا التقسيم الثنائى فيه إفساد للمفهوم العضوى للطبيعة. لأن الطبيعة كما يراها كولريدج ليست هى العالم المادى فقط وإنما هى نشاط يتطور عضويا من قبل هذه الطبيعة المادية بالتوافق مع شكلها الكلى. والفن فى محاكاته للطبيعة لا ينظر إلى هذه الطبيعة المادية وحدها ولا إلى شكلها الكلى وحده، لا يتجه إلى الفردى المعين وحده ولا إلى الكلى وحده، وإنما يتجه إلى تلك النقطة التى يتركز فيها التفاعل بينهما فيقوى كل منهما الآخر. بمعنى أن يضفى الشكل الكلى المجرد على الفردى المعين فحوى ومغزى ودلالة . أى أن يسمح الفردى المعين للشكل الكلى أن يحقق ذاته بالفعل وأن يبرز من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وأن يضفى الشكل الكلى بذلك على

1- See,P.S. Sastri, (Op . Cit.) P.40

2 - Basil Welley, Nineteentn - Centnry Studies, Coleridge to Matheo Arnaod (Penguin Books 1964),p.37.

الفردى المعين مغزى ودلالة لم تكونا له من قبل . ولما كان التعقل هو القدرة الخاصة بإدراك الكلى وحده وكان الفهم هو القدرة على إدراك الفردى المعين وحده فإن أيا منهما لا يستطيع أدراك الطبيعة بذلك المعنى الذى مرّ. لأن الطبيعة بهذا المعنى هى التفاعل بين الفردى المعين والشكل الكلى، أى أنها تجمعهما معا. ولذلك فالذهن لا يستطيع أن يحقق ذلك الإدراك الشامل للطبيعة إلا بواسطة قدرة أخرى تستطيع أن تجمع وتوحد ما أدركه التعقل وما أدركه الفهم، أى أن توحد الفردى والكلى، أى أن توحد بين الأضداد. وهذه القدرة هى الخيال. فالخيال إذن هو القدرة المبدعة التى تخلق الجديد عن طريق التوحيد والتوفيق بين ما أدركته القدرتان السابقتان. ولتوضيح ذلك يمضى كولريدج ليفرق بين الوهم والخيال بعد أن كان الخلط قد غطى على استخدام هذين المصطلحين(١).

* * *

هذا هو الأساس الفلسفى أو النظرى لنظرية كولريدج فى الشعر. وهو أساس يمتاز أكثر ما يمتاز بصفتين هما الشمول والوحدة . أما الشمول فلأن هذا الأساس يشمل عالمى الحس والمثال معا، ويخصص لكل منهما ما يناسبه من قدرات الذهن الانسانى . وأما الوحدة فلأن التوفيق بين المتضادات من عناصر هذين العالمين هو الأساس لكل عملية إبداع، وهو الهدف الأسمى التى تتعاون قدرات الذهن المختلفة على تحقيقه. وفى تعريف كولريدج للخيال بأنه القدرة التى تعمل على التوفيق بين المتضادات، استطاع أن يخرج مزجا تاما بين الخصائص المميزة للشاعر وبين ما يقابلها من مميزات العمل الأدبى، حتى إن السؤال: من الشاعر؟ عنده يساوى السؤال : ما الشعر؟ . وكما كانت علاقة كولريدج بوردزورث أساس نظريته فى الخيال إذ كان استماعه إلى إحدى قصائد ورد زورث هو الشرارة التى فجرت فى قلبه اليقين بأن الوهم والخيال قدرتان من قدرات الذهن الإنسانى، وليس الاصطلاحان اسمين لمسمى واحد ولا لدرجتين فى قدرة واحدة، كانت هذه العلاقة أيضا هى الأساس لنشأة نظرية كولريدج فى الشعر - أو على الأقل - لصياغتها فى شكل متكامل . فقد كان الخلاف بين كولريدج وورد زورث حول فقرات وردت فى المقدمة التى كتبها ورد زورث لديوان الأقاصيص الشعرية الوجدانية (سنة ١٨٠٠) بعد مناقشات مستفيضة حول الشعر جرت بين الشاعرين، فبعد أقل من سنتين من نشر الطبعة الثانية للديوان وهى الطبعة التى ضمت هذه المقدمة، كتب كولريدج إلى صديقه صوذى: أنه بالرغم من أن مقدمة ورد زورث نتاج مشترك لذهنينا، فإننى أظن أن هناك فى مكان ما اختلافا

1- See, Walter Iackson Bate Prefaces to Crittocism, (New yow 1959) P.163

بيننا فى آرائنا النظرية فيما يتعلق بالشعر، وإننى سوف أجاهد للغوص إلى أساس هذا الاختلاف. لكن الذى يبدو أن النقد الذى سطره كولريدج لورد زورث فى السيرة الأدبية كان ثمرة الأربعة عشر عاما من التأمل فى الموضوع(١). وقد أوضح كولريدج أنه لا يعترض على التجربة التى قام بها فيها ورد زورث لابتداع أسلوب شعرى جديد وإنما يعترض على محاولة توسيع هذا الأسلوب بحيث يشمل كل أنواع الشعر . كما أن بعض فقرات المقدمة تعد خطأ لأن بعضها يناقض بعضا، ومن ذلك الفقرات التي يقيم فيها ورد زورث مقابلة بين الطبيعة والصنعة أو الفن . بمعنى أن القصيدة لا تكون طبيعية إذا كانت فيها صنعة. أما كولريدج فيرى أن القصيدة تحتوى على نفس العناصر التى يحتوى عليها التأليف النثرى . ولهذا فالاختلاف بينهما لابد أن يكون ناشئا عن ضم بعض هذه العناصر إلى بعض نتيجة لاختلاف الهدف المطروح . فضم بعض العناصر لابد أن يكون متمشيا مع الهدف، وأن تكون الاجزاء المتناسبة فيما بينها متمشية مع الكل، وأن تكون الأسباب متمشية مع الغاية ومع اختيار التقاليد الشعرية ذات الطبيعة الخاصة التى هى الخصائص المميزة للفن .

ويبدأ كولريدج بتعريف القصيدة فيقول:

«إنها ذلك النوع من التأليف الذى يتعارض مع المؤلفات العلمية بأن يجعل المتعة لا الحقيقة هدفه المباشر. ويتميز عن كل الأنواع الأخرى (التى تشترك معه فى نفس الهدف) بطلبه ذلك النوع من المتعة من الكل الذى يتفق مع الإشباع الواضح من كل جزء من الإجزاء»(٢) وهذا التعريف يجعل القصيدة بمنأى عن المفهوم الذى وضعه لها وردزورث . فقد رأى هذا أن اللغة الطبيعية ربما تكون غير موقعة، ولذلك فإن فرض نظام موسيقى ما على القصيدة يبدو أمرا غير طبيعى، وإنما هو اختراع أو تقليد، ومن .ثم وجد نفسه مضطرا لأن يعدّ الوزن حلية إضافية . ولكنه مع ذلك يرى أن لهذه الحلية ما يسوغها لأنها تحدث متعة إضافية تخفف من ألم الانفعالات العميقة . والفرق بين الرأيين فيما يتصل بالوزن واضح، فبينما يعده وردزورث حلية إضافية، أى يمكن أن توجد وأن لا توجد، رغم اعترافه بما تمنحه للقصيدة من متعة إضافية، يعده كولريدج جزء عضويا لا يتجزأ من القصيدة، لا يمكن الاستغناء عنه، لأن ما يمكن أن يضاف أو أن يستبعد لا يمكن أن يكون عنصرا عضويا من الكل، وفي تعريف آخر للقصيدة يذهب كولريدج إلى أنها فن التعبير عن أى شيء نريد التعبير عنه شريطة أن يجمع بين التعبير والإثارة وذلك بغرض تحقيق المتعة

1- M. H. Abrams, The Mirror and the Lamp (1953), P.116

٢ ـ انظر : الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية

بطريق مباشر. ولما كانت القصيدة تتسم بالوحدة فإن ذلك يستلزم وضع كل مكون من أجزاء القصيدة، بحيث يقدم ذلك القدر من المتعة الذى يتوافق مع المتعة المستخدمة من الكل. والوزن عنصر من هذه العناصر يقصد به تقديم قدر من المتعة يتوافق مع ما تقدمه القصيدة بوصفها كلا . وعنصر بهذا الوصف لا يمكن أن يوصف بأنه مجرد حلية إضافية، وإنما هو عنصر مكون من مكونات القصيدة لا يمكن الاستغناء عنه، لأن أى تغير فى العنصر المكون المتسق مع الكل لابد بالضرورة أن تنتج عنه تغييرات فى العناصر الأخرى، ومن شأن هذه التغييرات أن تخرج الكل عن هويته التى كانت له. وكما مر فإن ما يمكن إبقاؤه أو استبعاده لا يمكن أن يكون عنصرا إساسيا فى الكل.

وكما أختلف كولريدج وردزورث حول الوزن اختلفا حول عنصر آخر من عناصر القصيدة هو اللغة . والعنصران مترابطان، ولذلك فإن وردزورث وقد أبى على الوزن أن يكون عنصرا مكونا من عناصر القصيدة، وجد نفسه مضطرا لأن يرفض ذلك النوع من اللغة الذى يرتبط بالوزن أشد الارتباط تلك اللغة التقليدية الطنانة التى توارثها الشعراء بحكم التقليد. وعند وردزورث أن لغة الشعر ينبغى أن تكون تلك اللغة الطبيعية التى يتحدث بها الناس فى حياتهم اليومية، وهم يمرون بانفعالات طبيعية تدفعهم إلى التعبير بهذه اللغة الطبيعية. ومثل هذه اللغة التى تصدر عن تلك الانفعالات الطبيعية لا تختلف عن لغة النثر الجيد، حتى فى أكثر القصائد جودة. وذلك يظهر الطابع النثرى أحيانا فى فقرات أحسن القصائد. ويضرب وردزورث مثلا لذلك بالشاعر ميلتون ويستشهد باحدى صوتيات جراى ليبين أن ليس هناك فرق بين لغتها ولغة النثر من حيث النوع وإن وجد فرق فى الدرجة . ويمضى ورد زورث مؤكداً أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد فرق جوهرى بين لغة النثر ولغة التأليف الشعرى، فالمادة والشكل فى اللغتين سواء، لأن اللغة وسيلة مشتركة وتأثيراتها متشابهة ـ وهو هنا يتجاهل الفروق بين استخدامات الشعراء للغة، وهى فروق فردية لا يمكن إخضاعها لهذه القاعدة الكلية ـ ولكنه ينتهى إلى القول: إن الفرق بين لغتى الشعر والنثر ليس أساسيا لأنه قاصر على التفاصيل الصغيرة . وهكذا يتحول من إنكار وجود فرق بين اللغتين إلى الاعتراف بوجود ذلك الفرق، لكنه فى رأيه قاصر على التفاصيل الدقيقة . وهو موقف لا يخلو من تناقض(١).

ويقصد وردزورث باللغة الواقعية real Language اللغة الطبيعية natural Language . وهو يراوح أحيانا بين الوصفين natural, real ويقصد بذلك

1- See,P.S. Sastri, (Op . Cit.) P.218

اللغة، التي يستخدمها الناس العاديون فى حياتهم اليومية بشكل طبيعي . وهذه اللغة عنده ليست خاصة بالشعر بل هى لغة البشرية كلها حين يتحدث بها الناس وهم يمرون بانفعالات عادية، فتأتى اللغة طبيعية غير منحرفة إلى استخدام كلمات أو تراكيب متعمدة، وهذه اللغة هى التى استخدمها الشعراء الأقدمون الذين كانوا يقرضون الشعر بشكل طبيعى . أما ما يمثل هذه اللغة في العصر الحديث فهو تلك التعبيرات البسيطة غير المصنوعة الصادرة عن مشاعر صادقة لدى قوم ملتصقين بالطبيعة . وهذه اللغة بصفة عامة هى الفيض الغريزى التلقائى للمشاعر فى شكل كلمات. وهذه اللغة التلقائية تقابل اللغة الناتجة على *الترتيب المتعمد للغايات على الوسائل* والمتمسكة بتقاليد شعرية أملاها العرف وأنتجتها الصناعة؛ فانتفت عنها صفة التلقائية واضفى عليها طول الاستعمال نوعا من العادة. إن ما يسمى باللغة الشعرية إنما نشأ فى رأى وردزورث من استخدام أوجه البلاغة استخداما آليا، بعد أن ظلت زمنا تستخدم بشكل طبيعي للتعبير التلقائى عن انفعالات أصيلة وصادقة . وبهذا الاستخدام الآلى المتعمد الذى طرأ على اللغة الطبيعية استخدمت أوجه البلاغة فى التعبير عن مشاعر وانفعالات ليس لها وجود أصيل فى نفوس الناس. وبذلك نشأت تلك اللغة المصنوعة التى يسمونها لغة شعرية، وما لبثت هذه اللغة الشعرية أن تغلبت على اللغة الطبيعية على أقلام الشعراء وتوارثوها جيلا بعد جيل.

هكذا ينحاز وردزروث انحياز كاملا إلى الطبيعة رافضا الفن (الصناعة) رفضا تاما. وبالرغم من أن كولريدج يتفق مع ورد زورث على ضرورة الانفعال فى الشعر إلا أنه يفرق بين انفعال استثير بطريق مباشر ـ وهو ما يرفضه ـ وانفعال ناتج عن تحريك تقنيتين أساسيتين فى الشعر هما أوجه البلاغة والوزن، وهنا يتقبل كولريدج النظريات الطبيعية البدائية للقرن الثامن عشر فيذهب إلى أن الانفعالات العنيفة تتطلب للتعبير عنها لغة مجازية، وأن الأوجه البلاغية هى فى الأصل وليدة الانفعال، وأن الانفعال القوى يتطلب لغة أكثر إيقاعا من لغة الحديث العادى، وأن الوزن نفسه ينطوى على نوع من الانفعال . وبصفة عامة يوافق كولريدج على وجهة نظر وردزورث فيما يتصل بتاريخ اللغة وانحدارها من لغة طبيعية تعبر عن مشاعر أصيلة إلى مجرد صناعة وزخرف. لكنه يرفض ما ذهب إليه ورد زورث من أن لغة فلاحى منطقة البحيرات تمثل اللغة الطبيعية . إن نظرية كولريدج فى الخيال ترفض بطبيعتها مبدأ ورد زورث فى المقابلة بين الطبيعة والفن. فقد سبقت الاشارة إلى أن عمل الخيال الثانوى أو الخيال المبدع يتمثل فى التوفيق بين المتضادات ومزجها فى كل هو أعلى

مستوى منها. وهذه المتضادات لا توجد في عالم الطبيعة وحده وإنما توجد في العالم المادي وفي عالم الفكر. وبذلك يحل التوفيق بين المتضادات عند كولريدج محل الطبيعة التي نادي بهـا ورد زورث. وإذا قـيل أن المتضادات هي الطبيعة فإن التوفيق بينها هو الفن. لذلك يرفض كولريدج ما ذهب إليه وردزورث من أن لغة الشعر لا تختلف ولا يمكن أن تختلف عن لغة الحديث العادي لأهل الريف حين يعالجون أمورهم اليومية ويمرون بإنفعالات عادية . فاللغة عنصر من عناصر القصيدة كما أن الانفعال عنصر من عناصـرها، ولابد أن تتـوافق هذه العناصر مع غيرها من عناصر القصيدة لتسهم في اتساق وانسجام في تحقيق الهدف المباشر للقصيدة وهو المتعة . ولتأييد وجهة نظره يستشهد كولريدج بشعر وردزورث نفسه ليبين أن كثيرا من قصائده تخرج على مبدئه الذي ذهب إليه من حيث اللغة والموضوع على السواء، ويضيف أن الحياة الريفية تستتبع بالأخرى الخشونة وضيق الأفق لا الامتياز في المشاعر واللغة . وأمـا تأكـيد ورد زورث أن ليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك فرق بين لغة الشعر ولغة النثر، فـإن كولريدج يرى أن هناك أنماطا من التعبير تصلح للنثر بطبيعتها لكنها لا تنسجم مع الشعر الموزون، وأن هناك نوعا من المفردات وأوجه البلاغة يناسب القصائد الجادة، ويبدو غريبا وشاذا في النثر. وبعبارة أخرى فإن قانون الطبيعة الذي ينطبق على لغة الحديث العادي ليس له ما يسوغه في لغة الشعر، وبخاصة حين ترد هذه اللغة في قصيدة لها غاياتها ووسائلها المختارة لتحقيق هذه الغايات . وعلى ذلك فالقصائد التي تجمع بين اللغة الطبيعية واللغة المصنوعة ، بين التلقائية والقصد، بين الطبيـعة والفن ، هي التي تمثل الشعر الأصيل. وإذا كان كولريدج يتفق مع ورد زورث على ضرورة الانفعال في الشعر، فإنه يرى أن كل انفعال يتطلب نمط التعبير المناسب له . أي أن اختلاف الانفعالات يقتضي تنوع أنماط التعبير التي تناسب كلا منها . ولكل حالة نفسية تعبير يتناسب معها. وكما يتطلب نوع الانفعال نوعا معينا من اللغـة ـ فكذلك الوزن ـ لأن العناصر المكونة للقصيدة يتأثر بعضها ببعض . إن كولريدج يرى للوزن تأثيرا مزدوجا ناشئا عن التتابع الزمني العروضي. وترجع متعة الشعر جزئيا إلى ما يكون لدى المتلقي من توقع سابق . ففي القراءة جذبات تتمثل في التقدم والتقهقر، يشبهها كولريدج بحركة الأفعى . ولهذا فالوزن ليس حلية إضافية كما ذهب إلى ذلك وردزورث لأنه عنصر من عناصر القصيدة لا بد أن يتفاعل مع بقية عناصرها لتحقيق الهدف المباشر لها وهو المتعة . والشعر على ذلك ليس فيضا تلقائيا للمشاعر بل هو عمل شاق تلتقي فيه الطبيعة والفن .

ومن العناصر المكونة للقصيدة والتى أولاها كولريدج قدرا كبيرا من الاهتمام عنصر الرمز، ذلك أن الفن ليس محاكاة للطبيعة فقط بل هو كذلك رمز لها . ذلك أن الخيال يعمل فى الطبيعة وهى كما مر ليست الطبيعة المادية فقط وإنما هى تلك النقطة التى يرتكز فيها تفاعل ما هو مادى وما هو مثالى . وهنا يبدأ عمل الخيال الذى هو التوفيق بين هذه المتضادات والتوحيد بينها، فيوحد بين المادى والمجرد ثم ينفث فى الكل الذى ينشأ عن هذا التوحيد من طبيعته، فيرتفع إلى مستوى أرفع من مستوى الموضوعات الخارجية، ويحول الكلمات التى يعبر بها عنه إلى أشياء عن طريق الرمز. والفكرة والرمز الذى يعبر عنها هما وسيلتا الشاعر لتمثيل روح الطبيعة أو الطبيعة الكلية، لأن الرمز هو الوسيلة التى يمكن بها تمثيل الفكرة . ولذلك يقابل كولريدج فى السيرة الأدبية بين الرمز Symbol والكناية Allegory كما قابل بين الخيال والوهم، وكما قابل بين العضوى والآولى. فالرمز وحدة الكلى والمعين لأنه يشارك فيما يرمز إليه، وبذلك يدل بوضوح على الكل(١) والرمز متضمن فى الفكرة التى يمثلها، أما الكناية فهى ترجمة المجردات إلى صور. والرمز بهذا المعنى عنصر أساسى فى المحاكاة لا تتم إلا به، وبوصفه عنصرا من العناصر المكونة للقصيدة لابد أن يكون متسقا مع بقية عناصرها لأنه كغيره من هذه العناصر من إبداع الخيال.

* * *

هكذا عرف كولريدج القصيدة، وبقى عليه كما وعد فى الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية أن يعرف الشعر «من حيث النوع أو من حيث الجوهر»، لكنه قدم لهذا التعريف بملاحظة من شأنها أن تجعل للشعر مفهوما مستقلا عن مفهوم القصيدة. فقد لاحظ «أن كتابات أفلاطون وبيشوب تيلور والنظرية المقدسة لبيرنيث تقدم أدلة لا تنكر على أن أرقى أنواع الشعر يمكن أن يوجد بدون وزن، بل حتى بدون الأغراض المميزة للقصيدة. فالفصل الأول من أشعياء شعر بكل ما فى الكلمة من معنى . ومع ذلك فإنه يكون من غير المعقول بقدر ما هو غريب تأكيد أن المتعة وليست الحقيقة كانت الهدف المباشر للنبى. وباختصار فأيا كان المعنى المحدد الذى ننسبه لكلمة «شعر» فسوف تتضمن الكلمة بالضرورة ـ باعتبار ذلك نتيجة ضرورية ـ أن قصيدة أيا كان طولها لا يمكن أن تكون ولا ينبغى أن تكون كلها شعرا»(٢)، ومعنى ذلك أن الشعر جوهر لطيف يمكن أن يوجد فى القصيدة كما يمكن أن يوجد فى غيرها من أنواع الكلام ـ وإذا أخذنا فى الحسبان أن هذا الجوهر هو من إبداع الخيال استطعنا أن نقول ـ

1- See,P.S. Sastri, (Op . Cit.) P.218

(٢) راجع الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية.

وفى كل أنواع النشاط الإنسانى الذى يتسم بالعبقرية . ولذلك فليس من الضرورى أن نقيد الشعر بما تتقيد به القصيدة من وزن وقافية، وإذا لم يكن من الضرورى أن تتكون كل أجزاء القصيدة من هذا الجوهر فإن صفة الشعرية لا تتم لها إلا بوجوده . وحين يوجد في بعض أجزاء القصيدة لابد أن ينسجم مع بقية عناصر القصيدة التى لا يوجد فيها، لأن وحدة القصيدة لاتتحقق إلا بهذا الاتساق . ويرى كولريدچ أن السؤال: ما الشعر ؟ هو من الدنو من السؤال : ما الشاعر؟ بحيث تكون الإجابة على أحدهما متضمنة للإجابة على الآخر. ذلك أن الوضوح الذى يكيف الصور والأفكار والعواطف فى ذهن الشاعر ناتج عن العبقرية الشعرية نفسها . ثم يمضى فى وصف الشاعر فى كماله المثالى بأنه يدفع روح الإنسان من كل أطرافها إلى النشاط مع ترتيب قدراتها المختلفة الواحدة أدنى من الأخرى حسب قيمة كل منها. ولذلك فإن إعجابنا بالشاعر إنما هو تابع لتعاطفنا مع الشعر. ويختم كولريدچ هذا الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية بقصيدة للسير جون ديفيز عن الروح، ويرى أن القصيدة أكثر مناسبة للخيال الشعرى . ومنها:

أما أنها لتحول

الأجساد إلى أرواح عن طريق التسامى الغريب كما تحول النار الأشياء التى تحرقها إلى نار، وكما نغير نحن الطعام إلى طبيعتنا .

وإذا كان القارىء لم يخرج من هذا الفصل بتعريف منطقى للشعر كما خرج بتعريف منطقى للقصيدة، فإن كثيراً من الموجودات التى لا يتطرق الشك إلى حقيقة وجودها تستعصى على مثل هذا التعريف .

* * *

ذلك تلخيص للخطواط الأساسية لنظرية كولريدچ فى الشعر . وإذا كان المذهب الرومانتيكى قد أصبح تاريخيا بوصفه مذهبا أدبيا، فإن كثيرا من مبادئه لا يزال يسبح فى جو الحركة النقدية إلى الآن . ومن الطبيعى أن يرجع أكثر ما بقى إلى اليوم إلى كولريدچ، لأنه كان من بين الرومانتيكيين الذي ترك نظرية متكاملة فى الشعر ونقده أرساها على أسس فلسفية وجمالية . لقد سار كولريدچ،فى بحثه فى هذه النظرية على مبدأ محاولة التعرف على الصفات المميزة للشعر وال reison d ' etre لهذه الصفات . وكما يقول « تبدأ الفلسفة بعملية تمييز وتنتهى باكتشاف كيف تشكل هذه الخصائص المميزة وحدة فيما بينها؟ كيف تختلف القصيدة عن الطرق الأخرى لاستخدام اللغة ؟ وما نقطة الاختلاف بين هذا وذاك ؟ وكيف نستطيع التعليل لنقاط الاختلاف على أساس من وظيفة القصيدة وطبيعتها؟ وهذا ما يمكن أن يسمى بطريقة التعرف على جوهر الأشياء -onthologi

cal approach أى النظر إلى الظاهرة ومحاولة التعليل لما هى عليه عن طريق الوقوف على وظائفها، وبهذا أدخل كولريدج هذا المنهج إلى نقد الشعر لأول مرة فى انجلترا . لقد تحدث سيدنى قبله عما يمكن أن يوظف فيه الشعر ، وتحدث درايدن عما يمكن أن يصنعه الشعر، وتحدث وردزورث عما يجرى فى عقل الشاعر . لكن كولريدج مستخدما منهج أرسطو - وإن لم ينظر بالطريقة نفسها إلى الظاهرة - يعيد المسئولية إلى البحث الجمالى(١).

ومن الأفكار التى بقيت وازدهرت بعد اختفاء المذهب الرومانتيكى - وهى ترجع إلى كولريدج - تحليلاته السيمانتيكية وفحصه الدقيق المستوعب للتعقيدات اللفظية . وتكشف الإشارات المتكررة فى السيرة الأدبية والمناقشات التى درات حول معانى الألفاظ، وبخاصة ما أورده عن الوهم والخيال - عن أن كولريدج كان واحدا من علماء المعانى. فقد اهتم بالكشف عن معانى الكلمات وحرص على معرفة سلوكها فى الشعر. وقد قدم نماذج رائعة لتحليل الشعر، ومن ذلك مناقشته لفقرة من مسرحية (فينوس وأدونيس) لشيكسبير . وقد التقط ريتشاردز هذا الموضوع من كولريدج وأفاض فى شرح العلاقات المتبادلة بين الصور المختلفة، لدرجة أن النقد العلمى عند ريتشاردز يرد قدر كبير منه بمناسبة تحليل موضوع من الموضوعات على طريقة كولريدج، ويتجلى هذا بشكل أوضح عند إمبسون تلميذ ريتشاردز(٢).

ومما يتصل بعلم المعانى أيضا ريادة كولريدج للاتجاه الرمزى . فقد آمن كولريدج بأن الكلمات تخلق المعرفة . وذلك جزء من نظريته فى الخيال باعتبار أن الشعر يبدعه الخيال عن طريق الوساطة بين الذات والموضوع. يقول كولريدج فى رسالة له إلى جودوين(١١ سبتمبر ١٨٠٠):

«أود أن تؤلف كتابا عن قدرة الكلمات ..... وهل التفكير غير ممكن دون علاقة اعتباطية؟ وإلى أى مدى تعد الكلمة الاعتباطية خطأ؟ أليست الكلمات....إلخ أجزاء عضوية ؟ وما قانون نموها ؟ فى شىء من هذا وددت أن أحاول تحطيم المقابلة القديمة بين الكلمات وبين الأشياء متساميا بالكلمات إلى أشياء، وأشياء حية».

إن كثيرا من التطورات الأخيرة فى النظرية الأدبية يمكن أن تقرأ على أنها محاولات للإجابة على الأسئلة التى وضعها كولريدج أمام جودوين. لقد شغل فلاسفة العصر الحاضر- كروتشه وكولينجوود وكاسيرر وسوزان لانجر - أنفسهم بالقوانين التى تحكم نمو الكلمات. ويمكن أن

1 - David Daiches. An Introduction to the Study of Literature,pp .100 - 101.
2 - william wimsatt and Cleanth Brooks, Literary Criticism, (New york 1959) pp.639 - 37

يقال: إنهم قطعوا شوطا بعيدا فى تحطيم المقابلة القديمة بين الكلمات والأشياء .(١).

لقد كان كولريدج فى المجال الرمزى رائدا لصف طويل من النقاد الانجليز كما كان كذلك أيضا بالنسبة للتجريديين الأمريكيين . فقد انغمس أتباع كولريدج من الأمريكيين فى معالجة قضية الرمز أكثر مما انغمس الانجليز. وكان رائدا لـ «بو» ومن ثم لـ «بودلير» والرمزيين الفرنسيين . كما أخذ أمرسون من كولريدج بطريق مباشر، وإذا كانت كتابات بو قد قدمت أول وثائق الحركة الرمزية . فقد صاغ منهجا أدبيا صحح ما أصاب الرومانتيكية من تفكك، وشذب ما كان فيها من مبالغات، وقد كان هناك قدر كبير مشترك بين شعريو وأشعار الرومانتيكيين مثل كولريدج فى «كوبلاخان». ويرى ويليك أن النقد الرومانتيكى يمكن أن ينظر إليه على أنه إقامة نظرة جدلية رمزية إلى الشعر . إنها تنشأ عن القياس العضوى ثم تنظر إلى الشعر على أنه وحدة الأضداد ونظام من الرموز . وتبدو هذه النظرة قيمة وصحيحة بصفة جوهرية حتى فى هذه الأيام . ونجدها فى ذلك الوقت خارج المانيا عند ناقدين بارزين هما كولريدج وهوجو (٢).

لقد كان كولريدج ـ مع كروتشه والرمزية الفرنسية ـ من السوابق المباشرة للنقد الأمريكى الإنجليزى الحديث الذى يعرف بالنقد الجديد ، فقد استند هذا النقد إلى مفهوم «الشكل العضوى» الذى يرجع إلى كولريدج . ويفسر هذا المفهوم العمل الأدبى ـ وبخاصة فى الشعر ـ على أنه يبدأ بمثابة بذرة فى الخيال الثانوى (الإبداعى). وهذه البذرة تنمو على غير وعى من الشاعر متشبعة بعناصر مختلفة . وقد استند النقاد الجدد على هذا فى تأكيدهم وحدة العمل الأدبى، فأجزاؤه وعناصره لا يمكن بحثها منفردة لترابطها الوثيق فى إطار ما يسمى بالشكل العضوى (٣).

إن كتاب السيرة الأدبية يمكن أن يعد بحق إنجيل النقد الجديد، وقد مال النقاد المعاصرون إلى أن ينظروا إليه على أنه أعظم عمل نقدى فى اللغة الإنجليزية، وفى الصفحة الأولى من الكتاب يجد القارىء ما يمكن أن يعد بيانا بالنقد الجديد إذ يقول كولريدج : «..... ليكون ذلك مقدمة لعرض مبادىء فى السياسة والدين والفلسفة، وتطبيق القواعد المستخرجة من المبادىء الفلسفية على الشعر والنقد» . لقد سبق كتاب السيرة الأدبية زمانه بقرن من الزمان. ولم يمنع كولريدج من إرساء قواعد النقد الجديد كاملة إلا عدم كفاية المعلومات المتاحة. إنه على كل حال ـ باستثناء أرسطو ـ أعظم رواده.(٤) .

1 - Ivid , p . 584 .
2 -Rene wellek, Ahistony of modern citicism, (op . it.) p. 3 .
٣ ـ رامان سيلون، النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة جابر عصفور (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩١) ص ١٥٥ هامش ٢١ .
4 - Stanley Edgar Hyman, The Armed Vision (New york 1955) pp . 13 - 14 .

عالمية الشعر المكتوب بالإسبانية

خوان رامون خمينيث والشعر في إسبانيا وأمريكا اللاتينية

د . حامد أبو أحمد *

خوان رامون خمينيث شاعر إسباني كان له دور كبير في تأصيل عدد من الاتجاهات الشعرية في الشعر الإسباني خلال النصف الأول من القرن العشرين مثل حركة الحداثة، والحركة الرمزية، والشعر الصافي، وهذا الاتجاه الأخير بالتحديد يستحق فيه بجدارة صفة « الرائد » لأن دواوينه التي ظهرت فيه مثل ديواني « صيف » و « يوميات شاعر حديث الزواج » تعد من الأعمال المهمة التي كان لها أصداء قوية وتأثرات حاسمة على الأجيال التالية. ولذلك فإنه من هذه الزاوية يعد الأستاذ المباشر أو الأب الروحي لأهم جيل في الشعر الصافي في إسبانيا وهو جيل ١٩٢٧ .

وخوان رامون خمينيث شاعر ينسب لمنطقة الأندلس الواقعة في جنوب إسبانيا، فقد ولد عام ١٨٨١ في قرية موجير التابعة لإقليم ويلبة Huelva، ويعد خوان رامون من الشعراء الذين يتميزون بإحساسهم الغامر تجاه المكان الذي ولدوا فيه، وعاشوا على أرضه فترة طفولتهم وصباهم، ولهذا نجده في أشعاره وفي كلماته النثرية يفخر بنسبته إلى موجير وإلى الأندلس، وكان يطلق على نفسه دائما صفتي «الأندلس العالمي». ومن أقواله في ذلك: «إن مستقبلي، مثل ماضي، كامن في الأندلس. ونحن الأندلسيين لابد أن نهيم بحبها، ونرفع ذكرها في كل أنحاء العالم، بحيث لا تصبح

* أستاذ الأدب الإسباني بكلية اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر .

هى عالمية، بل يصبح العالم كله أندلسيا»(١) ولا شك أن هذه الكلمة، بما تنطوى عليه من مبالغة محببة، تدل على الحب الشديد الذى كان يشعر به خوان رامون تجاه الأندلس. وأعتقد أن هذا الحب الغامر، الذى لم يقتصر فقط على الأرض بل تعدى ذلك إلى كل ما هو موجود على الأرض من ناس وكائنات أخرى حيوانية أو نباتية، كان هو الدافع وراء كتابته لعمله الشهير «حمارى وأنا» (Platero y yo)، والذى كان من أهم الأعمال التى أهلته للحصول على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٦ وهذا الكتاب عبارة عن مقطوعات، كل مقطوعة فى حدود صفحة أو أقل أو أكثر من النثر الشعرى أو الشعر المنثور، ترد على شكل تأملات أو على شكل حوارات شعرية بين الشاعر والحمار، لهذا فإن فصول كتاب «حمارى وأنا» ليست إلا قصائد نثرية تخلت تماما عن المعمار التقليدى للشعر واستعاضت عنه بالموسيقى الداخلية، وبالصور الشعرية البسيطة والمركبة، وبالتحليق فى سبحات الخيال، وبناء عالم غير مألوف على الرغم من استناده إلى أجزاء الواقع الحي . وقد تميزت اللغة بالتكثيف القائم إما على الإيجاز أو السرعة أو البطء. كما يبدى الشاعر مرونة كبيرة فى استخدامه للجملة النحوية، وفى بنائه للصورة الشعرية، حتى ليبدو عالمه الشعرى فى بعض الأحيان وكأنه عالم أسطورى لا يمت إلى الواقع بصلة(٢).

ومن أمثلة هذه اللغة النثرية الشعرية نقتطع المثال التالى من الفصل رقم ٩ الذى يحمل عنوان «التين»، يقول : «كان الليل نائماً تحت أشجار التين المعمرة مئات السنين بجذوعها الرمادية التى تتصل بأطرافها القوية فى الظل البارد كأنها تحت رداء، وكانت الأوراق العريضة التى وضعها آدم وحواء تخزن نسيجاً رقيقاً من لؤلؤ قطر الندى الذى تميل معه خضرتها الناضرة إلى شحوب، ومن هنالك جعل يتراءى بين الياقوته السفلى الفجر وهو يصبغ بلونه الوردى حجب المشرق التى لا لون لها».(٣)

فهذه المرثية الأندلسية كما أسماها المرحوم الدكتور لطفى عبد البديع عندما ترجمها ونشرت باللغة العربية عام ١٩٥٩، تدل على الهيام الذى كان يملك على خوان رامون جماع نفسه تجاه كل شارع وكل مكان وكل صخرة وكل شجرة.. الخ فى موجير. ولهذا عندما عاش بعيداً عن إسبانيا بعد عام ١٩٣٦ أى عند نشوب الحرب الأهلية الإسبانية، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٩٥٨ كتب إلى موجير يقول: «وأنا منسحق وبعيد سأفعل من أجلك ياموجير، فى عالم المثل، مالم يرد أن يفعله ماديا من أجلك هؤلاء الذين مسوك بالإثم، وهم المحتالون والأشباح والأنانيون. سأحملك ياموجير إلى كل البلدان، وكل الأزمان، وستكونين يا قريتى المسكينة خالدة بسببى رغم أنف الانتهازيين».(٤)

وفى هذه الدراسة سوف أتناول شعر خوان رامون خمينيث من خلال ثلاث أطروحات مهمة هى :

١ ـ حركة المثاقفة (أو التأثير والتأثر) فى مجال الأدب بين إسبانيا وأمريكا اللاتينية.

٢ ـ عالمية الشعر الإسبانى خلال النصف الأول من القرن العشرين.

٣ ـ إسهام الشعر الإسبانى فى ظهور حركة الشعر الحر فى العالم العربى .

فيما يتعلق بالأطروحة الأولى نجد أنها تمثل موضوعاً مهما فى مجال تبادل التأثير والتأثر بين الشعوب والحضارات. فمعروف أن الوجود الإسبانى فى بلدان أمريكا اللاتينية بدأ منذ عام ١٤٩٢م أى منذ اكتشاف الأمريكتين على يدى كريستوفر كولومبس (والإسبان يسمونه كولون Colon) بدعم وتمويل من الملكيين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا. ومن العادة أن يقارن مؤرخو الثقافة والحضارة بين ما فعلته إسبانيا فى البلدان التى كانت خاضعة لها والتى سميت بلاد أمريكا اللاتينية أو الإسبانية وما فعلته دول أخرى مثل انجلترا فى المناطق الخاصة بها. وتأتى المقارنة عادة لصالح إسبانيا على الرغم من المجازر البشعة التى حدثت للهنود الحمر وغير ذلك من صنوف النهب والاستغلال التى عرفت عن المستعمرين الأوربيين بصفة عامة، لكن يبدو أن إسبانيا قد أفسحت المجال لنشوء ثقافات قومية فى البلاد التابعة لها، ومن هنا بدأت تظهر شخصيات أدبية مهمة، بل وثقافية مثل فراى بارتلومى دى لاس كاساس (١٤٧٤ ـ ١٥٦٦م)، الذى يعد أول مؤرخ كبير فى أمريكا اللاتينية، وله كتاب عنوانه «التاريخ العام لبلاد الهنود الحمر» يقال إنه كتبه عام ١٥٢٠م لكنه لم يطبع إلا فى عام ١٨٧٥م، وكتب أيضاً «الوجيز فى التعريف بتخريب بلاد الهنود الحمر». وقد قدم هذا الكتاب إلى العاهل الإسبانى عام ١٥٤٢م مما أدى إلى دعوة مجلس مدينة وادى الوليد Valladolid للانعقاد بحضور الامبراطور نفسه حيث دافع لاس كاساس عن حرية الهنود الحمر على عكس ما كان يطالب به قناصلة آخرون. وقد أسفر احتدام المناقشات داخل المجلس عن ظهور «القوانين الجديدة» التى أصدرها الامبراطور شارل الخامس خلال عامى ١٥٤٢ و ١٥٤٣، والتى حرم فيها لأول مرة نظام «المنح»، الذى كان يسهل عمليات استعباد الهنود الحمر. ومن الملاحظ أن أهالى بلدان أمريكا اللاتينيةالأصليين قد استوعبوا اللغة القشتالية (الإسبانية) بسرعة، ومن ثم لم تلبث أن ظهرت شخصيات أدبية كبيرة مثل الإنكا جارثيلاسو دى لابيجا الذى ولد فى كوثكو عام ١٥٣٩، وكان أبوه من قادة الفتح الإسبان بينما كانت أمه إيزابيل شيمبو

أميرة من قبائل الإنكا، وأهم أعماله كتابه «تعليقات واقعية»، الذى نشر فى جزأين عامى ١٦٠٥ و ١٦١٦م، وهذا الكتاب يعد تاريخا، وملحمة، وقصة فى آن، وقد قال ناقد من أمريكا اللاتينية منذ فترة قليلة: «إن الأدب الحقيقى فى هذه القارة بدأ بأديب من بيرو هو الإنكا جارثيلاسو دى لابيجا، وبلغ قمته فى أيامنا الحاضرة بأديب آخر من بيرو أيضاً هو ماريو بارجس يوسا». وهناك أيضاً سور خوانا إنيث دى لاكروث (المكسيك ١٦٥١ ـ ١٦٩٥م)، وتعد من أكبر شاعرات المكسيك وأمريكا اللاتينية. وللشاعر المفكر أوكتابيو باث (نوبل فى الآداب ١٩٩٠). كتاب كبير ومهم عنها.

وهكذا أخذ يتوالى ظهور الشخصيات الأدبية المهمة فى بلدان أمريكا اللاتينية. لكن الأدب والثقافة بصفة عامة فى تلك البلدان ـ فيما عدا ثقافة التمرد والتحرر من المستعمر بالطبع ـ ظلت متأثرة بما يحدث فى البلد الأم (إسبانيا) إلى أن جاءت الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى، وهنا أخذت الآية تنقلب، لأن جانباً كبيراً من التأثير منذ تلك الفترة بدأ يأتى من أمريكا اللاتينية. وأول من بدأ هذا التأثير المهم والقوى هو شاعر نيكاراجوا روبن داريو (١٨٦٧ ـ ١٩١٦)، الذى يعتبر بحق رائد الحداثة فى الشعر المكتوب باللغة الإسبانية، وكان تأثيره فى إسبانيا لا يقل بأية حال عن تأثيره فى امريكا اللاتينية. نشر روبن داريو مجموعته الشعرية الأولى «رسائل وأشعار» عام ١٨٨٤م ثم صدر ديوانه الثانى «أزرق» Azul عام ١٨٨٨ . وهذا الديوان أثار انتباه النقاد فى إسبانيا بعد أن نوه به أكبر أديب إسبانى فى ذلك الوقت وهو خوان باليرا juan valera ثم ظهر ديوان «نثريات دنيوية» PROSAS PROFANAS عام ١٨٩٦ . وقد قال الشاعر الناقد دامسو ألونصو (من جيل ١٩٢٧) عن هذا الكتاب «إن ديوان «نثريات دنيوية» قد نقل إلى إسبانيا روح قرن كامل من الشعر الفرنسى. وأعتقد أنه منذ يوم غرناطة الشهير لم توجد لحظة أكثر تفاؤلا وأكثر امتلاء بأنوار الفجر العذراء من هذه اللحظة» . ويوم غرناطة الذي يشير إليه دامسو ألونصو يوم مشهود فى تاريخ الشعر الإسبانى فى العصر الذهبى (القرنان السادس عشر والسابع عشر) لأنه اليوم الذى التقى فيه ناباخيرو Navajero قنصل إيطاليا فى غرناطة مع خوان بوسكان أحد الشعراء الإسبان فى تلك الفترة، والذى كان يبحث عن طريق جديد للشعر الإسبانى، ووجه ناباخيرو سؤالا إلى بوسكان: لماذا لا تجربون كتابة الشعر على الطريقة الإيطالية المستحدثة، أى الأوزان الجديدة والمعانى الجديدة التى أبدعها شاعر عصر النهضة الإيطالي بترارك. ومن العجيب أن الشاعر الذى اقتنع بهذه الفكرة ومثلها خير تمثيل فى شعره هو جارثيلاسو دى لابيجا صديق بوسكان وزميله فى

البحث عن طريق جديد للشعر الإسباني. وما يهمنا هنا هو الربط الذى قام به دامسو ألونصو بين يوم غرناطة المذكور، الذى أدى إلى حدوث تغيير جذرى للشعر الإسبانى فى القرن السادس عشر، وبين تلك اللحظة من عام ١٨٩٦، التى ظهرت فيها كتاب «نثريات دنيوية» لروبن داريو، لأن داريو هو الآخر قد قام بمهمة شبيهة، إذ نقل إلى الشعر الإسبانى روح مرحلة مهمة من الشعر الفرنسى، وهى التى تألقت أثناءها، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، مدرستان فى غاية الأهمية وهما البرناسية والرمزية. وفى هذا يقول الناقد النمسوى الدارس للثقافة الإسبانية جوستاف سيبمان: «إن أعمال روبن داريو كانت بمثابة حلقة اتصال استطاع الشعر الإسبانى من خلالها أن يقترب من الشعر الأوربى الذى عاش فترة ازدهار هائلة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ولهذا نجد موضوعات روبن داريو تتميز بكثرة العناصر الأوربية حيث نجد بها أساطير قديمة، وحكايات من العصر الوسيط، وذكريات من العصر الذهبى ومن الرومانتيكية الفرنسية. كما أن الفنون الأخرى مثل الرسم والنحت والموسيقى قد لعبت دوراً مهما فى أعمال داريو. وثمة شىء آخر هو أن النسق الشعرى عند داريو، مثله فى ذلك مثل أى شاعر أوربى حديث، له أهمية حاسمة: فالشعر لايمكن تبريره إلا فى حالة واحدة فقط هى عندما يتحول الشىء الجميل إلى عمل فنى ذى قيمة. ولعل هذا هو الذى جعل داريو يفكر فى أن تجسيد الجمال فى الشكل الشعرى أمر تحدده الموسيقى .. ومن ثم فإن دور روبن داريو فى التجديد العروضى فى غاية الأهمية»(٥).

وبهذا كان تأثير روبن داريو فى الشعر الإسبانى حاسماً وقوياً، وقد بدأ الشعراء فى إسبانيا ، حتى الكبار منهم مثل سلفادور رويدا وفرانثيسكو بياسبيسا يتأثرون به وينضمون إلى حركته المسماه حركة الحداثة «EL MODERNISMO»، وأخذ شباب الشعراء يتطلعون لهذه الحركة، وينضمون أيضاً إليها، وشاعت لدى الجميع مقولة «التضامن للدفاع عن حركة الحداثة»، لدرجة أن بياسبيسا أرسل إلى الشاب خوان رامون فى أوائل عام ١٩٠٠م بطاقة موقعة أيضاً من روبن داريو (الذى كان قد حضر إلى إسبانيا) يخاطبه فيها بالأخ ويدعوه للذهاب إلى مدريد (وترك موطنه فى الأندلس) للكفاح معهم من أجل الموديرنزم وقد فرح خوان رامون بهذه الدعوة فرحاً شديداً، وحزم حقائبه وتوجه إلى مدريد، ليبدأ الرحلة الأولى فى طريقه الشعرى الطويل شاعراً من شعراء الحركة الحديثة، ويصدر بعد ذلك بقليل ديوانيه «حوريات» Ninfeas و«أرواح البنفسج» Almas de violeta ، وهما ديوانان ظهرت فيهما

خصائص الحركة الحديثة مثل تلوين الإحساس، والتعبير بالرمز والأسطورة، والتحرر والتجديد العروضى وغير ذلك مما نجده فى تلك الكلمة التى قدم بها فرانثيسكو بياسبيسا لديوان «أرواح البنفسج»، إذ قال: «إن الاتجاهات الأدبية الحديثة تجذب يوما بعد يوم عددا كبيراً من الأرواح المتحمسة. وعلى الرغم من أننا لا نعدم وجود بعض الاتجاهات المسكينة التى تخصى شخصيتها كى تصبح مجموعة من الخصيان ضمن حريم الشيوخ العاجزين، فإن الشباب، الشباب المكافح الواعد يتجمع حول العلم (بفتح العين واللام)، عازمين على غزو الاتجاه الامثل فى جد ومثابرة. إن الفن الجديد متحرر وكريم وكونى. إنه يجمع مميزات الشباب ونقائصهم، وهو خالد بالطبع، صوفى بالوراثة، وثنى بالمزاج»(٦)، ومن أشعار خوان رامون فى تلك الفترة نقتطع هذا الجزء من قصيدة «شذى» Perfume من ديوان «حوريات»:

آه أيتها الورود، أيتها الأزهار أيتها السنابل، أيها الياسمين !

آه أيتها الزهور العذراء بالحدائق المنعشة!

أعطوا للأزرق الهادئ أغنيتكم الصافية....

ولتتشابك نورياتكم .... ، وفى باقة مثلجة، طوقوا الجبهة النبيلة لزهور متجردة.....، وغطوا بالقبلات البيضاء قلبها الأبيض!

ولا شك أن خوان رامون خمينيث لم يلبث أن ابتعد عن شعر الحداثة بحثا عن طريقه الخاص وأصالته الشعرية، وأثناء ذلك اتصل عن قرب بالحركة الرمزية عندما ذهب إلى المدينة الفرنسية بوردو للاستشفاء فى إحدى المصحات القريبة منها، وقد كتب عددا من دواوينه الشعرية تحت تأثير هذه الحركة التى وصفت دائماً بأنها كانت كَوْنية، أى كان لها تأثر غامر على كل شعراء العالم فى تلك الفترة وكثيرون منهم اشتركوا فيها إما بانتقالهم جسديا إلى باريس أو بتمثل خصائصها عن بعد. ولكن خوان رامون سوف يكتب بعد ذلك شعره الصافى، الذى يمثل إبداعه الحقيقى والذى كان له تأثير كبير وأصداء واسعة لدى الجيل التالى له. وقد أعلن خوان رامون فى قصيدة مشهورة له (تعد بمثابة بيان أو مانيفستو لتطوره الشعرى) تمسكه إلى الأبد بهذا الشعر، على نحو ما يقول:

جاءت، فى البداية ، صافية،

ترتدى رداء البراءة

فأحببتها مثل طفل.

ثم أخذت فى ارتداء

أزياء لست أدرى كنهها...

فأخذت أكرهها، دون أن أدرى

ثم أصبحت ملكة ،

مزينة بكثير من الكنوز

يالها من أشياء بلا معنى!

... لكنها أخذت تتعرى

وأنا أبتسم لها.

ثم عادت إلى مسوح

براءتها القديمة،

فآمنت من جديد بها.

ثم رفعت مسوحها،

وظهرت عارية بالكامل...

آه يا حلم حياتى، أيها الشعر

العارى ، أنت لى إلى الأبد. (٧)

ولعل أخصب فترة فى حياة وأعمال خوان رامون خمينيث هى فترة العقدين الأول والثانى من القرن العشرين، وقد ظهرت أثناءهما أهم أعماله الشعرية والنثرية، والأخيرة يمثلها بالتحديد كتابه المذكور «حمارى وأنا». أما أعماله الشعرية من الشعر الصافى فتمثلها دواوين «صيف» Estio عام ١٩١٥، وديوان «يوميات شاعر حديث الزواج» (١٩١٦) وغالبية النقاد يعتبرون ديوان اليوميات أفضل أعماله على الإطلاق. وفى ذلك يقول ناقده ريكاردو جيون: «إنه كتاب مجدد بشكل عظيم، كما أنه أضفى على الشعر الإسبانى مرونة وحيوية وحرية ، والإيقاع هو العنصر الحاسم فى قصائد هذا الديوان: إنه إيقاع الحب والبحر والشوق والتفكير ، وهو إبداع الكلمة فى حركتها عند الذهاب وعند الإياب، حيث تنبع من تجربة جياشة، والشاعر ينطلق فى معظم الأحيان ـ وإن لم يكن بالضرورة ـ من حدث أو شىء أو اسم ما»(٨) وقد توالت بعد ذلك دواوين أخرى مثل «خلوديات»، و «حجر وسماء»، و «جمال»، و «شعر»، وكلها تسير فى طريق الشعر الصافى، حتى كانت المرحلة الأخيرة من شعره أثناء إقامته فى أمريكا اللاتينية، حيث ظهرت دواوين «المحطة الكاملة»، و«حيوان من الأعماق»، و «والله المريد والمراد»، وهى ـ كما هو واضح من عنوانها ـ تنزع نحو الشعر الصوفى، وهو شعر كانت المدارس الفرنسية ابتداء من الرمزية قد توسعت فيه، وكانت له أصداء واسعة فى كل أنحاء العالم، بما فى ذلك عالمنا العربى، حيث من المعروف أن أدونيس (على أحمد سعيد) كان أكثر شعرائنا تأثرا بهذا الاتجاه، وقد انتقل هذا التأثير بشكل موسع إلى الأجيال التالية وخاصة من نطلق عليهم جيلى السبعينات والثمانينات.(٩) ولا شك أن هذه التوجه الصوفى عند خوان رامون شديد الاختلاف عن التوجهات الفرنسية، لأن خوان رامون بعد تأثره الأول بحركة الحداثة كان شديد الحرص على استقلاله الذاتى لدرجة أنه حاول أن ينفى أى تأثير عليه للرمزية الفرنسية(١٠).

عالمية الشعر الإسبانى فى النصف الأول من القرن العشرين :

شهد النصف الأول من القرن العشرين نهضة شعرية قوية، كان لها إرهاصات ومقدمات خلال الربع الأخير من القرن السابق، وربما قبل ذلك بقليل لدى ظهور الشاعر الإشبيلى جوستافو أدولفو بيكر، والشاعرة الجليقية روساليا دى كاسترو وكلاهما ينسب للحركة الرومانسية لكنهما كانا معاصرين للحركة البرناسية فى فرنسا وأيضاً لطلائع الحركة الرمزية، لكن يبدو أنهما لم يكونا على صلة مباشرة أو غير مباشرة بهاتين الحركتين، وكأنهما قد تركا هذه المهمة لكى يقوم بها فيما بعد الشاعر النيكاراجوى روبن داريو كما رأينا من قبل. وقد بدأت الأجيال الأدبية والشعرية تتوالى بعد ذلك، حيث ظهر فى نهايات القرن التاسع عشر جيل ٩٨ نسبة إلى عام ١٨٩٨ وهو العام الذى شهد هزيمة إسبانيا أمام الولايات المتحدة الأمريكية فى مياه بويرتوريكو والفيلبين، ومن ثم ضياع آخر مستعمرتين للإسبان فيما وراء البحار. لهذا كان جيل ٩٨ هو جيل البحث عن أسباب الهزيمة، وبالتالى فهو الجيل القومى بامتياز. وربما بسبب انشغاله بالقضايا الوطنية والقومية لم يكن يهتم كثيراً بمسائل التجديد الشكلى والجمالى للشعر. وكان كل هم أفراده هو التنقيب عن الأشياء التى تزيح الهزيمة عن كاهل إسبانيا وتدفعها إلى النهوض. ومن أهم أفراد هذا الجيل الشاعر الفيلسوف والروائى والناقد والأستاذ الجامعى ميجيل دى أونامونو، والشاعر أنطونيو ماتشادو وكاتب المقال الفلسفى المختصر خوسيه مارتينيث رويث(آثورين)، والروائى بيو باروخا.. الخ ويلاحظ أنهم كانوا ينسبون إلى مناطق مختلفة فى إسبانيا، فمنهم الباسكى، والقشتالى، والأندلسى والقطالانى وغير ذلك. وقد تزامن ظهور هؤلاء مع إنشاء معهد التعليم الحر فى مدريد، وهو مؤسسة تعليمية حرة لعبت دورا مهما فى النهوض فكرياً وثقافياً بإسبانيا. وبعد جيل ٩٨ ظهر جيل آخر يضم مجموعة من كبار الكتاب والشعراء أشير من بينهم إلى شاعرنا خوان رامون خمينيث، والفيلسوف المشهور خوسيه أورتيجا إى جاسيت . ويلاحظ أنه فى نفس المراحل السابقة بدأت تظهر أجيال متوالية من المستعربين الإسبان الذين كان لهم أيضاً دور كبير فى البحث عن الأصول والجذور فى الثقافة الإسبانية. وهذا الفرع الثقافى، أقصد البحث عن الجذور، برز فيه عدد كبير من المفكرين سواء من داخل دائرة الاستعراب أو خارجها ، ويكفى أن نذكر هنا اسم العلامة رامون مينينديث بيدال الذى لم يكن يعرف العربية لكنه أثناد بحثه عن الأصول والجذور عرج على موضوعات إسلامية كثيرة، تدل على ذلك عناوين بعض كتبه مثل «إسبانيا حلقة وصل بين المسيحية

والإسلام»، و«الشعر العربي والشعر الأوربي»، و«السيد القمبيطور» عن إسبانيا في عصر السّيد، صاحب الملحمة الشهيرة «ملحمة السيد» التي تتناول فترة مهمة من وجود العرب في الأندلس .

نعود إلى الشعر فنجد الشعر الإسباني خلال العقد الثاني من القرن العشرين ينطلق بصورة قوية سواء على يد شعراء إسبان مثل خوان رامون وأنطونيو وما نويل ماتشادو وغيرهم، أو على يد شعراء من أمريكا اللاتنينة كانوا روادا لما سمي الحركات الطليعية Las vanguerdias مثل بيثنتي أويدوبرو رائد الحركة الإبداعية Creaciomismo ، وثيثار باييخو وسواهما. ثم شهد العقد الثالث من القرن العشرين ظهور أعظم أجيال الشعر الإسباني على الإطلاق وهم جيل ١٩٢٧، ومن أبرز أعلامه فيديريكو جارثيا لوركا، ورفائيل ألبرتي، وبيثنتي أكساندر (نوبل في الأدب ١٩٧٧)، وخورخي جيين، وخيراردو دييجو، ولويس ثيرنودا، وما نويل ألتو لاجيرى وغيرهم. وهذا الجيل بالتحديد هو الذى وضع الشعر الإسباني في مصاف أهم الشعر في القارة الأوربية ولهذا احتفى الألماني هوجو فريدريش بهؤلاء الشعراء في كتابه المهم «الشعر الحديث من بودلير حتى الوقت الحاضر»، وهو الكتاب الذى ترجمه الدكتور عبد الغفار مكاوى وتوسع فيه تحت عنوان «ثورة الشعر الحديث». وجيل ٢٧، هو جيل الشعر الصافي في إسبانيا، وقد اعترفوا بريادة خوان رامون خمينيث لهذا اللون من الشعر، وأكد النقاد الإسبان هذه المقولة، ومن ذلك ما قالته الناقدة أوررورا دى ألبورنوص من أن خوان رامون هو الشخصية الشعرية التي جاءت بعد روبن داريو، ومارس تأثيرا كبيرا على شعر إسبانيا وأمريكا اللاتينية خلال السنوات الأولى من هذا القرن. وقد أشارت إلى أن أثره بدأ يظهر في شعر بدور ساليناس الأول، وعند خورخي جيين في ديوانه «أغاني» Cantico، كما ظهر كذلك في أشعار لوركا ورفائيل ألبرتي، وهما أكثر شعراء هذ الجيل ميلا إلى الشعر الشعبى مثل الرومانث Romance والأغنية(١١).

وهذه العالمية في الشعر الإسباني تردفها وتضيف إليها عالمية الشعر في أمريكا اللاتينية أيضاً خلال تلك الفترة، فبالإضافة إلى الأسماء التي ذكرناها مثل أويدوبرو وباييخو، نجد أسماء أخرى كثيرة نالت شهرة عالمية في مجال الشعر مثل بابلونيرودا (شيلى) ولويس بورخيس (من الأرجنتين)، والمكسيكي أوكتابيوباث، وجابرييلا ميسترال وسواهم. وكل هذا يدل على أن الشعر في إسبانيا وأمريكا اللاتينية اكتسب مساحات عالمية واسعة، وتخطى مرحلة التأثير المحلى ليكون له تأثيره القوى في كل أنحاء العالم.

الشعر الإسبانى وحركة الشعر العربى الحر:

قد تكون هذه فرصة لمناقشة مشكلة شبه دائمة فى الثقافة العربية المعاصرة وهى أن الترجمة فى كل الأحيان انتقائية فى جميع المجالات، أو بتعبير آخر تتم على أيدى أفراد مهما كانت قدرتهم على الاستيعاب فإنها لا تتجاوز حدود الطاقة الفردية. حدث ويحدث هذا فى كل فروع المعرفة بما فى ذلك الآداب والفنون، ولذلك كثيرا ما نجد شاعراً أو كاتباً عالمياً مشهورا (وفى أحسن الظروف عدداً من الكتاب والشعراء) هم الذين يستحوذون على كل الاهتمام فى العالم العربى. وعلى سبيل المثال فإن أشهر شاعرين كان لهما أصداء قوية عندنا إبان ظهور حركة الشعر الحر فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات هما من العالم الأنجلو ساكسونى ت . س . إليوت، ومن إسبانيا فيديريكو جارثيا لوركا. وأذكر أنى ناقشت الشاعر عبد الوهاب البياتى فى هذه القضية فى حوارى المطول معه الذى نشر فى كتاب تحت عنوان «القيثارة والذاكرة»(١٢)، وكان رأيه أنه قد بولغ فى تأثير إليوت على الشعر العربى، وكان ذلك بسبب حملة الشهادات الذين درسوا فى معاهد الغرب، وعادوا لكى يكونوا كُتاباً، ولكنهم لا يملكون إلا رسائلهم التى كتبوها استرضاء لأساتذتهم أو تملقا لثقافة البلد الذى درسوا فيه، أو خدمة مجانية لوجه الله. وقد بدءوا يؤلفون الكتب فى هذا التأثير فإذا ما وجدوا أن إليوت استخدم كلمتى «الأرض الخراب» وجاء شاعر عربى واستخدم الكلمتين (لأن waste land يمكن ترجمتها بترجمات مختلفة وليس بالأرض الخراب فقط) قالوا إن هذا الشاعر قد تأثر بإليوت . وإذا ما استخدم شاعر آخر الحوار داخل القصيدة، والحديث اليومى قالوا إنه متأثر به. ولكننا عندما نفحص معظم هذه الدراسات - والكلام مازال للبياتى - نجد أنها دراسات بائسة تفتقر إلى العمق.

وإذا كان هذا هو رأى البياتى فى تأثير إليوت على جيله من الشعراء فإن رأيه فى تأثير لوركا مختلف تماما. وفى ذلك يقول: «أما بالنسبة للوركا فهو نسيج وحده. ولعل الموروث الشعبى والفولكلورى والأسطورى والغنائى الذى ورثه عن شعبه (شعب الأندلس) هو تراث مشترك بين شعوب البحر المتوسط قاطبة، نظراً للتشابه الجغرافى، والبيئى، والتاريخى، والدينى، والسيكولوجى والاجتماعى، وخاصة أن الأندلس لازالت تحتفظ بموروثها العربى الإسلامى وبذاكرتها الجماعية العربية الإسلامية» (ص١٠٠). ويوضح البياتى كيف يكون التأثير قائلا: « إنه ليس التأثر الذى يتحدث عنه الدارسون والنقلة بشكل بائس سطحى. فرسام عظيم مثل بيكاسو سئل ذات مرة عن سر عبقريته وعظمته فقال لأنه تغذى ويتغذى باستمرار على المواهب

الصغيرة. وهكذا الأمر بالنسبة للشعراء المبدعين: إنهم يتأثرون بكل ما يحدسونه، ويرونه، ويسمعونه، ويشمونه، ويقرأونه، ويجربونه. وكما أن الأشجار المثمرة في الغابة لا يمكن أن تقف وحدها هكذا عارية في الغابات والبساتين بدون وجود الحشائش والأشجار المثمرة الأخرى فكذلك الأمر بالنسبة للشعراء» (ص١٠٠ ـ ١٠١).

وبهذه الكلمات وغيرها في الحوار المذكور اعترف البياتي صراحة بتأثره بلوركا على النحو الذي فهمه هو وغيره من الكتاب والشعراء الموهوبين بخصوص التأثير والتأثر. والسؤال الآن لماذا كان لوركا هو أكثر الشعراء الإسبان تأثيرا على جيل الخمسينات الشعرى العربي؟ ولعل أكثر الإجابات قربا من الصدق ـ في رأينا ـ هي أن موت لوركا المأسوى في بداية الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ كان له دور في ذلك، إضافة إلى قامة لوركا الشعرية العالية بالطبع. وإذا كان خوان رامون أيضا من القامات العالية فإن التعرف على أعماله في العالم العربي لم يتأخر كثيراً عن لوركا. لقد كان فوزه بجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٦ فرصة طيّبة لأن تبدأ الكتابة عنه وتترجم بعض أشعاره إلى اللغة العربية، ومما كتب عنه الكتاب المشهور لعباس محمود العقاد «شاعر أندلسي وجائزة عالمية»، وترجم الدكتور لطفي عبد البديع ـ كما أسلفت ـ كتابه الشهير «حماري وأنا»،

ولا شك أن هناك حادثة مشهورة وقعت في الستينات تدل على أن خوان رامون في ذلك الحين كان يحظى بمعرفة واسعة لدى المثقفين، بمن في ذلك كتاب النقد الصحفي السريع، وهذه الحادثة هي اتهام كاتبنا المسرحي الكبير توفيق الحكيم بأنه سرق أعماله عن الحمار من هذا الشاعر الإسباني. وقد درست هذه المسألة دراسة أكاديمية متمهلة في مقالي المذكور في الهامش «بين حمار الحكيم وحمار خمينيث» واكتشفت أن الصلة بين الحمارين واهية جدا، مما يدل على أن الصحافة الأدبية تخلق في كثير من الأحيان قضايا وهمية لشغل القراء بأشياء ساذجة وسطحية. لكن الحملة الصحافية ضد توفيق الحكيم كان لها دلالة على أن خوان رامون كان ملء السمع والبصر في ذلك الوقت في العالم العربي. ولعل هذا من الأسباب التى حفزتنى إلى دراسة شعره في أطروحتي للدكتوراه والتى تقدمت بها لجامعة مدريد Com-plutense في مارس ١٩٨٣، ثم ترجمتها بعد ذلك إلى اللغة العربية تحت عنوان «رائد الشعر الإسباني الحديث خوان رامون خمينيث»، ولعلها ـ حسب معلوماتي ـ هي الدراسة الوحيدة باللغة العربية المستقاة من مصادر إسبانية، لأن كتاب العقاد كتب من خلال لغة وسيطة هي الإنجليزية. وقد ترجمت قصائد كثيرة لخوان رامون في العالم العربي، من ذلك ثلاث عشرة قصيدة

ضمن مختارات الدكتور عبد الغفار مكاوى فى الجزء الثانى من كتابه المذكور «ثورة الشعر الحديث». وعلى أية حال سوف يظل خوان رامون، ذلك الأندلسى العالمى كنزا للشعر والإبداع نعترف منه حين نشاء.

هوامش :

(١) من خطاب أرسله فى ١٩ يوليه عام ١٩٢٤ إلى أخت الشاعر المشهور جارثيا لوركا واسمها إيزابيل. وقد نشر بعد ذلك فى كتاب «Olvido de Granada» (نسان غرناطة)، مكتبة الكُتّاب والموضوعات الغرناطية، غرناطة، ١٩٦٩ ، ص ٦٣ .

(٢) انظر لكاتب هذه السطور دراسة مطولة تحت عنوان «بين حمار الحكيم وحمار خمينيث» ضمن كتاب «قراءات فى أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية» الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣ .

(٣) نقلنا هذه الفقرة من ترجمة أستاذنا المرحوم الدكتور لطفى عبد البديع للكتاب كاملاً تحت عنوان «أنا وحمارى مرثية أندلسية» نشر دار المعارف بالقاهرة ، عام ١٩٥٩ .

(٤) وردت هذه الكلمة فى كتاب جارثيلا ب . دى نيميس، حياة وأعمال خوان رامون خمينيث، دار نشر جريدوس، مدريد، ١٩٧٤، الجزء الأول، ص١٥ .

(٥) جوستاف سيبمان، الأساليب الشعرية فى إسبانيا منذ عام ١٩٠٠، دار نشر جريدوس، مدريد، ١٩٧٣، ص ٧٦ وما بعدها .

(٦) من مقدمة فرانثيسكو بياسبيسا لديوان «أرواح البنفسج»، الأعمال الكاملة للشاعر خوان رامون خمينيث، المجلد الأول، ص١٥١٧ .

(٧) خوان رامون خمينيث، الأعمال الكاملة، الجزء الثانى ، ص ٥٥٥ .

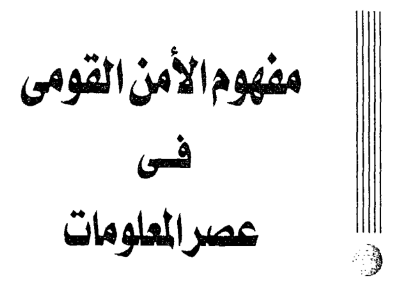
(٨) ريكاردو جيون، تحول فى شعر خوان رامون، مجلة إنسولا Insula، العدد ٤١٦ ـ ٤١٧، ص٥ .

(٩) انظر فى ذلك، كمال نشأت، «شعر الحداثة فى مصر ـ الابتداءات، الانحرافات، الأزمة»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٨ .

(١٠) فصلنا هذه المسألة فى كتابنا «رائد الشعر الإسبانى الحديث خوان رامون خمينيث» بالفصل الخامس وعنوانه «خوان رامون والشعر العربى الأندلسى»، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

(١١) وردت هذه الكلمة ضمن الدراسة التى قدمت بها الناقدة المذكورة لكتاب «المختارات الجديدة لخوان رامون»، برشلونه، ١٩٧٣ .

(١٢) عبد الوهاب البياتى ـ القيثارة والذاكرة ، مواقف عربية لندن ـ روما، ١٩٩٤ م.



د . جمال على زهران *

قبل أن ينتهى القرن العشرين «لندخل إلى، أو يدخل علينا» القرن الحادى والعشرين، فإننا عايشنا عصراً جديداً، هو عصر المعلومات الذى تبلور بعد أن بدأ، ثم يشهد تطوراً متلاحقاً دونما توقف، لذلك فإن التسميات العديدة لهذا العصر، ومنها «التدفق المعلوماتى، والفيضان المعلوماتى، وثورة المعلومات، والانفجار المعلوماتى أو المعرفى»، تعكس مدى الاهتمام العالمى بهذه القضية التى تؤكد أن العصر الذى نعيش فيه فى ظل ثورة المعلومات، هو عصر الهيمنة المعلوماتية، وليس مجرد الهيمنة الاقتصادية أو العسكرية، وهذا يرجع إلى مدى الأهمية التى تمثلها المعلومات والأدوار المتعددة التى تلعبها المعلومات فى حياة الدول والشعوب، وصناع القرارات فى كافة أنواعها السياسية والاقتصادية، سواء أكانت استراتيجية طويلة المدى أم تكتيكية قصيرة المدى.

* أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية بكلية التجارة ببورسعيد، جامعة قناة السويس.

فبعد أن كان التقدم فى الآلة العسكرية هو معيار الهيمنة الدولية، ومعيار لتصنيف الدول إلى دول قوية ودول ضعيفة، ودول كبرى ودول صغرى، أصبح التقدم فى مجال المعلومات والتقنيات اللانهائية التى شهدها هذا المجال هو أساس التصنيف المعاصر لمكانة الدول مع نهاية هذا القرن العشرين، والقرن القادم، وبعد أن شهد العالم العديد من الثورات على مدار التاريخ الإنسانى، ومنها الثورة الزراعية ثم الصناعية ثم التكنولوجية فى القرن العشرين، إلا أن هذا القرن أبى أن ينتهى دون أن يمهد الطريق للثورة الرابعة وهى ثورة المعلومات «إبتداء من الآن وحتى القرن القادم» الحادى والعشرين».

ومع تصاعد هذه الثورة المعلوماتية وما شهدته من تطور هائل فى تكنولوجياتها، فإن هذه الثورة قد جسدت نفسها فيما يعرف بالتكامل أو التعدد فى وسائل الاتصال "Multimedia"(١)، فأجهزة الريسيفر» ـ أى الاستقبال للأقمار الصناعية، وشبكة «الانترنيت» والفاكس، وغيرها تؤكد مدى القدرة المتاحة لحركة المعلومات على المستوى العالمى، متجاوزة كل حواجز قومية.

وقد أثار هذا التجاوز المعلوماتى للحدود القومية للدول، قضية العلاقة بين الأمن القومى للدولة، وهذه الثورة المعلوماتية، وما تشهده من تطورات تكنولوجية متسارعة فى وسائل الإتصال المعلوماتية.

ولتبيان العلاقة بين الأمن القومى وعصر المعلومات الذى نعيشه الآن، يمكن تحليل مفهوم الأمن القومى وأبعاده المختلفة، وكذلك توضيح إشكاليات المعلومات وأبعادها المختلفة، للوصول إلى تحليل الجسور التى تربط هذين العنصرين وكيفية الوصول إلى إطار لهذه العلاقة بحيث لا يؤدى هذا التطور الضخم فى وسائل المعلومات، إلى التأثير السلبى على الأمن القومى للدولة فى مصر .

أولاً: تعريف مفهوم الأمن القومى:

يعتبر «الأمن القومى» من الموضوعات الهامة والحيوية، التى تحتاج باستمرار الوقوف عندها ومعرفة التطور الذى يلحق بها، وذلك إستناداً إلى أن الأمن القومى يمثل الهدف النهائى للدولة، يعيش ويتعايش معها، ويسعى القائمون على حكم الدولة فى لحظة تاريخية ما إلى تحقيق الحدود المعقولة منه، فى ضوء الظروف والمعطيات التى تفرض نفسها على صناع القرار آنذاك. ولذلك فليس غريباً إذن أن نقول أن أحد مداخل تقييم الحكم فى فترة تاريخية ما، يتمثل فى كيفية تحقيق الأمن القومى للدولة، والحفاظ عليه فى مواجهة الآخرين وخاصة الأعداء الخارجيين.

ومفهوم الأمن القومى هو مفهوم نسبى، يختلف باختلاف الدول، سواء من حيث

كونها دول كبرى أم صغرى، متقدمة أم متخلفة، ديموقراطية أم غير ديمقراطية أو في الطريق لذلك .

كما أن هذا المفهوم يتداخل مع كثير من المفاهيم الأخرى مثل مفهوم المصلحة القومية، والأهداف القومية، والقوة والسلطة، وهو ما يحتاج إلى تحليل لمضمون هذا المفهوم وتطوره سعياً نحو طرح محاولة للتعريف تتسق وفكرة هذا البحث من حيث العلاقة وبينه والثورة المعلوماتية الجديدة .

(أ) التطور التاريخي للمفهوم :

يرجع بعض الباحثين هذا المفهوم، إلى القرن التاسع عشر، وذلك من خلال الربط بينه وبين المفهوم الامبريالي الاستعماري، حيث كان يقوم على فكرة التوسع وانتشار المصالح الامبريالية، وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف بالاستراتيجية الكبرى (Grand Strategy)، كذلك فإن تطور المفهوم الامبريالي للأمن، قد اتجه إلى ضرورة التعاون بين القوة الامبريالية والمستعمرات التي تتمتع بالحكم الذاتي، وهو ما أفرز استراتيجية الدفاع التي تمثل نمطا للعلاقات يسود عادةً في التحالف أكثر من كونها تعبيراً عن علاقات القوة المركزية. والمهم هنا هو تبعية حماية وأمن المستعمرات، باعتباره يمثل نطاق الأمن القومي، ومسئولية العاصمة الامبريالية، والمثال الواضح لذلك: بريطانيا ومستعمراتها(٢). إلا أن النقلة النوعية في هذا المفهوم، فإنها ترجع إلى الاستخدام الأمريكي له في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. فإستناداً إلى ما أظهرته التطورات التكنولوجية خاصة في مجال الأسلحة النووية، من أن المسائل العسكرية لا يمكن النظر إليها على حدة، بل من الواجب ربطها بالاعتبارات السياسية والاقتصادية وعلى المستويين الداخلي والخارجي. وترجمة لذلك، ففي عام ١٩٤٧ أصدر الكونجرس الأمريكي فصلاً تشريعياً خاصاً بالأمن بهدف إرسال ودعم السياسات والاجراءات المتكاملة على مستوى الإدارات والهيئات وكذلك الوظائف الحكومية التي لها صلة بالأمن القومي. وفي أعقاب هذا الاهتمام الملحوظ من جانب السلطة التشريعية في الولايات المتحدة، أن بادرت الإدارة الأمريكية بالتجاوب مع الكونجرس، وصدر قرار للرئيس الأمريكي آنذاك بإنشاء مكتب الرئيس للأمن القومي عام ١٩٤٧، سرعان ما تطور إلى مجلس الأمن القومي National Security Council، وأصبح جزءاً من هيكل الإدارة الأمريكية والبيت الأبيض(٣). ومن ذلك الحين انتشر استخدام هذا المفهوم بمستوياته المختلفة وحسب طبيعة الظروف المحلية والدولية.

وقد أشارت الدراسات الأولى إلى الأمن القومي على أساس أنه المقابل للمسائل

العسكرية والقوة، وهو يمثل الدائرة الضيقة لمفهوم الأمن القومى. ثم اتسع المجال فى الستينات وما بعدها لتجاوز الشئون العسكرية البحته إلى نطاقات أخرى وسياسية واقتصادية، رغماً على أن المسائل المتعلقة بالاستراتيجية والتكتيك والأسلحة والقوة ظلت اهتمام الغالبية من الدارسين حتى الآن، ولكن مع التطور في وسائل الاتصال والتطورات التكنولوجية التى لحقت بها، وانعكاسات ذلك على تطور تقنيات المعلومات، أصبح مفهوم الأمن القومى يحتاج إلى مراجعة فى ضوء مستجدات العصر، الذى أصبح هو عصر المعلومات.

(٢) حدود العلاقة بين الأمن القومى والمصلحة القومية :

يتداخل مفهوم الأمن القومى مع العديد من المفاهيم الأخرى، لعل من أبرزهم مفهوم «المصلحة القومية»، وهو ما يستوجب فى تقديرنا تبيان حدود العلاقة بينهما. فالموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية تشير إلى تحديد لمفهوم المصلحة القومية، حيث استخدم هذا المفهوم لأول مرة من جانب رجال الدولة الأمريكية مع بداية الثلاثينات من هذا القرن. كما أن هذا المفهوم يرجع تطوره إلى هؤلاء الباحثين الذى انصب اهتمامهم الرئيسى على تقييم السياسات الخارجية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، والذين اعتقدوا أن الصراع العالمى كان يمكن تفاديه، إذا لم تكن بريطانيا وفرنسا قد وجهتا الاتهام لألمانيا فى ميونيخ عام ١٩٣٨، وإذا لم تكن الولايات المتحدة قد تبنت سياسة العزلة فى الثلاثينات. ولذلك فقد اتفق عدد كبير من المحللين حول هذا المفهوم باعتباره يمثل أداة تحليلية لتحديد مدى فاعلية وكفاية السياسة الخارجية للدولة فى الماضى والحاضر والمستقبل(٤).

بهذا المعنى، فإن مفهوم المصلحة القومية هو مفهوم نسبى يختلف من دولة لأخرى طبقاً للظروف والتحديات. فما يعتبر ذات مصلحة قومية وحيوية لدولة ما قد يختلف عن رؤية دولة أخرى لذات المصلحة. ومن ذلك مثلا ما كان يراه الأمريكيون ازاء مصلحتهم القومية، حيث حددوها فى ذورة الحرب الباردة، على أنها القدرة على مقاومة العدوان العسكري السوفيتى، والتدمير الايديولوجى، ثم اختلف الأمر بعد انتهاء الحرب الباردة مع بداية التسعينات، حيث تفكك الاتحاد السوفيتى وخرج من المنافسة الدولية، لتضع الولايات المتحدة مصلحة قومية أخرى مضمونها يدور حول القدرة على مقاومة التيارات الدينية الأصولية، وهو التحدى الذى واجهته السياسات الأمريكية طوال هذا العقد الأخير من القرن العشرين. وفى كتاب نيكسون «انتهزوا هذه الفرصة السانحة» ما يؤكد ذلك. وقد اختلف كثير من الفقهاء حول العلاقة بين مفهوم الأمن القومى، والمصلحة القومية. فالبعض يرى أن

المصلحة القومية تشكل جانباً هاماً من جوانب الأمن القومى، إلا أنها تختلف عنه باعتباره يستند إلى القوة. على حين يرى آخرون أن المفهومين مترادفان، فالأمن القومى والمصالح القومية يصعب الفصل بينهما، وهما متشابهان فى الغموض والمرونة والنسبية(٥).

وكذلك يرى البعض أن مفهوم المصلحة القومية هو أحد مكونات مفهوم الأمن القومى وأنه على الرغم من التشابه بينهما، إلا أن الأخير أوسع نطاقاً من المصلحة القومية. إذ أنه بتحقق الأمن تتحقق بالضرورة مصالح الدولة، وتحقيق المصالح القومية بالتالى قد يؤثر إيجابياً على أمنها القومى، ولكن ليس كل أمنها القومى(٦).

ومن جانبنا فإننا نميل إلى الرأى الأخير، الذى يعتبر أن المصلحة القومية هى جزء من كل، بل والقلب فى دائرة الأمن القومى التى تتسع لتشمل كل ما يمكن تسميته بالمصلحة القومية، إلا أنها تتجاوزها دائماً باعتبار أن الأمن القومى هو السياج الأكبر والأوسع الذى يعبر عن تعانق التاريخ والجغرافيا فى لحظة إدراك معينة فى ضوء مقدرات القوة التى تمتلكها الدولة لتحقيق مصالحها القومية من أجل حماية أمنها القومى.

(٣) الاتجاهات الرئيسية فى تحديد الأمن القومى:

تعددت التعريفات التى سعت لتحديد مفهوم الأمن القومى، كما تعددت التصنيفات التى ضمت الغالبية من هذه التعريفات، والتى من أشهرها تقسيم هذه التعريفات إلى مدرستين الأولى: هى المدرسة القيمية الاستراتيجية، والثانية: هى المدرسة الاقتصادية غير الاستراتيجية(٧). ومع ذلك يمكن بلورة الاتجاهات الرئيسية لتحليل مفهوم الأمن القومى كما يلى :

أ ــ الاتجاه الأول : الأمن القومى كمفهوم عسكرى:

حيث يربط أصحاب هذا الاتجاه بين الأمن القومى والقوة العسكرية، وذلك باعتبار أن النواحى العسكرية هى الهدف والجوهر والوسيلة لتحقيق الأمن القومى للدولة. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه هو اتجاه تقليدى كلاسيكى، يرتبط بنشأة هذا المفهوم، إلا أنه لازال له مؤيدوه حتى الآن، لدرجة يتصور معها البعض بأنه لا يمكن الفصل التام بين الأمن القومى والأداة العسكرية إعمالاً للسيادة القومية وحماية الدولة من الأخطار والتهديدات الخارجية، وأن استخدام القوة العسكرية وقت اللزوم تعتبر الوسيلة الوحيدة لصد أى تفكير عدوانى على كيان الدولة الهدف. فلازالت الموسوعة البريطانية وعدد من الموسوعات العالمية الأخرى، تؤكد على هذه المعانى. حيث تعتبر الأمن القومى هو تعبير عن قدرة الدولة على حماية قيمها الداخلية من

التهديدات الخارجية. كذلك فإن علماء مثل والترليبمان (Walter Lippman) كان من أوائل الذين اهتموا بهذا المفهوم، ولذلك يعرفه بأن الأمة الآمنة ليست هى التى لا تضطر إلى التضحية بمصالحها المشروعة تجنباً لحرب ما، كما أنها تصبح آمنة عندما تكون قادرة على حماية مصالحها وصيانتها بالانتصار فى الحرب إذا ما واجهت التحدى.

كذلك يرى «ولفيرز - Walfers» ، أن الأمن القومى يعنى: حماية القيم التى تم إكتسابها وغياب الخوف من أى هجوم على تلك القيم. بالإضافة إلى ما يراه (فرانك تريجر Frank Trager)، بأن القيم القومية الحيوية (Core Values)، هى التى تشكل جوهر سياسة الأمن القومى، وإنه على الحكومة حماية هذه القيم ضد الأعداء الحاليين والمحتملين (٨). ومن المدرسة العربية، فإن د. حامد ربيع يقع فى المقدمة ممن اهتموا بهذا الاتجاه، حيث يرى أن مفهوم الأمن القومى هو فى جوهره مفهوم عسكرى ينبع من خصائص الأوضاع الدفاعية للأقليم القومى، يتحول فى صياغة تنظيرية بحيث يصير قواعد للسلوك الجماعى والقيادى بدلالة سياسية وبجزاء لايقتصر على التعامل الداخلى. بعبارة أخرى فإن الأمن يفرض على الدولة أن تفرض على الدول المتعاملة معها مراعاتها لتستطيع أن تضمن لنفسها نوعاً من الحماية الذاتية الوقائية الاقليمية، وهذا لايتأتى إلا بما يتوافر لدى الدولة من قدرات عسكرية(٩) ويتفق عدد من الباحثين مع هذا الاتجاه، منهم على سبيل المثال:

د. عبد الوهاب الكيالى فى موسوعته السياسية، حيث يعرف الأمن القومى، «بأنه تأمين سلامة الدولة من أخطار داخلية وخارجية قد تؤدى بها إلى الوقوع تحت سيطرة أجنبية نتيجة ضغوط خارجية أو انهيار داخلى» (١٠) بالإضافة إلى تعريف / لواء عدلى سعيد، الذى يرى الأمن القومى على أنه «الحفاظ على بقاء الدولة بكامل سيادتها على أرضها وتماسك شعبها فى مأمن من أطماع أو تهديدات الغير وتوفير الحد اللازم من الاستقرار والسلام الذى يضمن لها دوام التقدم وصولاً إلى رخاء شعبها مع صيانة كل ذلك بالقدرة على دفع أى طرف دولى عن النيل من استقرارها واستقلال أمنها»(١١).

وفى ضوء ما سبق يتضح أن الأمن القومى كمفهوم عسكرى يدور حول حماية السيادة وحماية الكيان، بل وصيانة المجتمع من أى تهديد خارجى أو حتى داخلى، وهو ما يستلزم الاستعداد بالقدرة العسكرية كوسيلة لتحقيق ذلك.

ب - الاتجاه الثانى: الأمن القومى كمفهوم وظيفى.

ويربط أصحاب هذا الاتجاه بين الأمن

القومى والوظائف التى يؤديها بما يحقق الرفاهية لشعب الدولة، وهم بذلك يتجاوزون النظرة الكلاسيكية للأمن القومى التى اقتصرت على الناحية العسكرية فحسب ويتحدث مفكرو هذا الاتجاه عن كيفية تنمية الدولة فى نطاق الوظيفة الاقتصادية التى يجب أن تقوم بها السلطة السياسية خصوصاً فى الدول النامية، فضلاً عن التنمية السياسية والاجتماعية، بعبارة أخرى فإن هذا الاتجاه يعتبر الأمن القومى هو التنمية التى تسعى إلى تأمين الموارد الاقتصادية واستثمارها بأفضل الوسائل والصور لتحقيق أعلى مستوى لمعيشة المواطنين.

وفى مقدمة المفكرين الذين دفعوا هذا التحديد لمفهوم الأمن القومى وأسهموا فى تطويره، روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكى الأسبق، والذى ترأس البنك الدولى بعد ذلك، حيث حدد فى كتابه «جوهر الأمن»، أن الأمن القومى هو التنمية، وبدون تنمية لا يمكن أن يتحقق الأمن، وأن الدولة التى لا تنمو بالفعل لايمكن ببساطة أن تظل آمنة، فالأمن ليس هو تراكم السلاح بالرغم من أن ذلك قد يكون جزءاً منه، والأمن ليس هو القوة العسكرية، بالرغم من أنه يشتمل عليها، والأمن ليس هو النشاط العسكرى التقليدى بالرغم من أنه يحتوى عليه. فالأمن هو التنمية ومن دون التنمية لا محل للحديث عن الأمن. بالإضافة إلى ذلك فقد أشار أيضاً إلى أن الأمن القومى للولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن يترجم بصورة أولية فى القوة العسكرية فقط، ولكن يكمن بشكل مماثل فى تنمية النماذج المستقرة من النمو السياسى والاقتصادى فى الداخل وفى الدول على مستوى العالم أجمع(١٢).

وقد أسهمت الأحداث فى تأكيد وجهة نظر ماكنمارا، حيث ظهرت أهمية هذا الاتجاه الوظيفى للأمن القومى بعد الحظر البترولى عام ١٩٧٣، وأزمة النفط الأولى عام ١٩٧٤، وانتقل معه الحديث عن الأمن الاقتصادى بمعنى تجزئة الأمن القومى إلى العديد من الأبعاد، ولم يعد مقتصراً على البعد العسكرى. بعبارة أخرى، فقد كانت رؤية ماكنمارا، بداية لتحول كبير، وفاتحة لاتجاه قوى يربط بين الأمن القومى والرفاهية الاقتصادية والتوازن السياسى دون تجاهل القدرة العسكرية فى إطار التنوع الوظيفى. وفى مقدمة الذين كانت لهم إسهامات على المستوى العربى، فى تطور مفهوم الأمن القومى، د. على الدين هلال، الذى عرفه بأنه تأمين كيان الدولة أو مجموعة من الدول ـ ضد الأخطار التى تتهددها داخلياً وخارجياً وتأمين مصالحها وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق أهدافها القومية وغاياتها التى تعبر عن الاتفاق العام فى المجتمع(١٣). كذلك يطرح د. عبدالمنعم المشاط تعريفاً واسعاً للأمن القومى بأنه «قدرة المجتمع على مواجهة ـ لا فقط ـ

الأحداث أو الوقائع الفردية للعنف بل جميع المظاهر المتعلقة بالطبيعة المركبة والحادة للعنف»، ثم يحدد متغيرات هذا المفهوم فى ثلاث هى: التوازن السياسى الداخلى ، والرفاهية الاقتصادية، والقدرة العسكرية(١٤). وهناك إلى جانب ذلك، عدد من الاجتهادات فى هذا السياق.

وخلاصة هذا الاتجاه(١٥)، أنه قد أكد ضرورة التجاوز للأمن القومى كمفهوم عسكرى، بل أنه يضع النواحى العسكرية فى إطارها المجتمعى الأوسع.

(٤) التعريف بالأمن القومى:

من خلال الاستعراض السابق للاتجاهات المختلفة فى تعريف مفهوم الأمن القومى ووجهات النظر المتباينة، فضلاً عن التطور الذى شهده هذا المفهوم منذ الحرب العالمية الثانية، فإنه يتضح أن الاتجاه الوظيفى فى تعريف الأمن القومى هو الاتجاه الواقعى والأكثر ملاءمة لدول العالم الثالث والوطن العربى على وجه التحديد. وهذا يرجع إلى أن الأمن القومى هوأقرب ما يكون إلى قدرته على الوفاء بمتطلبات المواطن لدرء كل التهديدات الداخلية والخارجية حماية للوطن والمواطن.

ولذلك فإن التعريف الذى يتفق مع هذه الحقيقة وهدف الدراسة، وهو تعريف د. على الدين هلال، حيث يرى أن الأمن القومى هو تأمين كيان الدولة والمجتمع ضد الأخطار التى تتهددها داخلياً وخارجياً وتأمين مصالحهما وتهيئة الظروف المناسبة اقتصادياً واجتماعياً لتحقيق الأهداف والغايات التى تعبر عن الرضاء العام فى المجتمع .

ومن ثم فإن هذا التعريف يشمل ثلاثة محاور هى :

أ ـ تأمين كيان الدولة والمجتمع ويتمثل ذلك فى وحدة الأقليم والحفاظ على الكيان الاجتماعى.

ب ـ أن هذا التأمين يكون فى مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.

جـ ـ أن هذا التأمين يتحقق من خلال الاستقرار الاجتماعى والتنمية والمشاركة السياسية.

كما أن هذا التعريف يحدد ثلاثة مستويات لتحليل الأمن القومى لأى دولة هى:

* مستوى داخلى: يتعلق بحماية المجتمع من التهديدات الداخلية خاصة تلك المدفوعة أو المدعومة بقوى خارجية، وهذا يستلزم أن يعبر النظام السياسى عن القيم الجماعية للشعب ولقناعاته، وأن تكون سياساته محققة للقدر الكافى من العدالة الاجتماعية أو تكافؤ الفرص، وأن تسمح مؤسساته بتوفير القنوات اللازمة للمشاركة الشعبية.

* مستوى اقليمى: يرتبط بعلاقات الدولة بدول الجوار الجغرافى.

* مستوى عالمى أو دولى: يشير إلى شبكة علاقات الدولة فى المحيط الدولى.

كذلك يمكن تحقيق أمن الدولة من خلال نهجين رئيسيين هما : الأمن من خلال الصراع، والأمن من خلال التعاون ويشير البعض إلى تغليب أى منهما على الآخر، إلا أننا نرى ضرورة الجمع بينهما فى ضوء ظروف الدولة ومحيطها الاقليمى والدولى وظروفها الداخلية.، فالأمن القومى هو نقطة إلتقاء السياسة الداخلية بالسياسة الخارجية، فالأمن الحقيقى أساساً هو أمن الإنسان الذى هو أساس الأمن الاجتماعى والسياسى والقومى، وهو يرتبط بقدرة المؤسسات السياسية على تحقيق التضامن الاجتماعى فى الداخل والاستقلال الوطنى والقومى فى الخارج(١٦).

ولا شك أن الأمن القومى بمستوياته المختلفة، ومقوماته العديد التى تشمل جوانب متعددة، قد يشمل كل أركان الدولة، والمجتمع ويصب فى دعم المسافة السياسية بين المواطن فى الداخل وحدود الدولة الجغرافية إمتداداً لحدود الدور الاقليمى والدولى. ولذلك فإن الآراء قد تختلف فى تحديد المفهوم، إلا أنها جميعاً تنطلق من الشمول والنسبية، والديناميكية التى يتصف بها هذا المفهوم الهام. وقد ازدادت أهمية هذا المفهوم فى مرحلة جديدة هى مرحلة عصر المعلومات

ثانياً : الأمن القومى وعصر المعلومات :

يعتبر التقدم الملحوظ فى أدوات الاعلام ووسائل الاتصال، والذى ألغى من الناحية العلمية الحواجز الجغرافية بين الدول، وأسهم فى تسهيل عملية التأثير المتبادل مما أدى إلى توافر إمكانيات أكبر للتغلغل الثقافى والفكرى من جانب الدول الكبرى، أحد العوامل الرئيسية والبارزة فى إضفاء الديناميكية على موضوع الأمن القومى. فقد ضعفت قبضة الدول على انسياب المعلومات الخارجية إلى الداخل، والعكس، وذلك من جراء التقدم المتسارع فى العملية الاتصالية عموما، وأدواتها. كما أن من أهم العوامل التى أضفت أهمية أكبر على موضوع تطور العملية الاتصالية، ذلك الانتشار الكبير للديمقراطية منذ منتصف الثمانينات وحتى الآن مع قرب انتهاء التسعينات، حيث رتب التغيير فى موسكو بانكسار وفشل تجربة الحزب الواحد، وما ترتب على ذلك من توجه نحو التعددية الحزبية، تغييراً مماثلاً فى أوربا الشرقية انسحب على العديد من دول العالم الثالث. وكان من جراء ذلك أن دخل الأمن القوومى مرحلة جديدة يمكن تسميتها بالتطور الثالث لمفهوم الأمن القومى وإن كان من داخل رحم الإتجاه الثانى الوظيفى أو المجتمعى.

ويتضمن هذا التطور جماعاً بين تطور وسائل الاتصال وتداول المعلومات بسهولة دون عوائق من سلطة الدولة، وبين التغيير الحادث في الكتلة الشرقية ومضمون التحول في التوجه نحو الديمقراطية والمزيد من التعددية وحرية التعبير .

ونتاجاً لذلك كله، فقد ثارت التساؤلات حول حدود هذا التطور، وإنعكاساته على إعادة بلورة مفهوم الأمن القومي في مرحلته الجديدة، وهل يمكن صياغة معادلة جديدة بين حدود الأمن القومي، وبين الانسياب غير المسيطر عليه، للمعلومات، وتدفقها بدون قيود، في ظل تسيد عصر المعلومات وحرية التعبير؟ وكيف نحافظ على الاستقلال والسيادة الوطنية في ظل هذه التطورات الجديدة؟ وهل يتم مواجهة ذلك بآلية التعاون؟ وهذه تساؤلات مشروعة تفرضها كثافة التغيرات الحادثة في البيئة الدولية، والتي لها امتداد واضح في التأثير على البيئة الداخلية، وتحتاج إلى معالجة موضوعية تتفق وأهمية تأثيرها على المفاهيم السائدة للأمن القومي.

وسعياً نحو الإجابة على هذه التساؤلات، فإنه يمكن تناول عدد من القضايا المحورية في العلاقة بين الأمن القومي وعصر الانسياب المعلوماتي غير القابل للسيطرة عليه بسهولة، وذلك على النحو التالي :

١ ـ عصر المعلومات وسلطة الدولة:

تشير سلطة الدولة، إلى قدرتها على ممارسة وظائفها الرئيسية سواء التقليدية (تنفيذية ـ تشريعية ـ قضائية)، أم الوظائف الحديثة حيث تضاف وظائف أخرى من أهمها ثلاثة هي: حماية الاستقلال، وتأكيد سيادة الدولة، وحفظ الأمن الداخلي. ولا شك أن التقدم التكنولوجي في الإتصالات ونقل المعلومات، قد أثرت على إمكانية الدولة على القيام بوظائفها على وجه العموم. وتبدو هذه الظاهرة واضحة فيما يتعلق بالدول النامية التي تسعى حكوماتها على الحفاظ على الاستقلال بإعتباره حصيلة نضال وطني ويستحيل التفريط فيه أو تمكين الآخرين وخاصة الدولة الاستعمارية السابقة، وهي دول كبرى حالياً في الغالب، من النيل من هذا الاستقلال. وأضحت المسألة تمثل أوجه العلاقة بين دول كبرى، ودول صغرى. فالدول الكبرى هي التي تملك القدرات التكنولوجية المتقدمة في مجال الاتصالات والتي تستطيع من خلالها أن تخترق الدول الصغرى، في الوقت الذي تحاول هذه الدول الصغرى أن تحمي نفسها واستقلالها وممارسة سلطاتها حفاظاً على الأمن القومي للبلاد. وتسعى الدول الكبرى لتحقيق مصالح توسعية ضخمة بالتدخل في شئون الغير ـ وهم هنا الدول الصغرى النامية، في الوقت الذي تسعى الأخيرة لمقاومة هذه المحاولات التوسعية، والتغلغل من دول الشمال المتقدم. وهذا ما يجعل القول بأن صراع الشمال والجنوب أو ما يحاول البعض أن يروضه عن طريق الحوار، ما هو إلا ترجمة عملية لهذه العلاقات غير المتكافئة، باعتبارها ناتجاً من نواتج المرحلة الاستعمارية وفجوة التقدم.

بعبارة أخرى، فإن سلطات الدولة ووظائفها تعرضت للإضعاف نتيجة قهر

الدول المتقدمة، وقدرتها على النفاذ إلى عمق الدول الصغرى وشل سلطة الدول التى تتعرض للانحسار والتراجع والتقلص التدريجى (١٧). ويؤكد هذه الخلاصة صاحب نظرية «نهاية التاريخ» (فرانسيس فوكاياما)، حيث يشير إلى أن هناك أربعة تأثيرات واضحة لثورة المعلومات وتكنولوجيا الإتصال على الحياة الإنسانية فى العالم كله هى : إضعاف النظم الحاكمة المتسلطة وبالتالى الاسراع فى عملية التطور الديمقراطى فى العالم كله وتآكل السيادة القومية وإضعاف السلطة المركزية فى كل مكان، وتغير مفهوم «القوة» وطبيعة ممارستها وأثرها، ثم تفتت المنظمات القوية إلى وحدات صغيرة. وهذا يعنى أن تدفق المعلومات عبر وسائل الإعلام العديدة، سيقتحم كل المجتمعات المغلقة ويكسر سطوة النظم المستبدة، ويسقط قدرتها على إبقاء شعوبها جاهلة أو غافلة، ويتخطى الحدود الجغرافية والسياسية والقانونية القائمة(١٨). بعبارة أكثر تحديداً فإن قدرة الدولة ونظامها السياسى على ممارسة سلطات بلا حدود أو قيود على مواطنيها خصوصاً فى المجتمعات غير الديمقراطية ستدخل دائرة الانحسار، وفقدان التأثير التدريجى على المواطنين فى ظل الثورة التكنولوجية المعلوماتية والتغيرات الكونية الحادثة .

٣ ـ عصر المعلومات وسيادة الدولة:

لعل من أهم الآثار لثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات يكمن فى التآكل التدريجى لسيادة الدولة دون اختيار أو إرادة منها . فهناك تقسيم واضح فى النظريات التقليدية لمفهوم السيادة، بين الجانب القانونى والجانب السياسى. فيشير الجانب القانونى لسيادة الدولة، إلى أن السيادة صفة من صفات الدولة، قوامها الاستقلال القانونى فى مواجهة غيرها من السيادات الأخرى. بمعنى أن القانون الدولى مثلاً هو الذى يحدد العلاقات بين الدول وكيفية ممارستها لسيادتها إزاء الآخرين من الدول. أما الجانب السياسى لمفهوم السيادة، فيشير إلى أنها تعنى قدرة الدولة الفعلية على تأكيد ذاتها فى المجال الدولى، بحرية كاملة دون امتثال لأى سلطة خارجية، أى قدرتها الفعلية على تحقيق الاستقلال والإرادة الحرة فى المجال الدولى دون خضوع لأى طرف دولى آخر. بمعنى أن الدولة لها القدرة على السيطرة على إراداتها ومقدراتها وذاتها بحرية كاملة، وقدرتها على حماية استقلالها فى الواقع العملى(١٩).

وإذا كان الجانب القانونى يشير إلى الاطار الرسمى الذى يجب أن تسير فيه العلاقات بين الدول، فإن الجانب السياسى يمثل الواقع الفعلى لإمكانية الدولة وقدرتها على تطبيق الجانب القانونى حماية لسيادتها الفعلية وإرادتها الحرة المستقلة فى مواجهة الآخرين. ولذلك فقد رأينا دولاً تتمتع بالسيادة القانونية والسياسية معاً،

ودولاً أخرى تتمتع بالسيادة القانونية دون الجانب السياسى فى الواقع العملى. ومرد ذلك كله إلى التقسيم فى توزيع القوة والقدرة التكنولوجية. فالدول المتقدمة هى دول قوية كبرى تستطيع حماية سيادتها القانونية والسياسية ثم افتقاد الدول غير المتقدمة المعروفة بالدول الصغرى أو النامية لقدرتها على ممارسة سيادتها. فى الوقت الذى لا تستطيع الدول الصغرى الصمود فى مواجهة قدرة الدول الأخرى على التغلغل فى شئونها وتجاوز حدودها السياسية، نظراً لضعف قدراتها التكنولوجية بصفة عامة. وهذا هو الحادث فى مجال المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات. حيث أسهمت الثورة المعلوماتية والاكتشافات العلمية فى مجال النقل والاتصالات ونقل المعلومات عبر الأقمار الصناعية وقنوات المعلومات، فى احداث تأثير واضح على مفهوم سيادة الدولة، فأصبحت الممارسة الفعلية لمظاهر السيادة لتحقق بقدر ما تحوزه الدولة أو يتيسر لها من امكانيات يوفرها التقدم التكنولوجى والعلمى فى كافة المجالات.

وقد أصبحنا أمام تقسيم جديد للعالم فى عصر المعلومات، حيث هناك بعض الدول لها القدرة على ممارسة السيادة الكاملة، فى مقابل دول أخرى ليست لديها مثل هذه القدرة. ولم يعد التميز من الناحية القانونية للسيادة حيث لم يطرأ جديد يذكر على الأطر الرسمية إلى حد ما باستثناءات قليلة ليس هناك مجال لذكرها، ولكن التمييز يرتبط بالسيادة السياسية التى أصبحت فاصلاً فى الحكم على مدى كمال سيادة الدول أو نقصها. فلم تعد إذن الحدود السياسية صعبة الاختراق بل أصبحت أقل صموداً أمام التقدم التكنولوجى عامة، ومجال الإتصالات والمعلومات بصفة خاصة. والفيصل هنا فى اكتمال سيادة الدول أو نقصها، يبرز فى مدى ما تمتلكه الدولة من امكانيات عملية وتقنية متقدمة، إما فى حماية سيادتها أواختراق سيادة الدول الأخرى لأغراض مختلفة. والمثال الواضح فى هذا الصدد هو قدرة البث التليفزيونى عن طريق الأقمار الصناعية على اختراق حدود الدولة دون استئذان منها، وقدرة انتقال الرسائل عبر الفاكس، وانتقالها عبر البريد الالكترونى من خلال أجهزة الكومبيوتر، وغيرها، مما لا تستطيع الدول أن تقف إزاءه بالرفض أو القبول أو حتى المقاومة التى قد تستلزم إمكانيات مضادة وعلى درجة كبيرة فى مواجهة الطرف الآخر المتغلغل. وهنا وإن أكد «الفين توفلر» هذه الحقيقة من منظور غربى. فإن هناك بعض مفكرينا يرى أن القضية أضحت فى المستقبل تكمن فى كيفية قبول وضع الدولة بسيادة أقل فى ظل مظاهر «العولة» أو «الكونية» السائدة(٢٠).

أن الأمن القومى لا شك يتعرض للتأثير نتيجة تآكل سيادة الدولة، وعدم قدرتها على فرض سيادتها السياسية، أو ما يمكن تسميته التجاوز المعلوماتى للحدود القومية (Informationalization).

٣ــ عصر المعلومات، وحقوق المواطن:

إن حقوق الإنسان هى حقوق أقرتها كافة المواثيق الدينية والدنيوية. ومن أهم الوثائق الدولية فى هذا الصدد هى الميثاق العالمى لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨، والذى احتفلنا بذكرى مرور خمسين عاماً على إقراره منذ عدة أشهر وقد نص هذا الميثاق فى المادة ١٩، على الحقوق الإعلامية للمواطن ومنها حرية الرأى والتعبير والنشر وتداول المعرفة. ولتزايد الثورة الاتصالية والمعلوماتية، ــ أهتمت الأمم المتحدة بهذا الموضوع منذ بداية الستينات، إلى أن توصلت إلى الاتفاقية الدولية للحقوق السياسية والمدنية عام ١٩٦٦، ونصت فى المادة ١٩ ، ٢٠ على حق انتقال المعرفة والحق فى الاتصال، وكان ذلك كمحاولة لتقنين التطورات المتلاحقة فى وسائل الاتصال ونقل المعلومات . وقد استمرت هذه الجهود مع نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات، لمحاولة التصدى للمشكلات الناجمة عن الحصول على المعلومات بواسطة الأقمار الصناعية، إلا أن هذه الجهود بآءت بالفشل بسبب الخلافات على المصالح القومية للدول، وتحديداً بين تلك الدول التى نالت حظها فى هذا المجال المتقدم وهى الدول الكبرى، وتلك التى لم تستطع أن تنجز فى هذا المجال بعد(٢١). ولم تصل بعد هذه الجهود إلى نتيجة تذكر حتى الآن فى إطار الصراع بين الدول التى تستطيع الحصول على المعلومات ونقلها، وتلك التى تتلقاها ولا تصنعها.

فعصر المعلومات كرس حق المواطن فى الاتصال والمعرفة وتلقى المعلومات، واعتبرته من الحقوق الطبيعية التى لم تعد للدولة وأجهزتها وسلطاتها منعه أو حتى الحد منه. وهذا الحق كما يراه البعض يجمع بين طياته العديد من الحقوق الإنسانية الأخرى مثل، حق العيش فى سلام، وحق التعليم والثقافة، والحق فى التنمية، وحق الحياة الخاصة، والحق فى الإعلام والمعرفة. فى نفس الوقت فإنه يتضمن بعض المسئوليات والالتزامات مثل: احترام حقوق الغير، وسمعتهم، وحماية الأمن القومى أو النظام العيام والآداب العامة. وعلى الرغم من الإقرار بهذه الحقوق إلا أن هناك من الحقوق المنبثقة من الحق فى الاتصال لم يتم ارساؤها بعد، ومن ذلك حق التمثيل، وحق المشاركة فى المستويات المختلفة للعمليات الاتصالية، وحق الخصوصية، وحق الاطلاع على سياسات الحكومات وأفعالهما والوثاق المتعلقة بذلك(٢٢). ومما يذكر فى هذا الشأن أن خبراء الاتصال قد توصلوا إلى صيغة عامة تحدد أبرز عناصر ومقومات هذا الحق فى الاتصال كحق إنسانى شامل للعديد من الحقوق، ومن ذلك:

أ ــ حق الاجتماع والحق المناقشة، والحق فى المشاركة وما يتصل بذلك من

حقوق تكوين الجمعيات

ب ـ الحق فى الاستفسار وفى الحصول على المعلومات، وفى ابلاغ الآخرين بالمعلومات والمتعلق بذلك من حقوق الاعلام.

جـ ـ الحق فى الثقافة والحق فى الاختيار والحق فى الحياة الخاصة، وما يتصل بذلك من حقوق التنمية الانسانية(٢٣).

ونتيجة إتساع دائرة الحقوق الفردية للمواطنين فى ظل ثورة المعلومات، وتطور تقنياتها، أن أصبح هناك ما يمكن تسميته «بالصندوق المعلوماتى للأفراد» لا يجوز للدولة أن تعتدى عليه. وهذا الصندوق هو عبارة عن تخزين معلومات استطاع المواطن الفرد أن يجمعها بأساليب تكنولوجية حديثة، وأن يسترجعها كما يشاء، وأن يطلع الآخرين عليها، وأن يتبادلها داخلياً وخارجياً دون تمكن الدولة من السيطرة عليها أو حتى التدخل فيها بدعوى الحفاظ على الأمن القومى. فضلاً عن اتساع دائرة ونفوذ منظمات حقوق الأنسان، فى العالم وخصوصاً العالم النامى، لدرجة عدم الاعتراف الرسمى بها فى بعض هذه البلدان، فى نفس الوقت لم تحاول أن تمنع وجودها وأن حاولت اعاقتها. وذلك يأتى فى إطار الاتساع الأفقى والرأسى لقضية حقوق الإنسان والمنظمات التى تعمل فى هذا المجال. وقد اعترف وزير داخلية مصر، فى حديث لاحدى الصحف، حينما قال: أن منظمات حقوق الإنسان فى مصر غير شرعية، ولكننا نسكت عليها، ولم نتخذ ضد ممارساتها أى اجراء(٢٤).

ففى ظل ثورة المعلومات، اتسعت دائرة حقوق المواطن، ولم يعد بوسع الدولة الحد منها حتى ولو لم تعترف بها رسمياً. كما أن هذا التجاوز المعلوماتى لحدود الدولة، اسهم فى إعادة تنظيم الشعوب وترابطها بعضها ببعض بأساليب الكترونية وليس بالجوار الجغرافى، بل وليس فقط بالثقافة الوطنية القومية الواحدة(٢٥). وإذا كان صحيحاً أن الاتفاقية الدولية للحقوق السياسية والمدنية لعام ١٩٦٦، قد نصت في المادة ١٩ على أن الحق فى المعرفة وتداول المعلومات مرتبط بحق الدول فى فرض القيود لحماية الأمن القومى أو النظام العام أو الصحة العامة أو الأخلاق، إلا أنه، مع هذا التطور المعلوماتى، قد أصبح متعذراً فى الواقع العملى تقييد هذه الحقوق للمواطنين حتى لو كانت تحت دعاوى الأمن القومى.

٤ ـ ثورة المعلومات وصنع القرار السياسى :

أحدثت عملية تدفق المعلومات بلا حدود، وانسيابها داخل الدولة، تأثيراً كبيرا على عملية صنع القرار السياسى. وتحدث هذه العملية من خلال آليات عديدة من أهمها: النشر الواسع فى كافة المجالات سواء من

خلال الصحف والانترنت والأقمار الصناعية والاذاعة والتليفزيون، سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى، وكذلك طبع الصحف المحليـة على نطاق دولى عن طريق نقلها بالأقمار الصناعية وطبعها فى داخل الدول الأخرى مما ساعد على انتشار الأفكار وتبادلها بين الشعوب، ومحاولات استقصاء الرأى للتعرف على الاتجاهات السياسية والاقتصادية السائدة للمعاونة على رسم سياسات الدول الكبرى ازاء الدول الصغرى فى المناطق الساخنة بما يخدم استراتيجيات هذه الدول.

فضلا عن ذلك، فإن المساندة الخارجية لجماعات الضغط الداخلية قد يؤدى إلى التأثير على عملية صنع القرار. فخضوع صانع القرار لهذه التدفقات المختلفة من المعلومات بكافة الوسائل، يسهم بالتالى فى صياغة وتعديل القرارات بين أن وآخر. فقد تلاشت نسبياً إمكانيات الفصل بين الداخل والخارج، ولم يعد بإمكان دولة ما عزل شعبها عما يحدث فى الخارج، أو العكس.

ومن هنا فقد زادت أهمية المعلومات، وزادت قيمة المعرفة نظراً لخطورتها على صنع القرار. فقد يحدث أن تتسرب معلومات معينة لصانع القرار تتفق ومزاجه الشخصى وطموحاته، فتدفعه إلى إتخاذ قرارات تتفق وما تخطط له دولة أخرى غالباً ما تكون دولة كبرى (نموذج الولايات المتحدة والعراق فى الدفع باختلاق أزمة الغزو العراقى للكويت). وقد يحدث اجراء حديث صحفى أو تليفزيونى مع رؤساء الدول، للتعرف، من خلال توجيه أسئلة معينة، على ما يدور فى ذهن صانع القرار من ناحية، والتأثير عليه بعد ذلك من ناحية أخرى، وهى صورة موجوده بكثرة خاصة فى منطقتنا العربية. فالقرار هو نتاج شخصية الإنسان صاحب سلطة القرار، والمعلومات هى المدخلات للتأثير على الشخص ودفعه لاتخاذ قرارات معينة قد تكون صائبة، وقد تكون مدمرة، ولا شك أن هذه المسألة لها تأثير على الأمن القومى للدولة فى حالة عدم التيقظ من تسرب المعلومات إلى صانع القرار، إلا أن تعدد المعلومات وكثافتها وتنوع المصادر وقدرات جماعات الضغط على استثمار وسائل نشر واذاعة المعلومات بشأن ما تتبناه أو تسعى إلى تحقيقه، كل هذا من شأنه أن يحدث أثره على صانع القرار السياسى سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولم يعد بإمكان الدولة أن تلغى هذا التأثير، ولكن قد تتمكن من الحد منه بعض الشىء، وهو ما يستدعى إعادة النظر فى حدود الأمن القومى فى ضوء هذه النتيجة، حيث زالت فكرة منع المعلومات من التدفق من وإلى الدولة.

٥ ـ ثورة المعلومات والتمويل الخارجي:

فى ظل الانتشار اللا محدود للمعلومات من خلال العديد من وسائل الاتصال

الحديثة، انتشرت جماعات محترفة للبحث والتنقيب فى الأحوال المصرية وغيرها من البلدان ذات الأهمية فى الاستراتيجيات العالمية. واتخذت هذه الجماعات أشكال تنظيمية مختلفة، إما مراكز بحثية خاصة، أو العمل تحت سار أسماء لمراكز أبحاث كبرى فى المجتمع أو فى الجامعات، أو من خلال صحف معينة رسمية أو مستقلة أو حزبية، وأصبحت هذه الجماعات تعمل إما لحسابها الشخصى، أو لحساب جهات خارجية، أو لحساب دول، أو لحساب أجهزة مخابراتية، وبعضها وهو قليل يعمل بشفافية لصالح تطور المجتمع ومصالحه العليا دون قصد إضرار أمنة القومى على الإطلاق. وفى الولايات المتحدة، فإن من يعمل لحساب الآخر، يسجل تحت مسمى Foreign Agent - بمعنى عميل أو وكيل لدولة أجنبية، ويستدعى هذا التحديد الذى يتم بشفافية تامة، نوعا محدداً من التعامل، ويحكم ذلك نظام وأساليب محددة بالنظام المصرفى والمالى وكذلك الضريبى، وكل هذا يتم بوضوح، حتى أنه يتم فضح أى محاولة تستهدف تغيير أو التأثير على سياسات الولايات المتحدة فى ضوء تسريب أموال خارجية لتحقيق هذا الغرض. ولعل فى فضيحة تمويل الحملة الانتخابية للرئيس كلينتون من قبل عملاء لدول آسيوية كالصين وأندونيسيا طبقا لما نشر، خير مثال على ذلك(٢٦) .

ويشهد الواقع المصرى هذه الظاهرة بكثافة، فهناك من يعمل لصالح دول عربية معينة، ومن يعمل لصالح دول أجنبية غربية فى الغالب، وهناك من يعمل لصالح اسرائيل تحت مسميات مختلفة ولهؤلاء جميعاً تمويل خارجى دون افصاح، وأن هذا التمويل ليس بالصورة التقليدية كعمولة مقابل عمل شىء محدد وهو نظام العمل مع المخابرات بصورة مباشرة، ولكن التمويل يتسرب من خلال دعم نشاط هذا المركز البحثى أو ذاك، وهذه الصحيفة أو تلك، وبعض هذه المراكز فرضت موضوعات معينة على أجندة المجتمع كموضوع الاقليات وبمسميات مختلفة على سبيل المثال، لصالح قوى أجنبية اتضح استثمارها وتوظيفها لحسابها ضد المصلحة القومية المصرية، وهذا هو ما يتعارض مع مقتضيات الأمن القومى المصرى.

ويستلزم هذا الواقع المرير، الذى استهدف القائمون على صنعه افساد جزء من النخبة البحثية والعلمية، وتطويع هذه النخبة لخدمة مصالح أجنبية تحت شعارات مختلفة، وذلك مقابل مبالغ مادية متميزة إذا ما قورنت بما يتم الحصول عليه من المراكز الوطنية وهم يسهمون بلا شك فى تعميق «الاستعمار الجديد» الذى يستهدف أدمغة صناع القرار، وأدمغة النخبة العلمية المثقفة من خلال التدفق المستمر للمعلومات من الداخل للخارج دون حدود وهذا لا شك

يؤثر بصورة سلبية على الأمن القومى المصرى، ويحتاج الأمر إلى وضع ضوابط لحماية هذا الأمن، والحد من تعاظم هذه الظاهرة التى تحتاج إلى ضوابط وتقنين بما يتفق مع المصلحة العليا للبلاد. ولعل الجدل الذى جرى بتبادل الاتهامات بين أحدى الصحف المستقلة وبين مركز بحثى بمؤسسة صحفية كبرى فى مصر بشأن إجراء استطلاع للرأى العام حول قضايا معينة كالمشاركة وغيرها خلال الأشهر الماضية هو ما فجر هذه القضية من جديد واستتبعها اثارة قضية التمويل البريطانى لاحدى منظمات حقوق الإنسان فى مصر لاعداد تقارير معينة، خير مثال لهذه القضية التى تستدعى التوقف عندها كثيراً.

ثالثاً : الخروج من المأزق والطرح الجديد لمفهوم الأمن القومى:

وخلاصة ما تقدم ، فإن الثورة المعلوماتية قد أثرت بشكل مباشر وغير مباشر على عملية صنع القرار الداخلى، وأثرت على سلطة الدولة، وسيادتها، خلقت جماعات ضغط داخلية لها ولاءات خارجية من خلال التمويل الأجنبى. وأصبح واقع الدول النامية، بحكم انها المتلقية للمعلومات من الدول الكبرى المحتكرة لها والمتحكمة فى وكالات الانباء الكبرى ووسائل الأعلام وانتاج المعرفة وغير ذلك، يشهد ظاهرة «الاستعمار المعلوماتى» الذى يفرز الهيمنة الثقافية بعد الهيمنة الاقتصادية التى قد تحققت إلى حد كبير. ومن أهم النتائج المترتبة على محاولات الهيمنة الثقافية من الدول الكبرى على الصغرى، هو تناقص الولاء الوطنى بعد تاكل سيادة الدولة، وفقدان السيطرة على حركة المعلومات من وإلى الدولة، وكل هذا يتعارض مع مقتضيات الأمن القومى لمصر والعديد من الدول النامية. ولكن تبقى القضية مطروحة فى كيفية التوازن بين الثورة المعلوماتية التى لا يمكن ايقافها، وبين احتواء الآثار السلبية لها على الأمن القومى للدولة، وبما قد يسهم فى تغيير لمفهوم الأمن القومى.

فلا خلاف على ضرورة إحترام وتوسيع حقوق المواطن فى المعرفة وفى الاتصال وفى التعبير، وفى السؤال، وفى النقاش، وغيره من الحقوق، فى نفس الوقت فإنه لا خلاف أيضا على أن الدولة لها الحق وعليها واجب فى نفس الوقت، يتحدد فى فرض سيادتها الاعلامية على أرضها وشعبها، دون أن يؤدى ذلك إلى الحد من حقوق الأفراد فى المعرفة. والقضية أصبحت فى مأزق حقيقى فى الواقع العملى .

فبالقدر الذى يسمح فيه بحقوق واسعة للمواطن فى المعرفة والاتصال وغيرها، بالقدر الذى يسمح فيه من تمكين الدولة من السيادة الاعلامية والسيطرة على الأرض والشعب، لحماية الأمن القومى أو النظام العام. وهذا ما أقرته الإتفاقية الدولية للحقوق السياسية والمدنية عام ١٩٦٦

والسابق الاشارة إليها. ومن ثم يتضح نسبية حقوق المواطنين، ونسبية حق الدولة فى السيطرة والسيادة. أى أن حق المواطنين فى المعرفة ليس مطلقاً بل هو مقيد بما يتفق مع الأمن القومى الذى تقدره الدولة، وفى ذات الوقت فإن حق الدولة فى السيطرة والسيادة ليست مطلقة إنما مقيدة بحماية الأمن القومى وبشرط ألا يقيد حق الجماهير فى المعرفة .

وهذه العلاقة التوازنية تقتضى الاستفادة من خبرات للدول المتقدمة فى إيجاد آليات للحفاظ على هذا التوازن. وقد كشفت دراسة مهمة عن وضع هذه العلاقة فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والسويد، وخلصت إلى أنه رغم الأقرار بحق الحصول على المعلومات والاطلاع على الوثائق للمواطنين، إلا أنه قد أعطى للحكومة السلطة الأكبر فى فرض السرية حماية للأمن القومى بشكل مباشر وغير مباشر. ولذلك فإن تدفق المعلومات ليس حراً فى دول الشمال المتقدم كما يحاول البعض وهذه الدول ذاتها، أن تصور ذلك. وأن حق الجمهور والاعلام فى الحصول على المعلومات ليس مطلقاً، ولكن هناك الكثير من القيود التى فرضتها دول الشمال على هذا الحق(٢٧). كما أن هذه الدراسة أشارت إلى هذا الواقع فى العديد من الدول العربية واتضح أنها تفرض قيوداً كبيرة على تدفق المعلومات وحق الجماهير فى المعرفة، وخلصت الدراسة إلى ضرورة الاعتراف بحق كل دولة فى فرض قيود قانونية على نشر أو أذاعة أنواع معينة من المعلومات ومنها: ما يتعلق مباشرة بالأمن القومى، وما يشكل خطرا على الاقتصاد الوطنى أو العملة المحلية، أو المخزون الاستراتيجى من مواد معينة، وأنباء التحقيقات والمحاكمات، والمعلومات المتعلقة بحياة المواطنين الخاصة، وما يتعلق بالآداب العامة والأخلاق(٢٨).

وإذا كان العالم يشهد ظاهرة إنتقال للمعلومات بغير سدود، ولرءوس الأموال بغير قيود، وللأفراد بغير حدود، كما يظهر فى مجالى نقل المعلومات والاتصال، والاقتصاد وما أسهم ذلك فى التأثير على سلطات الدولة ووظائفها، وسيادتها، وتعرضها للتدخل الخارجى بصورة مختلفة، فإن الدول النامية أصبح لزاماً عليها أن توازن بين إعتبارات أمنها القومى من ناحية وبين ضرورة مواكبة الثورة التكنولوجية فى مجال المعلومات وحقوق المواطنين(٢٩).

كما أن العالم الذى شهد فى السنوات العشر الأخيرة تحولاً فى هيمنة حقوق المواطنين، وإنتشار أفقى ورأسى للديموقراطية حتى أصبحت هدفاً لدول العالم أجمع باستثناءات قليلة، جعل من الصعب التراجع عنها أو عن الاعلان عن حماية حقوق الأفراد، وكل دولة أصبحت تتفاخر بما تتخذه من خطوات فى هذا السبيل، فإنه إذن من الصعب التفكير فى

الحــد من هـذا التطور العــالمى. فى نفس الوقت فإن السيادة التقليدية للدولة التى قد تعـــرضت للتـــأثيـــر فى ضـــوء التطور التكنولوجى فى وسائل الأتصال، مما جعل الأمن القومى يتعرض للتأثير السلبى أيضاً باستمرار، لابد من مراجعتها إلى مفهوم حديث للسيادة والأمن القومى.

وللوصـول إلى حل معـضلة التوازن بين حرية المواطنين ومـقتـضيـات الأمن القـومى يكمن فى الالتــزام بقـــواعــد المــارســة الديمقراطية والسعى نحو تعميقها، وتقوية كل مـؤسسـات المجتمع السيـاسى خاصـة والمدنى بصـفـة عـامـة، وتدعـيم الحـقـوق الاقتصادية للمواطنين وبصورة واقعية بما يحـمى هـؤلاء من تعـرض الولاء الوطنى عندهم للتناقص أو التأثير السلبى .

فطبـقـاً لما هو سائد فى المجـتمـعـات الديموقـــراطيــة التى أحـــرزت التـــقـــدم التكنولوجى المعـروفـة بدول الشـمـال، فـإن إعمال قواعد المحاسبة وتطبيقها على جميع الأطراف بدون تمييـز يصبح هو المخـرج. حـيث يتطلب الأمـر الإعـلان عن كل شىء، وتبـيـان أوجـه الانفاق، ومـصـادر التـمـويل، والخضوع لرقـابة الأجهـزة المحاسبية فى الدول، ورقـابة الرأى العـام، وذلك بشـفـافـيـة تامة. وهذا هو السبيل لاعادة النظر فيما هو مـتعلق بالسـيـادة غيـر التـقـليـدية ، وبحـدود الأمن القومى بمنظور جديد يتجاوز المفهوم التقليدى أيضا.

أن الأمن القومى فى مرحلته الثالثة بعد تجاوز المرحلة الأولى الذى ارتبط فيه بالقوة، والمرحلة الثـانيـة الذى أرتبط فـيـه بـوظيـفـة مجتمعية، يسعى إلى إستيعاب التطور العام نحـو الديمقـراطية على المسـتـوى العـالمى، واحترام حقوق المواطنين فى المعرفة وغيرها، واسـتـيـعـاب الثـورة المعلومـاتـيـة وهـى تمثل الثورة الرابعة فى حياة البشر. ويحدد هذا المفهوم الجديد أدواته وقد تركزت فى الجمع بين «الصـــراع والتـــعـــاون» دون تجـــاهـل لإحداهـمـا حفـاظاً على السـيطرة والسـيـادة على الأرض والشعب تحقيقاً للمصالح العليا للمجتمع .

فـالأمن القـومى يسـتـهـدف تحـقـيق أمن المواطن والحفاظ على حقـوقـه، وأمن الدولة فى السـيطرة والسيادة، طبقاً لما التزمت به هذه الدراسة فى استـخلاص مفـهوم للأمن القـومى. لذلك فـإن تمكين الدولة من فـرض سيطرتهـا الخـارجية والداخلية لا يتـأتى إلا من خـلال الاسـتـقـرار الاجـتـمـاعى والتنمـيـة والمشـاركة السيـاسية وأن وضوح كل شىء بشفافية كبيرة، هو السبيل نحو تطوير المجـتـمـع وحـمـاية أمنه القـومى، وخـضـوع الجـمـيع حكامـاً ومـحكومين للمـحـاسـبـة الجماهيـرية فى ضوء إعمال قـواعد اللعبة الديمقراطية .

هوامش الدراسة

١ ـ د . محمود علم الدين، «وسائل الإعلام والاتصال فى عصر المعلومات: الوسائل والسمات» مجلة النيل ، وزارة الإعلام : الهيئة العامة للاستعلامات، عدد ٧٠ (١٩٩٨)، ص ٧٠ : ٨٦ .

٢ ـ جميل جورجي، الأمن القومى المصرى فى إدراكات القيادة السياسية: دراسة مقارنة بين عبد الناصر والسادات ومبارك، دكتوراه غير منشورة، كلية التجارة، ببورسعيد، جامعة قناة السويس، ١٩٩٨، ص٢٠ .

٣ ـ د . عبد المنعم المنشاط، «الإطار النظرى للأمن القومى العربى»، فى : الأمن القومى العربى: أبعاده ومتطلباته، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٣، (ص١٣:١٤) ، ص ١٣ .

4 - International Encyclopedia of the social science, "The National Interest", II, England, p . 34 .

٥ ـ جميل جورجى، مرجع سابق ، ص٥٩، ٦٠ .

٦ ـ د . ممدوح شوقى كامل، الأمن القومى والأمن الجماعى الدولى، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥،ص٤٢ ـ ٥٠ .

٧ ـ جميل جورجى، مرجع سابق، ص ٨٧،٨٩، حيث أشار إلى هذا التصنيف المتداول فى أدبيات الأمن القومى.

٨ ـ لمزيد من التفاصيل حول هذه التعريفات وغيرها، انظر : د. عبد المنعم المشاط، مرجع سابق، ص١٨ ، ١٩ .

٩ ـ د . حامد ربيع، نظرية الأمن القومى العربى، دارالموقف العربى، القاهرة، ١٩٨٤، ص٣٧ ، ٣٨ .

١٠ ـ د . عبد الوهاب الكيالى وآخرون، موسوعة السياسة، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩، ص ١٣١ .

١١ ـ لواء / عدلى سعيد، الأمن القومى العربى واستراتيجية تحقيقه، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ١٨ .

١٢ ـ روبرت ماكنمارا، جوهر الأمن، ترجمة يونس شاهين، القاهرة، الدار القومية ١٩٧٠، ص١١٩ ، ١٢٠ .

١٣ ـ د . على الدين هلال، «الأمن العربى والصراع الاستراتيجى فى منطقة البحر الأحمر» المستقبل العربى، عدد ٩ ، سبتمبر ١٩٧٩، ص ٩٨، وأيضاً : د. على الدين هلال، «الأمن القومى العربى: دراسة فى الأصول» ، شئون عربية، عدد ٣٥، يناير ١٩٨٤، ص ٦ : ٢١ .

١٤ ـ د. عبد المنعم المشاط، «نحو صياغة عربية لنظرية الأمن القومى»، والمستقبل العربى ، عدد ٥٤، أغسطس، ص٤ ـ ٢١ .

١٥ ـ يشير د . على الدين هلال، إلى تصنيف تعريفات الأمن القومى بإعتبارها تنحصر فى مدرستين هما : الأمن القومى كمفهوم عسكرى، والأمن القومى كقضية مجتمعية، حيث يدخل فى إعتباره الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والانسانية، «الأمن القومى العربى: دراسة فى الأصول»، مرجع سابق، ص٩ : ١٢ .

١٦ ـ المرجع السابق ، ص ١٢ : ١٤ .

١٧ ـ السيد يسن، «مستقبل الدولة على عالم كونى» ، الأهرام، ١ مايو/ ١٩٧٧ .

١٨ ـ صلاح الدين حافظ، قراءة المستقبل عبر ثقافة الديمقراطية وصحافة المعلومات»، الأهرام، ١٥ / ١ / ١٩٩٧ .

١٩ ـ د . ممدوح شوقى، «الأمن القومى والعلاقات الدولية»، مجلة السياسة الدولية، عدد ١٢٧، يناير ١٩٩٧، ص ٣٢:٤٧، ص٤٦

٢٠ ـ جميل مطر، «قضية فى المستقبل، الدولة بسيادة أقل»، الأهرام ١٩ / ٣ / ١٩٩٧ .

٢١ ـ د . ممدوح شوقى، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

٢٢ ـ د . عواطف عبد الرحمن، «الحق فى الاتصال وإشكالية الديمقراطية فى الوطن العربى»، الدراسات الاعلامية، القاهرة ، عدد ٤٩، أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٨٧، ص١٨: ٣٤، وكذلك : خليل صابات، «حق الاتصال»، ورقة مقدمة إلى الحلقة الثانية لبحوث الإعلام، المركز القومى للبحوث الاجتماعية، القاهرة، ١٩٨٣ .

٢٣ ـ د . عواطف عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

٢٤ ـ حديث للسيد / حبيب العادلى (وزير داخلية مصر)، للصحفية سناء السعيد، جريدة الأسبوع، ١٨ يناير ١٩٩٩ .

٢٥ ـ د . محمود عز الدين، «وسائل الاعلام والاتصال فى عصر المعلومات: التطورات والسمات»، مرجع سابق ، ص ٧٠ ـ ٧٣ .

٢٦ ـ د . مأمون فندى، «الأمن القومى فى عصر المعلومات بين المصالح الشخصية والمصلحة الوطنية»، الأهرام ، ٢٢ / ٩ / ١٩٩٨ .

٢٧ ـ د. سليمان صالح ، «حق الصحفى فى الحصول على المعلومات ودوره فى تحقيق حق الجماهير فى المعرفة»، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، جامعة القاهرة، عدد (١)، يناير ٩٧ ، ص ١ : ٣٥ .

٢٨ ـ المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

٢٩ ـ د . ممدوح شوقى ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .



دور الجامعات فى مواجهة التحديات المعاصرة (التحدى الثقافى)

د . محمد حسن القبيسى *

ازداد الاهتمام فى السنوات الأخيرة بوضع الجامعات، ودورها فى المجتمع المعاصر، وبمستقبل التعليم الجامعى وأهدافه والتحديات التى تواجه الجامعات فى مختلف المجالات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والأساليب ، والوسائل التى يمكن أن تستعين بها الجامعات لمواجهة هذه التحديات والتغلب عليها أو تذليلها وتطويعها لصالحها وتحقيق أهدافها وخدمة رسالتها العلمية. ومع أن هذه المسائل وأمثالها كانت تشغل دائماً بال المهتمين بالسياسة التعليمية بعامة وسياسة التعليم الجامعى بخاصة فى كل أنحاء العالم فإن تفاعل الأحداث وتسارع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وانعكاس هذه الأحداث والتغيرات على الجامعة والتعليم الجامعى أثارت كثيراً من التساؤلات لدى بعض القطاعات حول الأهداف الحقيقية التى يجب أن تسعى الجامعات إلى تحقيقها، وعن نوع التعليم الجامعى الذى يمكن أن يساعد على تحقيق هذه الأهداف .

* باحث تربوى بوزارة التربية والتعليم، والتعليم العالى بدولة قطر .

وقـد تمثل ذلك كله بشكل واضح فى حركة الطلاب الشهيرة التى قامت فى الخارج عام ١٩٦٨م ووجدت لها أصداء مختلفة ومتباينة فى مختلف أقطار العالم. وقد تختلف الآراء حول هذه الحركة وبواعثها وجدواها ولكن الذى لا شك فيه هو أنها نبهت الأذهان إلى بعض مطالب الطلاب من أن الجامعات أنشئت من أجلهم وأنهم هم الفئة التى يتعاملون مع الجامعة ومع التعليم الجامعى بشكل مباشر، وأن حياتهم هى التى سوف تتأثر بذلك التعليم فى المستقبل، وأن لهم الحق على هذا الأساس فى أن تكون لهم كلمة فى تحديد نوع التعليم الذى ينبغى على الجامعات أن تقدمه لهم، وفى المناهج والمقررات، وطرق التدريس بل وفى إدارة المؤسسة الجامعية ذاتها وما إلى ذلك . «ولكن المغالاة فى المطالب أدت إلى خذلان القضية بحيث بدت الحركة كما لو كانت تشكل تهديداً مباشراً للتعليم وللقيم مما ترتب عليه تراجع الحركة وانحسارها إلى حد كبير»(١).

ولكن المهم هو ازدياد الشعور والوعى بوجهة نظر الأجيال الناشئة حول التعليم الجامعى، وإدراك بعض التحديات التى تواجه الجامعات سواء فى المجال التعليمى ذاته كما يتمثل فى المناهج ومدى ملاءمتها لمتطلبات المجتمع المعاصر، أو المجالات الاقتصادية كما تتمثل فى إمكانات الجامعات المادية والمالية وقدرتها على الإنفاق على البحوث والدراسات وما إلى ذلك. ولكن ربما كان أكبر هذه التحديات وأشدها صعوبة وتعقداً وتشابكاً هى التحديات الثقافية التى تتمثل فى التغيرات السريعة المتلاحقة فى الفكر العالمى وظهور الحركات والاتجاهات، والمدارس الفكرية، والأدبية، والفنية الجديدة وضرورة ملاحقة هذه التغيرات حتى لا تتسع الفجوة بين ما تقدمه الجامعات من مناهج ومقررت وبين تلك التيارات الثقافية الجديدة.

وإذا كان ذلك يصدق على الجامعات فى الخارج فإن ذلك يصدق من باب أولى وبشكل أوضح وأفدح فى مجتمعات العالم الثالث التى يدخل العالم العربى فى إطارها، والتى تخضع لكثير من المؤثرات الثقافية الوافدة إليها من الخارج بحيث تشكل تهديداً خطيراً لثقافتها القومية الأصيلة.

من هنا كانت أهمية موضوع دور الجامعات فى مواجهة التحديات الثقافية المعاصرة. فالتغيرات السريعة الهائلة فى مختلف مجالات المعرفة وتشعب هذه المجالات ذاتها وضرورة الإحاطة بها بقدر الإمكان وسهولة الخضوع لتأثيراتها والانقياد لها بفعل وسائل الإعلام الحديثة، والحاجة فى الوقت ذاته إلى متابعة التقدم العلمى والتكنولوجى والحضارى فى العالم بكل مستحدثاته ومستجداته مع الاحتفاظ بالهوية الثقافية العربية الإسلامية، كلها أمور تستدعى تجنيد كل القوى الاجتماعية،

وكل النظم والمؤسسات والأجهزة والموارد البشرية، والاجتماعية لمواجهة هذه التحديات.

ولكن يبقى دور الجامعة مع ذلك بارزاً بحكم طبيعة رسالتها فى المجتمع، وهى رسالة مزدوجة تهتم بالتعليم الأكاديمى المتخصص الدقيق من ناحية وبالثقافة الإنسانية الرفيعة من الناحية الأخرى. أو هذا على الأصح هو الهدف المثالى الذى يجب أن تعمل الجامعة على تحقيقه.

وليست المسألة هنا مجرد تحديد للعلاقة بين التعليم الجامعى والثقافة، أو لتعرف أساليب وطرق التصدى للمؤثرات الثقافية الخارجية، أو تفنيد الآراء والأفكار الوافدة دفاعاً عن مقومات الثقافة العربية الإسلامية وتسخير الجامعات لذلك الغرض أو توجيه التعليم الجامعى لتفنيد ودحض تلك الأفكار والآراء إذا كانت لا تتفق مع القيم والتقاليد والتراث الثقافى الأصيل. إنما المسألة أوسع من هذا بكثير لأنها تتصل فى حقيقة الأمر حسب ما نتصور بإقامة بناء تعليمى جامعى متكامل يأخذ فى الاعتبار المتغيرات الثقافية فى العالم بوجه عام. إذ لم يعد هناك الآن مجتمع مغلق على ذاته، وبذلك فلا يمكن للمجتمع العربى أن يعيش فى عزلة عن بقية أنحاء العالم، أو أن يعزل نفسه عن المؤثرات الثقافية الخارجية التى تنقلها كل وسائل الإعلام والاتصال فى سهولة ويسر بكثرة وكثافة هائلة .

وهذا معناه ضرورة توجيه التعليم الجامعى نحو فهم التيارات الثقافية المتلاطمة عن طريق إخضاعها للدراسة والنقد والتحليل وتقبل ما يتفق منها مع التقاليد والتراث، والقيم العربية والإسلامية، والكشف عما قد يكون بها، أو ببعضها من زيف أو نقص. وهذا هو مفهوم المواجهة فى نظرنا ثم تمثل ما لا يتعارض بعد ذلك مع قيمنا ومع تصورنا الخاص للتعليم الجامعى ورسالة الجامعة.

وسوف يتطلب ذلك بالضرورة تحرر التعليم الجامعى من بعض الأنماط التقليدية القائمة الآن سواء فيما يتعلق بالمناهج، أو بعض المقررات، أو بعض طرق التدريس مع اتساع النظرة فى تصور أهداف الجامعة بحيث نضفى على التعليم الجامعى طابعاً ثقافياً إنسانياً نابعاً من التجربة الخاصة ومن الاتصال بالثقافات العالمية المختلفة، وبذلك نجعل التعليم الجامعى الأكاديمى تحضراً وإنسانية إن صح هذا التعبير.

وسوف يقتضى ذلك منا أن نتعرض هنا لبعض المشكلات الأساسية التى تدور حول تعرف الأهداف الواقعة للتعليم الجامعى، ونوع التحديات الثقافية التى يواجهها المجتمع العربى والتى يتعين على الجامعة مواجهتها وإمكانية تطويع هذه التحديات للإفادة منها لإثراء التعليم الجامعى وتوسيع رسالة الجامعة وانطلاقها إلى مجالات أوسع وأرحب .

أولاً: التعليم الجامعي: واقعه وأهدافه:-

أ - من أهم ما يميز الوضع القائم بالنسبة للجامعات فى العالم العربى بوجه عام شدة الإقبال على التعليم الجامعى بحيث لم يعد ذلك التعليم قاصراً الآن على فئة معينة من الناس، أو على شريحة معينة من المجتمع، أو على (طبقة) دون أخرى تؤهلها إمكاناتها المالية وتطلعاتها الاجتماعية ونظرتها إلى الحياة لطلب هذا النوع من التعليم، وإنما أصبح التعليم الجامعى مطلبا شخصياً وفردياً بقدر ما هو مطلب قومى، كما يدل على ذلك سياسة مجانية التعليم الجامعى التى تأخذ بها بعض الدول العربية وليس الدول الخليجية وحدها.

فالدولة تنفق على الجامعات وتعتبر ذلك كاستثمار طيب فى مجال تنمية الموارد البشرية وجزءاً من سياسة التنمية الشاملة. وإذا كانت الجامعات ملكاً للدولة فإن ذلك يعطيها أى الدولة حق التدخل فى رسم سياسة التعليم الجامعى، أو على الأقل توجيه هذه السياسة بشكل مباشر، أو غير مباشر بما لا يتعارض مع النظام العام للدولة أو الأسس التى يقوم عليها نظام الحكم. وهذا نفسه يصدق على السياسة الثقافية، وإن كان النشاط الثقافى يسمح بطبيعته بقدر أكبر من الحرية الشخصية والفردية فى مجال الإبداع. ولكن هذا الوضع العام يثير بعض التساؤلات حول مشكلة (تسييس) الثقافة وتوجيه التعليم الجامعى وجهة معينة بالذات، وعن العلاقة بين الدول والتعليم الجامعى، والثقافة، والقيود، والحدود التى تلتزم بها الجامعات فى وضع مناهجها واختيار المقررات الدراسية.

ب - وتلتزم الجامعات بمبدأ تكافؤ الفرص فى قبول الطلاب تطبيقاً لمبدأ العدالة بين الذين بلغوا سنا معينة وأنهوا بنجاح مرحلة دراسية معينة بالذات هى مرحلة الدراسة الثانوية. وهذا المبدأ مسئول إلى حد كبير بالإضافة إلى مبدأ مجانية التعليم عن شدة الإقبال على التعليم الجامعى وعن زيادة الأعداد الكبيرة التى تقبلها معظم الجامعات فى العالم وازدحام هذه الجامعات بطلابها وما يترتب على ذلك من انخفاض مستوى التعليم بها.

بيد أن مبدأ تكافؤ الفرص لا يعنى فى حقيقة الأمر إطلاق القبول فى الجامعات بغير قيد أو شرط. فليس من الضرورى أبداً أن يلتحق بالجامعة كل من حصل على الثانوية العامة بصرف النظر عن الاختلافات الفردية وعن التفاوت فى القدرات الذهنية والاستعداد الشخصى لمتابعة الدراسة فى تلك المراحل المتقدمة من التعليم. وليس من المفروض أن يطبق التعليم الجامعى مبدأ المساواة إلا بين الذين يتساوون فى القدرات العقلية والذين تتوفر فيهم مهارات معينة بالذات تساعدهم على التحصيل وعلى

التفكير للمستقبل. وعلى ذلك فإن شعار ـ جعل التعليم الجامعى ديمقراطيا ـ لا يمكن أن يؤخذ على علاته، أو أن يقبل على إطلاقه بحيث تفتح الجامعات أبوابها على مصاريعها لكل من يريد الالتحاق بها مادامت لا تتوفر لديه الإمكانيات والقدرات اللازمة لذلك. وإذا كان من غير العدل عدم إتاحة الفرصة للأكفاء بالجامعة فإنه من غير العدل أيضاً إهدار عنصر الكفاءة والمهارة وإغفال الاختلافات الفردية فى القبول بالجامعات.

جـ ـ وثمة اتجاه واضح يغلب على كثير من الناس سواء فى العالم العربى، أو الخارج إلى اعتبار الجامعة مجرد مرحلة تالية ومكملة للتعليم الثانوى أى أن الجامعة ليست سوى نظام يمثل ما بعد التعليم الثانوى أو ما فوق التعليم الثانوى، وأن الهدف منه هو تدريب القدرات وتنمية المهارات الفردية وإعداد الطلاب للعمل بعد التخرج والخروج إلى الحياة العملية. .كل رسالة الجامعة هنا تنحصر فى إعداد الطلاب إعداداً علمياً جيداً لممارسة مهن معينة، وهذا واضح من الاهتمام البالغ الذى تعطيه معظم الجامعات فى العالم لما يمكن تسميته بالتعليم المهنى أو التقنى (Professional) الذى يؤهل لممارسة عمل معين ومحدد بالذات كما هو الحال فى كليات الطب والهندسة والتجارة والتربية وما إليها من كليات تقدم دراسات أكثر التصاقاً بالحياة العملية وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع وبمتطلبات الحياة اليومية، وذلك بعكس الحال بالنسبة للدراسات العقلية أو النظرية التى يطلق عليها أسم (Libral arts) كالفلسفة والتاريخ واللغات، أو حتى العلوم البحته الأساسية التى لا تعد صاحبها فى الأغلب لمهنة معينة محددة، ولذا فكثيرا ما ينظر إليها الناس نظرة أدنى من نظرتهم إلى التعليم التقنى بهذا المعنى، بل إن الجامعات ذاتها تعطى من العناية بالتعليم التقنى أكثر مما تعطيه للدراسات العقلية النظرية وتخصص الجانب الأكبر من ميزنيات بحوثها لهذا النوع من التعليم والبحوث المتعلقة به .

والظاهر أن بعض الكليات (النظرية) بدأت تساير هذا الاتجاه نحو إعداد طلابها للعمل بعد التخرج ولجأت فى ذلك إلى إدخال دراسات وتخصصات فى بعض أقسامها لم تكن تعترف بها من قبل، أو توليها أى قدر من الاهتمام والاحترام مثل الخدمة الاجتماعية والإعلام. «وفى كثير من البلاد العربية تعتبر الكليات ذات الطابع التعليمى المهنى، أو التقنى كالهندسة والطب من كليات (القمة) لأنها تقبل أعلى المجاميع. والتسمية ذاتها لها دلالتها ومغزاها وتعبر بشكل واضح عن نظرة الناس ونظرة الجامعة ذاتها إلى نوعى التعليم»(٢)

د ـ وهذا يؤدى بنا إلى مشكلة مضمون التعليم الجامعى أى مشكلة المناهج

والمقررات الدراسية التى تعانى فى كثير من الأحيان من بعض الاضطرابات والارتباك وعدم الاستقرار. فالمناهج كثيراً ما تتغير دون أن يكون هناك سبب واضح أو مبرر قوى لتغييرها مما يعنى عدم وضوح الرؤية، أو الهدف من العملية التعليمية كلها، المسألة تتصل فى آخر الأمر باختلاف النظرة وتباين الآراء حول ما يجب تدريسه، إذ إن بعض المقررات الدراسية تثير كثيراً من الجدل حول أهميتها وجدواها، وهى مسألة ليست مقصورة على الجامعات العربية، وإنما نجد لها مثيلا ـ ولكن بدرجة أقل ـ فى الجامعات الأجنبية فى الخارج . ومنذ سنوات قليلة أثيرت فى بريطانيا مثلاً مناقشات جادة وطويلة حول أهمية وجدوى تعليم اللغات الكلاسيكية فى المدارس والجامعات. وقد أثير مثل هذا الجدل منذ نصف قرن فى مصر حين كان طه حسين يطالب بشدة واصرار بإدخال اللاتينية واليونانية إلى كليات الآداب والحقوق، وكان له ما أراد، ثم اختفت اللغتان بعد ذلك بسنوات طويلة إلا بالنسبة للأقسام المتخصصة. كذلك يثور جدل طويل فى كل الجامعات حول مدى الاهتمام الذى يجب أن تعطيه الجامعات لمشكلات الحياة، والمجتمع، والعالم الخارجى، أى مدى الأمور التى لا تتعلق تعلقاً مباشراً بموضوعات التخصص العلمى الدقيق. وبينما يرى البعض أنه يتعين على الجامعات أن تعطى مزيداً من الوقت والجهد والمال للشئون العامة المتعلقة بحياة الإنسان ككل يرى البعض الآخر أن الجامعات أعطت بالفعل لهذه الأمور أكثر مما ينبغى وأنه من الخير لها أن تقصر اهتمامها علي ما يتصل بالحياة الأكاديمية من أمور بحيث تعكف تماماً على المشكلات المتصلة بالتخصصات العلمية الدقيقة. إلا أن هناك من يرى أنه يجب على الجامعة أن تكون مفتوحة أمام كل فكر وكل اتجاه أيديولوجى ولكل التيارات والمذاهب والاتجاهات وأنه لا يجب على هذا الأساس أن يكون هناك أبداً ما يمكن أن يطلق عليه تعبير (Core of Knowledge) .

وهذا الاختلاف فى الآراء هو الذى يعكس لنا حقيقة موقف الجامعة والاتجاهات الثقافية وتنأى بجانبها عنها وتغلق دونها أبوابها وعقول اساتذتها وطلابها وتحصرها فى مواد التخصص بحيث تخرج لنا فى آخر الأمر الشخص المتخصص تخصصاً دقيقاً يؤهله لممارسة مهنة، أو عمل معين بنجاح؟ أم أنها تأخذ من هذه التيارات والاتجاهات والمدارس والثقافات المختلفة بقدر؟ ولكن ما هو هذا القدر، ومن الذى يحدده وما محكات الاختيار ومعايير الانتقاء؟ أم أنها تفتح أبوابها وعقول أبنائها على كل ثقافات العالم وتياراتها واتجاهاتها المتضاربة المتلاطمة بصرف النظر عن النتائج التى قد تترتب على ذلك؟ وهذه كلها مسائل تثار فى الخارج ومطروحة هناك

للبحث. ومن الأولى بنا أن نثيرها نحن بقوة، وأن نعالجها فى ضوء ظروف حياتنا وتقاليدنا العامة، وفى إطار تصورنا للتعليم الجامعى ونظرتنا إلى الثقافة وأهدافها والعلاقة بينهما.

وقد نستطيع أن نخرج من هذا العرض السريع ببعض الملاحظات العامة التى تساعد على تعرف التحديات الثقافية التى تواجه الجامعات فى الوقت الحالى، وموقف هذه الجامعات منها:

الملاحظة الأولى:

هى أن هدف التعليم الجامعى يجب أن يكون هدفاً (تعليمياً) بالمعنى الواسع للكلمة بحيث لا يقتصر على إعداد الطلاب للحياة العملية وممارسة (مهنة) معينة فحسب مع إغفال طلب المعرفة فى ذاتها ولذاتها بصرف النظر عن الجانب العملى، أو «البرجماتى» أو النفعى لهذه المعرفة.

ولسنا نهدف بهذا القول إلى التهوين من شأن التعليم العملى، أو التقنى، أو إلى الدعوة إلى إغفال وإسقاط الاعتبارات المتعلقة بالعمل، والتضحية بها فى سبيل المعرفة النظرية التى تهتم بالإعداد الذهنى النظرى، وبالفكر المجرد. وكل ما نعنيه هنا هوعدم إعطاء هذه الاعتبارات العملية، أو البرجماتية أولوية مطلقة على حساب الاهتمام الأكثر عمومية، والتى تتعلق بحياة المجتمع وبالمبادىء الإنسانية بوجه عام.

فالتعليم النظرى أوالعقلى المجرد الذى كثيرا ما يؤخذ عليه أنه تعليم غير (عملى) وليس له جدوى فى واقع الحياة العملية يقوم بدور هام وفعال فى تحقيق القيم وترسيخها. وعلى بالرغم من أنه لا يمكن (تلقين) هذه القيم، أو فرضها إلا أنه يمكن تعلمها واكتسابها أو تحصيلها وتمثلها عن طريق القدوة وبخاصة عن طريق الوعى بالتراث العقلى للمجتمع مع عدم إهدار قيمة تراث وثقافات المجتمعات الأخرى، وكذلك عن طريق تنمية القدرات الذهنية اللازمة لتحصيل المعرفة الإنسانية فى شتى صورها وشتى مصادرها.

وقد يمكن هنا بذل بعض الجهد لتعريف الطلاب فى التعليم الجامعى العلمى، أو التقنى بالجوانب العقلية، أو الذهنية الخالصة فى موضوعات تخصصهم، بحيث يدرس مثلاً تاريخ الإنجازات العلمية والجوانب الإنسانية الرفيعة فيها والمناهج المختلفة التى يمكن اتباعها فى البحث عن الحقيقة بأشكالها المختلفة، أى قد يمكن العمل بشكل من الأشكال على إبراز الجوانب الإنسانية والاجتماعية والجمالية التى تختفى وراء هذه الإنجازات العلمية.»، ويقول آخر فإنه يجب النظر إلى التخصصات العلمية كالطب والهندسة من حيث هى إنجازات إنسانية وأن تدرس على هذا الأساس، إذ ليس ثمة ما يدعو أبداً إلى الفصل القاطع بين الإنسانيات

والتخصصات العلمية، أو بين الدراسات العقلية النظرية والدراسات العملية، كما أنه ليس ثمة ما يدعو على الجانب الآخر إلى اعتبار العلم تهديداً للقيم الإنسانية والثقافية كما يعتقد بعض (الإنسانيين(١))، والمهم على أية حال هو أنه فى الوقت الذي تعنى فيه الجامعات بالتخصص الأكاديمى الدقيق يجب أن تعنى بإعداد الشخص المتعلم تعليماً يتجاوز حدود تخصصه دون أن يتعارض ذلك مع مبدأ التخصص .

الملاحظة الثانية:

هى أن أحد التحديات الكبرى التى تواجه الجامعات الآن فى كثير من البلاد هو المحافظة على مستوى التعليم، أو على (الجودة)، إن صح هذا التعبير إزاء الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين تقبلهم الجامعات أو بعضها على الأقل الآن، ودون الإخلال فى الوقت ذاته بمبدأ العدالة أو تكافؤ الفرص بالمعنى الذى أشرنا إليه من قبل.

وليس ثمة ضرورة إلى العودة إلى سياسة تقييد القبول بالجامعات، أو تقليل عدد المقبولين بطريقة تعسفية كوسيلة للارتفاع بمستوى التعليم الجامعى. فلقد أصبحت جامعات الأعداد الكبيرة أمراً مسلماً به، وحقيقة تفرض نفسها على واقع التعليم الجامعى، والتعليم العالى بشكل عام، ولذا ينبغى البحث عن وسائل وأساليب أخرى لمواجهة المشاكل الناجمة عن ازدياد الاتجاه نحو الجامعات، سواء أكان ذلك عن طريق تحديث وسائل التدريس بدلاً من الاكتفاء بالوسائل القديمة التقليدية، أو عن طريق تنويع التعليم وفتح مجالات وتخصصات جديدة فى التعليم الجامعى مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية وجود قدر بل ونوع معين من المعرفة مشترك بين (جميع) الطلاب بصرف النظر عن مجال التخصص، ومع الابتعاد بقدر الإمكان عن أسلوب (التلقين) الذى يغلب الآن فى الجامعات عندنا، وغير ذلك من وسائل قد يقترحها علماء التربية ويدركون جدواها من واقع خبرتهم الطويلة. ولقد أصبحت إمكانات التعلم الآن واسعة بدرجة لم تكن معهودة من قبل.

وثمة موارد بشرية ومادية هائلة ومتنوعة تساعد على ذلك، كما أن فرص التعليم والتعلم أصبحت متوفرة ومتاحة بشكل غير مألوف. ولكن المهم هنا هو التحرر من آفة النقل والتقليد والمحاكاة التى تحكم كثيراً من تصرفاتنا بحيث لا نتقيد بمناهج جامعات أخرى فى الخارج وننقلها بحذافيرها وتفاصيلها، وإنما لابد من أن تصدر المناهج عن الظروف والأوضاع الخاصة بالمجتمع ومن تجربة المجتمع الذاتية وتاريخيه، وتراثه، ونظرته إلى الحياة وإلى المستقبل، وبحيث تعكس هذه المناهج أيضا علاقة المجتمع بالمجتمعات والثقافات الأخرى التى تؤثر فيه وتتأثر به. وقد يكون

هذا أوضح بطبيعة الحال فى الدراسات الإنسانية والاجتماعية منه فى الدراسات العلمية والعملية .

الملاحظة الثالثة والأخيرة:

هى أن كل تلك المشكلات التى عرضنا لها بشكل سريع ومختصر مشكلات على درجة كبيرة من الصعوبة والتعقيد ولا يوجد لها حلول أو أجوبة جاهزة، وإنما هى تحتاج على العكس من ذلك إلى القيام ببحوث ميدانية مكثفة وغير مسبوقة، وبحيث يتم إجراؤها على نطاق واسع لنعرف آراء وتطلعات الأساتذة والإداريين والطلاب والخريجين وأصحاب القرار وواضعى السياسات التعليمية والثقافية، وقطاعات أخرى عريضة من المجتمع قبل البت فيها برأى قاطع لتحديد نوع التعليم الجامعى وعلاقته بالتوجهات والأوضاع الثقافية السائدة فى المجتمع والحركات والتيارات الثقافية الخارجية التى تؤثر بالضرورة فى حياة الناس نتيجة لازدياد قوة وفاعلية وسائل الإعلام الحديثة، والتى تشكل تحديات هائلة أمام التعليم الجامعى والثقافات القومية على السواء.

وسوف يتطلب ذلك أن يتحرر التعليم الجامعى من النطاق التقليدى المضروب عليه وينطلق إلى آفاق أوسع وارحب تأخذ فى الاعتبار الأوضاع الثقافية العامة بالمعنى الواسع لكلمة (ثقافة)، وهو ما سنعرض له الآن.

ثانياً : الثقافة ـ المتطلبات والتحديات:

ليس ثمة أكثر من التعريفات التى اقترحها الكتاب والباحثون لمفهوم الثقافة. فقد وصلت هذه التعريفات إلى أكثر من مائة وخمسين تعريفاً عام ١٩٥٠م . وقد أضيفت إليها بغير شك بضع مئات أخرى من التعريفات منذ ذلك الحين وحتى الآن. ولذا فإننا نكتفى هنا بالقول بأن مفهوم الثقافة يشير إلى كل ما يصدر عن الإنسان من إبداع، أو إنجاز فكرى، أو أدبى أو فنى، أو علمى، ولكن هناك تصوراً آخر أوسع وأشمل للثقافة يعتبر الثقافة هى حصيلة كل النشاط البشرى الاجتماعى فى مجتمع معين. مما يعنى فى آخر الأمر أن لكل مجتمع ثقافته الخاصة المميزة. بصرف النظر عن مدى تقدم ذلك المجتمع، أو تأخره، وتخلفه، وهذا التصور لمفهوم الثقافة لا يحمل أى مضمون تقويمى، وإن كان يعترف فى الوقت ذاته بأن لكل ثقافة نسقها الخاص من القيم والمعايير. وداخل هذا التصور (الوصفى) العام يمكن التمييز بين (درجات) مختلفة من النشاط التى تتفاوت فى الضيق، أو الاتساع بحيث يقتصر استخدام كلمة (الثقافة) أحيانا للإشارة إلى النشاط الاجتماعى الذهنى والفنى، وفى أحياناً أخرى إلى النشاط الفنى وحده، أو حتى إلى الأنشطة (الشعبية) العادية التلقائية التى يقصد منها التسلية والترويح

أثناء وقت الفراغ . والواقع أن هذه التمييزات ذاتها يمكن إقامتها داخل إطار التصور المعيارى الذى أشرنا إليه فى البداية والذى يأخذ الثقافة على أنها (الإبداع)، أو (الإنجاز) الفكرى، أو الأدبى، أو الفنى، أو العلمى الذى يصدر عن الإنسان من حيث هو عضو فى مجتمع معين.

فالتصور المعيارى هو الوجه الآخر للتصور الوصفى ولكن من زاوية تقويمية خالصة. وعلى ذلك فإنه يمكن التمييز داخل كل من هذين التصورين الوصفى والمعيارى للثقافة بين أربعة مجالات على النحو التالى(٤).

أ ـ التصور الوصفى :

١ ـ المجال الأنثربولوجى الواسع حصيلة النشاط الاجتماعى .

٢ ـ النشاط الفكرى والفنى.

٣ ـ النشاط الفنى والأدبى أى بدون الفلسفة والعلم.

٤ ـ الأنشطة الثقافية الشعبية بقصد الترويج .

ب ـ التصور المعيارى :

١ ـ المظاهر والجوانب الراقية والسامية فى النشاط الاجتماعى بعامة.

٢ ـ أرقى وأفضل ما صدر عن الفكر وعن القول .

٣ ـ الفن الراقى بصوره المختلفة .

٤ ـ التسلية المفيدة النافعة الراقية .

ولسنا هنا بصدد الحديث بالتفصيل عن الثقافة ومكاناتها المختلفة لأن الذي يهمنا فى المحل الأول هو تعرف علاقة الثقافة بالتعليم الجامعى من ناحية وتبين التحديات الثقافية التى تواجه التعليم الجامعى والتى قد تؤثر فيه، والتى يتعين عليه مواجهتها من الناحية الأخرى.

وواضح أن الثقافة حسب التصور الوصفى للثقافة لا تكاد تشكل تحدياً سافراً للجامعة وللتعليم الجامعى باعتبارها حصيلة للنشاط البشرى العادى المألوف فى المجتمع، وأن الفرد يكتسبها خلال عمليات التنشئة الاجتماعية بطريقة تلقائية، وأن وجودها لا يرتبط بالفرد من حيث هو فرد، وإنما هى خارجة عنه وسابقة عليه، ولا تخضع لإرادته. كما أن وجودها يتعدى وجوده ويتجاوزه فى الزمن وأنها على هذا الأساس تكاد تكون مرادفة لأسلوب الحياة السائد فى المجتمع.

وصحيح أن عمليات التنشئة الاجتماعية، أو التطبيع الاجتماعى يتم بمقتضاها انتقال أساليب الحياة بكل أنشطتها وإنجازاتها وقيمها من جيل لآخر، وأن لهذه الأساليب تأثيراً مباشراً فى إعداد الشخص وتكوين الشخصية كما تتدخل بشكل أو بآخر فى توجهه للحياة بما فى ذلك نحو التعليم

الجامعى، واختياراته لنوع التخصص بل انها تتدخل فى تحديد سياسة التعليم الجامعى ذاتها على اعتبار أن هذه السياسة تتأثر بغير شك بالقيم السائدة فى المجتمع وبأنماط التفكير المتوارثة، ولكن على الرغم من هذا كله فإن ثمة فارقاً كبيراً بين التنشئة الاجتماعية، أو التطبيع الاجتماعى وبين التعليم وبخاصة التعليم الجامعى. فالتعليم الرسمى أضيق مجالاً من علمية التنشئة كما أنه لا يأخذ منها سوى الجوانب التى تساعد الارتقاء بالفرد فى المجتمع وتحسين أوضاعه بطريقة عملية وهادفة.

وإذا نحن سلمنا بأن التعليم الجامعى يجب أن يكون (تعليمياً) بالمعنى الواسع للكلمة بحيث لا يقتصر على إعداد الطالب لممارسة مهنة أو عمل معين فى مجال تخصصه الدقيق، وأن الجامعة لم توجد لتعمل بمعزل عن المجتمع أو حتى عن العالم الخارجى ككل، وأن رسالة الجامعة هى فى آخر الأمر إعداد المواطن المتخصص الذى يستطيع أن يتابع ويدرك فى الوقت ذاته ما يدور فى العالم الخارجى من أحداث وما يتفاعل فيه من تيارات فكرية واتجاهات سياسية ونظم اقتصادية ـ فإن ذلك سوف يعنى أنه يتعين على الجامعة أن تأخذ فى اعتبارها وأن تعطى شيئا من الاهتمام فى إعداد المناهج بالثقافة القومية من ناحية وبالثقافات العلمية أو بعض مظاهرها وإنجازاتها من الناحية الأخرى، على الرغم مما يبدو من وجود شىء من التعارض بين أحكام وقواعد التخصص الأكاديمى الدقيق ومتطلبات الثقافة الواسعة العريضة. والاهتمام بالتوفيق، أو الجمع بين التخصص الدقيق والثقافة الرفيعة العريضة لإعداد المواطن المتعلم المتخصص المثقف ــ هو الذى يفرض على الجامعة أن تواجه عدداً من التحديات الثقافية، وأن تعمل على تذليلها، أو حلها، أو تطويعها لصالحها، ولاستكمال رسالتها (التعليمية) على الوجه الصحيح والسليم .

وقد يكون من الخطأ أن تقصر التحديات الثقافية هنا على التحديات التى تمثلها الثقافات الأجنبية وحدها. وذلك أن الثقافة العربية الإسلامية ذاتها التى تسود المجتمع العربى المعاصر تضع عدداً من التحديات أمام الجامعة والتعليم الجامعى، أى أن الجامعة تواجه أن ينبغى عليها أن تواجه نوعين من التحديات الثقافية، وإن كانت التحديات الثقافية الخارجية، أو الأجنبية أشد ضراوة وعنفاً وأكثر خطورة لأنها تملك من القوة والوسائل ما يساعدها على شدة التأثير بحيث تمثل تهديداً مباشراً ليس للنظام التعليمى الجامعى فحسب بل وأيضاً للهوية الثقافية العربية.

وتشكل مقومات الثقافة العربية الإسلامية ذاتها النوع الأول من التحديات الثقافية التى يتعين على الجامعة مواجهتها. وقد تختلف الآراء حول هذه المقومات، ولكن

ثمة ثلاثة مقومات أساسية تعطى الثقافة العربية الإسلامية (خصوصيتها) وتميزها عن غيرها من الثقافات، أى تعطيها (هويتها)، أو ذاتيتها الثقافية إن صح هذا القول. وهذه المقومات الثلاثة التى نعرض لها هنا بسرعة وإيجاز هى : اللغة والدين والتراث.

١ ـ وحين نتكلم عن اللغة فى هذا المقام فإننا نعنى اللغة من حيث هى وسيلة للتواصل والتفاهم وأداة للفهم والتفكير والتعبير ونقل الأفكار. ولكن الأهم من هذا كله هواللغة من حيث هى مظهر لوجود رابطة ذهنية ووجدانية بين كل الناطقين بها. فاللغة العربية من هذه الناحية هى عامل وحدة وتوحيد، وقد زاد من فاعليتها أنها لغة القرآن الكريم، وإن كان القرآن قد عمل من الناحية الأخرى على بقائها واستمرارها وحفظها من الاندثار، ومن التغير إلا فى حدود معينة بحيث لم تقطع اللغة العربية حاضرها تماماً عن ماضيها على الرغم من القرون الطويلة التى مرت عليها وعاشتها كأداة تواصل ونقل وتوصيل.

٢ ـ كذلك فإننا نتكلم عن الدين كأحد مقومات الثقافة العربية الإسلامية فإننا لا نأخذ الدين من حيث هو نسق من المعتقدات والشعائر فحسب، وإنما نأخذه أيضاً باعتباره أسلوباً للحياة. فالدين يصبغ الحياة الاجتماعية فى العالم العربى بصبغة معينة متميزة تتجاوز كل الاختلافات الدينية والنعرات المذهبية والانتماءات العرقية، كما أنه ينظم العلاقات بين الناس ويفرض عليهم نسقاً من القيم وأنماط السلوك وطرق التفكير بل ونظرة معينة للإنسان وللكون وللمجتمع والعالم الآخر بكل ما تتضمنه هذه النظرة العامة الشاملة الكلية من نظم وقواعد وتشريعات اجتماعية وأخلاقية بحيث يصعب الفصل فى واقع الحياة اليومية بين ما هو دينى وما هو غير ذلك. «فتأثير الدين يتغلغل إلى كل جوانب الوجود الإنسانى ويصبغها بصبغة خاصة متميزة، وبذلك يعتبر الدين الإسلامى ثقافة وحضارة معاً، فى الوقت الذى يعتبر فيه أحد مقومات بل وأحد مكونات الثقافة العربية الإسلامية ودون أن يكون فى ذلك تعارض أن تناقض»(٥).

٣ ـ وأخيراً فإننا نتكلم عن التراث كمقوم من مقومات الثقافة العربية الإسلامية فإننا نشير إلى ما أنتجه التفاعل والتعاون بين المقومين السابقين (الدين واللغة) من نتاج فى مجالات الفكر المختلفة من فلسفة وعلم الكلام وتصوف وإلهيات، وكذلك فى مجال الأدب والفن والعلم وغيرها، بصرف النظر عما إذا كان ذلك التراث قد صدر عن مبدعين من العرب المسلمين أو من غير العرب ومن غير المسلمين ممن عاشوا فى العالم العربى، وتأثروا بالدين الإسلامى من حيث هو أسلوب للحياة أو ناقشوا بعض قضاياه، أو اتخذوا اللغة العربية أداة

للتعبيرعن أفكارهم وآرائهم. فالتراث يمثل البعد التاريخي أو الزماني للثقافة باعتباره سجلاً للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية خلال التاريخ. ولكن على الرغم من ارتباط التراث بالماضي فإنه لا يزال يعيش في وجدان الناس بشكل أو بآخر كما أن الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة هي إلى حد كبير حصيلة ذلك الماضي. وكل هذا معناه أن التراث أداة ربط بين الماضي والحاضر. ومن هنا سنجد أهميته كأحد المقومات الأساسية لتلك الثقافة.

ولقد تعرضت هذه المقومات الثلاثة لدرجات متفاوتة من التشكيك فى أهميتها وقيمتها وجدواها وفاعليتها، وحمل لواء التشكيك بعض المهتمين من العلماء الأجانب بالحضارة الإسلامية وتابعهم فى ذلك بعض الكتاب العرب والمسلمين. وتمثل هذه المواقف المعارضة نوعاً من التحدى لهذه المقومات بل وللثقافة العربية الإسلامية كلها. وهذه التحديات ذاتها هى من قبيل التحديات الثقافية التي ينبغى للجامعة والتعليم الجامعى مواجهتها .

أ - فلقد أثيرت بعض الشكوك حول فاعلية اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن معطيات العلم الحديث والحضارة الحديثة بوجه عام، وهى حضارة علمية فى أصولها، ومنجزاتها وتقوم على مبادئ فكرية ومناهج عقلية ونظرة إلى الحياة تختلف عن تلك التى تسود فى العالم العربى، كما أنها تحتاج إلى لغة معينة تعبر بها عن تلك المبادىء والمناهج والمنجزات فى ألفاظ ومصطلحات وتصورات وتراكيب لا تتوفر للغة العربية. وقد وجدت هذه الآراء صدى لها فى الجامعات العربية، وفى التعليم الجامعى حيث تعتمد معظم الجامعات فى تدريس بعض التخصصات. كالعلوم الطبية والهندسة على اللغات الأجنبية لاعتقاد الأساتذة فى عجز اللغة العربية عن أن تعبر عن مصطلحات هذه العلوم والتخصصات الحديثة. وكذلك وجدت هذه الدعاوى الأجنبية أصداء قوية لها فى بعض المجتمعات العربية خارج نطاق الجامعات فارتفعت الدعوة أحياناً إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية للتغلب على مشكلات (تشكيل) أواخر الكلمات وكذلك للتغلب على صعوبة كتابة الحروف العربية التى تتخذ أشكالاً مختلفة حسب موقعها من الكلمة (سواء جاء الحرف فى بداية الكلمة أو وسطها أو فى آخرها)، وكذلك فى الدعوة إلى اتخاذ اللهجات العامية بدلاً من العربية الفصحى فى التعبير الأدبى لأن اللهجة العامية اصدق واقرب إلى الواقع.

وليس من شك فى أن الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذا التحدى هى فرض استخدام اللغة العربية فى التدريس بالجامعات أى تعريب التعليم الجامعى فى كل فروع التخصص وتعريب المناهج كلها. وقد سبق لسوريا أن فعلت ذلك وتم تدريس الطب

باللغة العربية منذ سنوات طويلة. وليس من شك في أن ذلك سوف يتطلب من الجامعات بذل جهود مكثفة لترجمة المصطلحات العلمية الحديثة التي تتزايد في (العدد) باستمرار أو تعريبها إذا كان من الصعب ترجمتها، كما أن مجامع اللغة العربية في بعض الدول تسهم في ذلك إسهاماً طيباً. وليست المسألة هنا مجرد تشجيع استخدام اللغة القومية في التدريس على الرغم من أهمية ذلك وضرورته. وإنما المسألة بالإضافة إلى ذلك هي مسألة تدريب العقل على التفكير العلمي الحديث الدقيق باللغة القومية واكتساب هذه العادة بحيث يصبح هذا التفكير الدقيق سمة من سمات العقل العربي الذي يفكر في هذه الحالة مستخدماً مصطلحات ومفاهيم وألفاظا وحدوداً عربية مما يساعد على نقل التفكير العربي والعقل العربي نقلة حضارية واسعة للتفاعل والتجاوب مع منجزات الحضارة الحديثة.

ب والأمر نفسه يصدق على التراث فلقد تعرض التراث العربي الإسلامي لكثير من الهجوم والاستخفاف حتى من بعض المثقفين العرب المسلمين ومنهم أساتذة في الجامعات وبعضهم متخصص في العلوم والدراسات الإنسانية. وتدور معظم الشكوك حول أهمية الأعمال التراثية والدور الذي يمكن أن تقوم به في تشكيل العقل العربي المعاصر، وجدوى الاشتغال به والاهتمام بإحيائه إلا في أضيق الحدود بين أوساط المتخصصين فحسب، وهناك من بين هؤلاء المثقفين من يرون أن التراث جزء من الماضي وأنه نشأ في ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية وثقافية معينة وأنه على هذا الأساس ينتمي إلى الفترة التاريخية والحقبة الفكرية والثقافية التي أنتجته، وبذلك يكون قد استنفد أغراضه بانقضاء تلك الفترة وزوال تلك الظروف والأوضاع، وأنه إذا كانت له أية أهمية علمية فإنها تاريخية فحسب، وليس ثمة ما يدعو إلى إحيائه بعد أن تعداه الزمن وتجاوزته الحضارة الإنسانية، بل أن الاشتغال به وإحيائه من شأنهما تكبيل العقل العربي وتقييده ومنعه من الانطلاق واللحاق بركب الحضارة الحديثة التي تختلف في أسسها المنطقية ومنطلقاتها النظرية وأهدافها العملية ومنجزاتها التطبيقية عن ثقافة العصور الوسطى التي ينتمي إليها ذلك التراث. وكثيراً ما يصل الهجوم إلى حد التشكيك في قدرة العقل العربي نفسه في الإبداع، لأن جانباً كبيراً من التراث (العربي الإسلامي) صدر في الواقع عن مفكرين وفلاسفة وأدباء وعلماء من غيرالعرب، ومن غير المسلمين وإن كانوا يعيشون في ديار الإسلام ويكتبون باللغة العربية .

ويتمثل التحدي الحقيقي الذي يواجه الجامعات والتعليم الجامعي بالنسبة للتراث في تحديد (معنى) إحياء التراث، أي مفهوم (الإحياء) وطريقته والهدف منه. وليس

المقصود بإحياء التراث هنا مجرد العكوف على تحقيقه ونشره. إذ على الرغم من أهمية هذا العمل الشاق وضرورته فإنه يمثل خطوة أولى فقط فى طريق الإحياء. وقد لا تقوم الجامعات ذاتها بهذا العمل على اعتبار أن هناك مراكز متخصصة بتحقيق التراث ونشره فى عدد من البلاد العربية. «ولكن الملاحظ أن عدد المحققين فى تناقص مما يستدعى أن تهتم جامعتنا بإنشاء أقسام خاصة بالدراسات التراثية تهتم فيما تهتم بإعداد أجيال جديدة من المحققين، كما يجب أن تشترط بعض الأقسام الجامعية فى طلاب الدراسات العليا أن يقدموا مع رسائلهم الجامعية لنيل الماجستير أو الدكتوراه أحد النصوص المحققة، وهذا اقتراح قديم ولكنه لم يعمل به طويلاً»(٦).

«وإنما الذى يجب أن تعنى به الجامعات حقاً فى هذا الصدد هو دراسة التراث بقصد تعرف المبادىء والأسس والمناهج التى كانت تحكم الفكر العربى فى الماضى، ومدى تأثر هذه الأسس والمبادىء والمناهج بالتغيرات التى طرأت على المجتمع العربى فى مختلف عصوره. فقد يمكن الاستفادة من هذه التجارب في التعرف علي معالم الطريق الذى يمكن أن تسلكه الثقافة العربية فى المستقبل»(٧). أى أن الجامعات تستطيع أن تهتم بدراسة هذه الأعمال التراثية بعد تحقيقها ونشرها دراسة نقدية للكشف عن المبادىء العقلية والأسس المنهجية التى كان يقوم عليها الفكر العربى، لأنه مهما يقل عن أهمية مضمون تلك الأعمال التراثية ومحتواها فالأهم من ذلك هو معرفة الموقف العقلى والمنهج الفكرى الذى يكمن وراء ذلك المضمون أو المحتوى. وهذا وحده هو الذى يساعد على فهم التراث وتمثله بحيث يصبح جزءاً من الهوية الثقافية والاجتماعية للإنسان العربى المعاصر.

جـ ـ وليس من شك فى أن التراث العربى مليء بالقضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية التى تستحق إعادة النظر فيها وفحصها واختبارها من خلال القيام بدراسات وبحوث جديدة تقوم بها الجامعات وتضمنها بعض مقرراتها الدراسية. وسوف يؤدى ذلك إلى (عصرنة) التراث وبث الروح والحياة فيه من جديد. والواقع أن عدداً من علماء الغرب استطاعوا بهذه الطريقة أن يستفيدوا من هذا التراث العربى فى دراسة عدد من المشكلات المعاصرة فى العالم العربى أيضاً. والمثال الذى أحب أن استشهد به دائماً فى هذا الصدد لاتصاله الوثيق بميدان تخصصى (الأنثربولوجيا) هو نظرية ابن خلدون عن العصبية، فقد وجدت طريقتها إلى كتابات المستشرق البريطانى «وليام روبرتسون سميث» الذى استعان بها فى دراسته الشهيرة عن». القرابة والزواج فى بلاد العرب القديمة «ثم استعان بها بعد ذلك عالم الانثربولوجيا البريطانى» ايفانز

برتيشارد» فى تحليلة للتنظيم القبلى ونسق القرابة عند قبائل النوير فى جنوب السودان وللمجتمع القبلى فى ليبيا (برقة)، أى أنه أعاد عرض أراء ابن خلدون وأفكاره من منظور جديد وبالإشارة إلى مجتمعات أخرى غير تلك عرفها ابن خلدون وخرج من ذلك بنظرية جديدة ارتبطت باسمه هو، وإن كانت تستند إلى آراء غيره بعد تطويرها (وتحديثها)، أو (عصرنتها)، ومثل هذه النظرة إلى التراث، ومثل هذا الاتجاه للاستعانة به يمثلان تحدياً هاماً يتعين على الجامعة مواجهته بإجراء دراسات جديدة تستند إلى الأفكار القديمة لتبين مدى قدرة تلك الأفكار على الصمود وعلى تفسير الحياة المعاصرة .

د ـ وهذا كله يعنى أن إحياء التراث معناه (عصرنة) التراث وربطه بالواقع المعاش الآن وبقضايا العصر بقدر الإمكان وعدم الجمود أمام النصوص والنظر فى تلك النصوص بنظرة جديدة فاحصة وناقدة.، وإذا كان من العبث محاولة نقل الحاضر إلي الماضى بحيث نعيش حاضرنا ومستقبلنا بعقلية الماضى، ونعالج قضايانا ومشاكلنا بالإشارة إلى الظروف التى كانت تلابس الأحكام التى صدرت فى الماضى ويشتمل عليها التراث، فليس ثمة ما يمنع من تطويع ذلك الماضى ليكون فى خدمة الحاضر والمستقبل مادام ذلك لا يتعارض مع القيم الأصيلة، وهذا يتطلب بذل الجهد لتذليل التراث والتعريف به وإدخال بعض التراث فى المناهج الجامعية، وفى مختلف التخصصات بقدر الإمكان لأنه ليس كل ما كتب فى الماضى يستأهل الأحياء على النحو المطروح هنا. وإنما قد يكون للجامعات أن تنشر المعرفة بالتراث بين طلابها من خلال الاهتمام بتدريس تاريخ العلوم عند العرب مثلاً، وهو تخصص بجد فى الخارج كثيراً من الاهتمام ويلقى من الدارسين والباحثين كثيراً من الإقبال والقبول بحيث أنشئت كراسى للأستاذية فى بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية الشهيرة لهذا التخصص الهام، وتقوم بعض الدول الخليجية إن لم أكن مخطئاً بتمويل بعض هذه الكراسى اعترافاً منها بأهمية هذا التخصص ودوره في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية وإسهام العرب والمسلمين فى مختلف مجالات المعرفة .

وخليق بجامعتنا أن تنشىء هذا التخصص وتهتم به ما دام يتوافر لديها الموارد والبشرية اللازمة. بل أن بعض المقررات الدراسية فى الجامعة يمكنها أن تشتمل على كثر من المعلومات التى تساعد على التعريف بهذا التراث الزاخر، وذلك فى معرض تدريس «المداخل» العامة لفروع التخصصات المختلفة، وإذا كان أساتذة علم الاجتماع مثلاً يبدأون تدريسهم لتاريخ الفكر الاجتماعى بالإشارة إلى ابن خلدون وكتاب المقدمة باعتبار ذلك هو البداية الأولى لعلم الاجتماع، أو علم العمران فإن أساتذة

الأنثربولوجيا يستطيعون بالمثل أن يؤرخوا للانثربولوجيا والإنوجرافيا بالرجوع إلى كتابات بعض الرحالة العرب والمسلمين الذين تركوا لنا دراسات تفصيلية عن العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية السائدة فى المجتمعات التى قاموا بزيارتها وسجلوا ملاحظاتهم الدقيقة بطريقة منهجية سليمة. والشيء نفسه يمكن أن يصدق على تدريس الجغرافيا والتاريخ، وعلم السياسة بل وبعض العلوم (الطبيعية). وهذا الاتجاه فى التدريس يساعد من ناحية على التعريف بالتراث ويضفى على بعض فروع التخصص الجافة الجانب الإنسانى الذى أشرنا إليه من قبل، كما أنه يساعد على التحرر من السير وراء المناهج الأجنبية التى تطبق فى الجامعات فى الخارج وترد نشأة كل فروع العلم والمعرفة إلي الفكر الغربى وإلى أصول غربية خالصة لذلك يجب اعتبار ما يلى.

١ ـ مواجهة التحديات الثقافية (الداخلية) كما تتمثل فى اللغة العربية، والتراث اللذين أشرنا إليهما فى الفقرة السابقة ـ تؤدى إلى توطيد وتقوية وترسيخ مصادر هذه التحديات ذاتها من ناحية مثلما تؤدى فى الوقت ذاته إلى تقوية وتعزيز دور الجامعة فى المجالات الثقافية التى تتعدى حدود التعليم الأكاديمى المتخصص الدقيق، وذلك على العكس تماماً من التحديات الثقافية الخارجية، أو الوافدة من الخارج والتى تشكل تهديداً حقيقياً للثقافة القومية، وقول آخر فإن العلاقة بين التحديات الثقافية والداخلية والثقافة القومية ككل والتعليم الجامعى هى علاقة تكافل وتكامل لأنها كلها تنتمى فى آخر الأمر إلى نسق ثقافى واجتماعى واحد، وذلك بعكس الحال بالنسبة للعلاقات بين التحديات الثقافية الخارجية والثقافية القومية، إذ يسيطر على هذه العلاقات الإحساس بالتوتر والتخوف والتحفز للصراع والدفاع عن مقومات الثقافة القومية (وخصوصيتها)، أو هويتها الخاصة المميزة»(٨)

٢ ـ وواضح أن هذه التأثيرات الثقافية الوافدة التى تشكل تحديا للثقافة القومية هى حصيلة تفاعل ظروف تاريخية وأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية وخبرات وتجارب طويلة تختلف فى طبيعتها كل الاختلاف عن الظروف والأوضاع التى أفرزت الثقافة العربية الإسلامية، وأنها على هذا الأساس تعبر عن أنساق معرفية ومواقف عقلية ومنهجية ونظرة إلى الحياة وإلى الكون تختلف أيضاً كل الاختلاف عن تلك الأنساق والمواقف والرؤى التى تسود فى الثقافة القومية وفى المجتمع العربى.

ولذا فإن هذه التأثيرات الثقافية الوافدة تمثل تحدياً من نوع خاص يهدد بشكل مباشر الثقافة القومية ككل، ومن هنا كان لابد من أن تلجأ الجامعات فى مواجهتها لهذا التحدى الثقافي الشامل إلى أساليب وطرق تختلف تماماً، كما سنرى عن تلك التى تتبعها فى مقابلة التحديات التى تفرضها بعض مقومات الثقافة القومية ذاتها كالتراث.

٣ ـ وتستند هذه التأثيرات الثقافية الأجنبية إلى نظام إعلامى متطور وعلى درجة عالية من الكفاءة والتعقيد والفاعلية وقوة التأثير. ويعتمد هذا النظام الإعلامى على قوة الكلمة المنطوقة المسموعة (الإذاعة)، والكلمة المجسدة المرئية (التليفزيون)، وكذلك على الكلمة المكتوبة المقروءة (الصحافة)، وبذلك يستطيع أن يصل بسهولة ويسر إلى كل شرائح المجتمع، وأن يعرض أكثر الموضوعات تعقيداً فى سهولة ويسر وبطريقة جذابة ومشوقة كما هو الحال بالنسبة للتليفزيون بالذات، وأن يتسلل بذلك إلى عقول الناس وينقل إليهم أخطر الآراء والأيديولوجيات فى كثير من الحذر والرفق وعلى غير وعى منهم أو إدراك لحقيقة ما يعرض عليهم وما يتلقونه من خلال هذه الوسائل التى تترك لهم فرصة كافية للتأمل والتفكير والحكم. والتليفزيون هو أخطر هذه الوسائل جميعاً فى الوقت الحالى بحيث أنه أصبح يؤلف فى ذاته (ثقافة) قائمة بذاتها، بمعنى أنه ليس مجرد أداة أو وسيلة لنقل الثقافة أو توصيلها فحسب ولكن نفس (وجود) التليفزيون أدى إلى قيام شكل معين بالذات من الثقافة هى التى يسميها البعض الثقافة التليفزيونية أو الثقافة المرئية أو الثقافة عن طريق الصورة والصوت والحركة، وأنه لولا وجود التليفزيون لما كان ذلك الشكل المعين من أشكال الثقافة «وهذه حقيقة انتبه إليها عالم الاجتماع الكندى» مارشال ماكلوهان، وعبر عنها فى عبارة شهيرة تقول «الوسائل هى الرسائل»، وقد استخدم هذه العبارة عنواناً لكتاب نشره عام ١٩٦٧ مع «كونتين فيورى»(٩).

وليس ثمة بطبيعة الحال ما يمنع من اتصال الثقافات بعضها ببعض ومن وجود تأثيرات واستعارات متبادلة بين الثقافات المختلفة، فكما أن الثقافة لا توجد أبداً من فراغ، وإنما هى ترتبط دائماً بكل النظم والأنساق الاجتماعية السائدة فى المجتمع، فإنها أعنى الثقافة لا توجد أبداً فى عزلة تامة عن غيرها من الثقافات، بل هى على العكس من ذلك تماماً تقيم علاقات وصلات قوية ومستمرة مع ثقافات المجتمعات والشعوب الأخرى المجاورة، ويستوى فى ذلك ثقافات أشد الشعوب تأخراً وتخلفاً وأكثر المجتمعات تقدماً ورقياً. وهذا الاحتكاك بين الثقافات وما يترتب عليه من استعارات متبادلة هو مصدر غنى وثراء لكل ثقافة منها على حدة وعامل أساسى فى تعميقها وتوسيع آفاقها مادامت هذه الاتصالات، أو الاحتكاكات تتم بطريقة طبيعية ولا تخفى وراءها أهدافاً (امبيريالية) حسب التعبير المستخدم الآن، أو ترمى إلى تقويض دعائم تلك الثقافة والقضاء عليها. ولقد أدى تقدم وسائل الإعلام وأساليب الاتصال والتواصل إلى زيادة وتكثيف هذا الاتصال بين الثقافات، ولكنه يتم فى الأغلب من جانب، واحد هو جانب الثقافة القوية

المسيطرة (أيا ما يكون معنى هذه الكلمة). التى تملك من الإمكانات المادية والبشرية والمهارات اللازمة للخلق والإبداع والابتكار مما يساعد على الانتاج الثقافى الأصيل وعلى نشر ثقافتها الخاصة و(غزو) الثقافات الأخرى. «ومن هنا ظهرت تعبيرات جديدة لم يكن لها وجورد من قبل مثل الغزو الثقافى والامبريالية الثقافية بكل ما تعبر عنه من تخوف وشكوك من العالم الخارجي وثقافاته وبكل ما ترتب على ذلك أيضاً من دعوات للانطواء الثقافى على الذات بحجة أن التيارات والمذاهب الفكرية الأجنبية تحمل بين ثناياها فى الأغلب بنور السيطرة الثقافية الأجنبية وأنها بذلك نوع من الغزو الذى يتخذ الثقافة رداء يتخفى وراءه»(١٠).

ومن الطريف أن فكرة الغزو الثقافى ومصطلح الامبيريالية الثقافية يتعديان مجال العلاقات بين الثقافات «الراقية» المتقدمة والثقافات «المتخلفة»، أو «الأقل رقياً» وتقدماً ولم يعودا يرتبطان فقط بالأوضاع الاقافية فى مجتمعات العالم الثالث التى تخضع للتأثيرات الثقافية الوافدة من الخارج وبخاصة من الغرب والتى تعمل على تغيير الملامح الأساسية لثقافات تلك الشعوب والمجتمعات، وإنما أصبحا يستخدمان حيثما كانت هناك شبهة خضوع احدى الثقافات لتأثير ثقافة أخرى غربية تحاول طمس معالمها والقضاء على مقوماتها حتى ولو كانت هاتان الثقافتان تنتميان إلى مجتمع قومى واحد. «ففى مقال ظهر فى عدد ١١ ديسمبر عام ١٩٨٧ بالملحق التعليمى لجريدة التايمز تحت عنوان «الإمبريالية الثقافية» يشكو اثنان من الأساتذة من أن مقرر التاريخ بالمدارس الثانوية الذى يفترض تدريسه من مدخل متعدد الثقافات يتناول الموضوع فى الواقع من زاوية (إنجليزية) بحتة بدلاً من أن يكون المدخل (بريطانيا)، وذلك على اعتبار أن الثقافة البريطانية تضم عدداً من الثقافات الفرعية هى ثقافات إنجلترا واسكتلندة وويلز وإيرلندة ويصفان تدريس ذلك المقرر من الزاوية الإنجليزية بأنه نوع من (الإمبريالية الثقافية)، ومظهر من مظاهر الرغبة في فرض السيطرة الثقافية التى من شأنها فى آخر الأمر هدم التراث الثقافى لتلك الشعوب، وهو تراث غزير يتمثل فى التاريخ واللغة والعادات، والتقاليد ، وأسلوب الحياة، وأن نظام التعليم نفسه يعمل على إدخال قيم (غربية) إلى تلك المجتمعات من خلال الكنيسة (الانجليكانية)، واللغة (الإنجليزية). التى تعتبر لغة دخيلة بالنسبة لأهلى اسكتلندة وويلز وإيرلندة»(١١).

وكذلك من الطريف أن نلاحظ أنه فى مؤتمر السياسات الثقافية الذى عقد فى المكسيك تحت لواء اليونسكو فى أوائل الثمانينات ندد وزير الثقافة الفرنسى أى وزير ثقافة فى دولة أوروبية لها تاريخ طويل فى مجال الثقافة، بسيطرة وسائل الإعلام

وأساليب الاتصال الأمريكية وهيمنتها على التوجه الثقافى في العالم بفضل إنتاجها الغزيرللمواد الإعلامية والترفيهية فى السينما والتليفزيون مما يهدد الثقافات المحلية والوطنية، والقومية فى كثير من دول العالم.

وقد أصبح الاعتماد على مختلف وسائل الإعلام وأساليب الاتصال امراً مسلماً به سواء كوسيلة للترفيه والتسلية أو كوسيلة للتثقيف على مستوى معين على الأقل. وهذا اتجاه عام في العالم كله. وتقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال يقول «إنه يمكن استخلاص نتيجتين من التطور المستمر والمطرد لوسائل الاتصال، أولهما أن هذه التغيرات تمثل اتجاها لا رجعة فيه، والثانية أن العلاقة بين مختلف الوسائل الإعلامية هى أساساً علاقة تكافل وليس علاقة تنافس .

فالدول التى تختار التركيز على أسلوب فنى واحد ينبغى ألا تفعل ذلك بما يؤدى إلى القضاء على الأخر أو إهماله»(١٢). وقد تكون السيطرة الآن رغم ذلك للتليفزيون ولكن جاءت أجهزة التسجيل بالفيديو لتنافسه فى قوة التأثير، خاصة وأن الفيديو يتميز على التليفزيون بميزة هامة وهى حرية الاختيار والانتقاء، وهذا عنصر هام فى الثقافة والتعليم .

ولكن المشكلة التى تواجه مختلف الشعوب والمجتمعات الآن هى أن هذا التقدم والانتشار سوف يؤدى إلى ضياع الهوية الثقافية القومية كما سبق أن ذكرنا، وثمة شعور سائد الآن فى العالم بأن هذا العصر هو عصر الثقافة الأمريكية بكل ما ينطوى عليه هذا الشعور من تخوف من (أمركة الثقافة) فى العالم وتراجع الثقافات المحلية والقومية إزاء ذلك، وهو ما سبق أن أشرنا إليه وعبر عنه بجلاء وزير الثقافة الفرنسى. «بل أن هذا الشعور دفع بعض الدول المتقدمة ذاتها إلى وضع قيود شديدة على انتشار الأفلام السينمائية والتليفزيونية الأمريكية لحماية إنتاجها الثقافى من هذا (الغزو). وقد نشرت جريدة لموند الفرنسية فى سبتمبر عام ١٩٨١ نداء باسم (لجنة الهوية الوطنية) تشير فيه إلى تغلغل الإنتاج الثقافى الأمريكى ممثلاً فى افلام السينما وخطورة ذلك على ملامح الثقافة القومية الفرنسية»(١٣) .

وقد كان لابد من هذا الاستطراد الطويل لتبيين أن المشكلة ليست مقصورة على العالم العربى، أو دول العالم الثالث، إنما هى مشكلة عالمية تواجهها الدول الغنية ثقافياً مثل فرنسا وبريطانيا بل واليابان أيضا. وفى كل هذه الحالات والأمثلة كانت الشخصية الثقافية القومية هى التى تتصدى لمواجهة الغزو الثقافى .

ثالثاً : تطويع التحديات :

ولكن ما موقف الجامعة من هذه المشكلات وما دورها فى مواجهة هذه التحديات من أجل الحفاظ على الهوية الثقافية القومية من ناحية وأداء وظيفتها (التعليمية) بالمعنى الذى نستخدم به هنا هذه الكلمة ؟ وكيف يمكن للجامعة باعتبارها مؤسسة تعليمية وثقافية معا أن توفق بين هذه التيارات والاتجاهات المختلفة، وأن تطوع هذا (الغزو) الثقافى لإثراء الثقافة العربية الإسلامية وتعميق الفكر العربى بحيث تمتزج المقومات الاساسية للثقافة القومية ومتطلبات الحياة الفكرية والثقافية المعاصرة التى تمثل فى نظر بعض الكتاب والمفكرين على الأقل تحدياً بل وتهديداً لهذه المقومات ؟.

ولقد سبق أن ذكرنا أن هناك من يرون أنه إلى جانب التعليم الجامعى الذى يقوم على التخصص الدقيق فإنه يتعين على الجامعة أن تعنى بتزويد طلابها باساليب ووسائل ووسائط تساعد على النظر فى المشكلات المتعلقة بكل التجربة الإنسانية ودراستها وتحليلها وفهمها واستيعابها بقدر الإمكان، «وأن هذا يتطلب المزج إلى حد التفاعل بين الدراسات العقلية والدراسات العملية التى تؤهل صاحبها للقيام بأنشطة وأعمال، أو مهن محددة مسبقة، أى الجمع بين المعرفة النظرية والإعداد للحياة العملية مع إدراك الجوانب والأبعاد الإنسانية التى تكمن وراء الدراسات والتخصصات العملية ودور هذه التخصصات فى تقدم وتطوير الحضارة والمجتمع الإنسانى والارتقاء (بإنسانية) الإنسان»(١٤)، وأنه لابد للجامعة بحكم التعريف أن تتابع كل التيارات الفكرية والاتجاهات والمذاهب الأيديولوجية والاكتشافات والإنجازات العلمية حتى تستطيع أن تؤدى وظيفتها (التعليمية) على الوجه الأكمل حتى وإن لم تتقبل كل هذه التيارات والاتجاهات والمذاهب، أو توافق عليها، وأنه إذا كان يتعين عليها أن تأخذ طيلة الوقت فى الاعتبار مقومات الثقافة القومية ومتطلباتها فإنه يتعين عليها فى الوقت ذاته الاعتراف بعالمية الثقافة مما يقتضى العمل على ربط هذه الثقافة القومية ذات الأصول العربية الإسلامية بالثقافة العالمية حتى لا تنعزل عما يجرى حولها من أحداث وتحرم نفسها من الاستفادة من بعض إنجازات الثقافات الأجنبية من ناحية، وحتى لا يصبح التعليم الجامعى نفسه مجرد مرحلة تالية للتعليم الثانوى ومكملة له. ولكن مهما يكن الأمر من مشروعية البحث في العلاقة بين التعليم الجامعى والثقافة بوجه عام، ومهمة الجامعة فى التعريف بالثقافات المختلفة واتجاهاتها والأسس التى تقوم عليها وانجازاتها بوجه خاص فإن التعليم لابد أن يكون (انتقائيا) فى أخر الأمر فى نظرته إلى الثقافة، وفى محاولته الربط بين الوظيفتين التعليمية (بالمعنى

الدقيق المحدد لكلمة التعليم)، والثقافة (بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة).

أ ـ وهناك عدد من المبادىء الأساسية التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار حين نعرض لدور الجامعة فى مواجهة التحديات الثقافية الخارجية، وهى مبادىء متكاملة وتؤلف كلها وحدة منطقية متماسكة :

المبدأ الأول:

هو أنه من حق الثقافة القومية أن تتمسك بمقوماتها والأسس التى تقوم عليها، وأن تحافظ على خصائصها الذاتية المميزة إزاء الثقافات والمؤثرات الفكرية الأجنبية، وأنه من حق «الفكر الأصيل» الذى يسود فى المجتمع أن يدافع عن كيانه وعن وجوده وعن هويته عن طريق التصدى بالدراسة والتحليل والنقد والتفنيد للتيارات والاتجاهات الفكرية الوافدة، وأن يبرز ما قد يكون بها من نقص أو خطأ فى زيف .

المبدأ الثانى :

وهو مكمل للمبدأ الأول وهو أنه من حق التفكير الجديد، ما دام التفكير جاداً وعميقاً على أسس منطقية خاصة به، أن يجد الفرصة أمامه كاملة للتعبير عن نفسه والإبانة عن موقفه من الأشياء دون أن تفرض عليه القيود أو يحجر عليه قبل مناقشته ودراسته دراسة جادة وعميقة تتوخى التوصل إلى تعرف ما قد يكون فيه من وجه الحق والصواب، أو جوانب النقص والزيف .

المبدأ الثالث:

وهو يلخص المبدأين السابقين، وهو ضمان حرية الرأى وحرية التعبير عن الفكر بطريقة موضوعية مع احترام الرأى الآخر، ومع إدراك أن وضع العوائق أمام الآراء والأفكار الجديدة الوافدة بقصد الحد من انتشارها كثيراً ما يؤدى إلى عكس النتائج المتوقعة أو المرجوة. «فالفكر المصادر يجد فى العادة طريقه إلى الناس بشكل أو بآخر، بأنه كثيراً ما يصل إليهم فى صورة مشوهة أو زائفة أو منقوصة مما يزيد من الضرر والأذى»(١٥).

ب ـ فكأن المبدأ إذن هو حرية الفكر وحرية التعبير عنه وحرية التبادل الثقافى وحرية مناقشة الاتجاهات والتيارات الثقافية المختلفة والمتصارعة. وحرية الاختيار والانتقاء بعد ذلك من بين تلك الاتجاهات والمذاهب والتيارات. بل إن الاختيار أو الانتقاء هو أحد خصائص وأبعاد هذه الحرية الثقافية. والإنسان الحر هو الذى يكون له حق الاختيار والانتقاء من بين مختلف البدائل والإمكانات، ويمارس هذا الحق بالفعل . ومثل هذا الاختيار يخضع بالضرورة أو هو يتم على الأصح فى ضوء معايير ومحكات معينة وضمن إطار سياسة واضحة ومحددة وإن لم تكن متزمته أو ضيقة الأفق.

وهذا قد يثير التساؤل عن ضرورة تقديم الجامعة بعض المقررات الأساسية الإلزامية التى يجب أن يتلقاها كل طلاب الجامعة بصرف النظر عن تخصصاتهم وفى بداية التحاقهم بالجامعة حول الثقافة الإسلامية ومقوماتها الأساسية وإنجازات العقل العربى فى مختلف ميادين المعرفة باعتبار الثقافة الإسلامية أسلوباً للحياة والسلوك والتفكير والنظرة إلى الحياة وإلى العالم وتمثل موقفا معينا ومحدداً من الأشياء، وباعتبار إسهامات العقل العربى فى مختلف ميادين المعرفة ومجالاتها هى أيضاً حصيلة نظرة الإنسان العربى للعالم والمبادىء المنهجية التى كانت تحكم الموقف العقلى من أحداث العالم ونظم المجتمع وعلاقات الناس بعضهم ببعض وظواهر الكون أى أنه إلى جانب اهتمام مثل هذه المقررات بتزويد الطلاب بقدر معقول من المعلومات والمعارف الأساسية عن عناصر الثقافة الإسلامية ومقوماتها ومكوناتها فإنها تعنى عناية خاصة بتعرف كيف يعمل العقل العربى فى نظرته للأشياء .

ولن يتعارض ذلك فى آخر الأمر مع مبدأ الحرية الأكاديمية التى يجب أن ينظر إليها دائماً على أنها أحد الحقوق المشروعة بل الأساسية لقيام الجامعة بأداء وظيفتها (التعليمية)، وعلى أنها مبدأ هام يضمن حماية الجامعة من أية تيارات أو اتجاهات، أو حتى سياسات مرسومة تهدف إلى تقييد حق الجامعة فى أداء التزامها الأساسى نحو البحث عن الحقيقة والكشف عنها ونشرها وتعليمها. ولكن على الرغم من كثرة ما يقال عن ضرورة توفير الحرية الأكاديمية للجامعة والجامعيين والتمسك بها فكثيرا ما تعرضت هذه (الحرية) للقيود والعوائق حتى فى أكثر المجتمعات حديثاً عن الحريات و(تمسكا) بها.

فمنذ أواخر القرن الماضى وحتى الخمسينات تقريباً من هذا القرن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تضع قيوداً على تدريس كتابات عالم الأنثربولوجيا الأمريكى «لويس مورجان» وبخاصة كتابه «المجتمع القديم» الذى يتتبع فيه المراحل التى كان يتصور أن المجتمع الإنسانى مر بها منذ نشأته الأولى حتى العصر الحديث ابتداء من مرحلة الجمع والالتقاط إلى الصيد والقنص إلى الرعى فالزراعة فالصناعة، كان الرأى السائد طيلة هذه الفترة أن ذلك الكتاب كان هو الشرارة الأولى التى انطلقت منها الماركسية، ومن هنا كان حظر تدريسه لأسباب سياسية تتعلق بالنظام السياسى الذى تسير عليه الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن نظرية التطور التى قال بها «داروين» فى القرن الماضى أيضاً كانت ولا تزال تلقى كثيراً من المعارضة من بعض الجامعات المتدينة فى أمريكا، وقد بدأت حركة المعارضة المنظمة لتدريس تلك النظرية فى المدارس والجامعات منذ عام ١٩٢٥ فى

بعض الولايات والمطالبة بتدريس نظرية الخلق كما وردت فى الكتب المقدسة بدلاً منها، ووصل الأمر إلى عرض الخلاف على القضاء أكثر من مرة كان آخرها على ما أذكر عام ١٩٨٢، بل إن أكاديمية أفلاطون التى كانت ولا تزال فى نظر معظم مؤرخى الفكر تعتبر مثلا من المثل العليا للحرية الأكاديمية، والبحث عن الحقيقة وتعليم الحكمة كانت تتعرض لكثير من الهجوم الذى وصل إلى حد الحكم على سقراط أستاذ أفلاطون بالموت عن طريق تناول السم، كما تعرض أفلاطون نفسه وبعض تلاميذه للمطاردة فى كثير من الأحيان.

والأمثلة كثيرة جداً من كل المجتمعات ومن كل العصور، «ولكن يبقى المبدأ قائماً رغم ذلك وهو ضرورة الاعتراف بالحرية الأكاديمية وتوفيرها. وكما سبق أن ذكرنا فإن الحرية الأكاديمية هى نوع خاص، أو شكل خاص متميز من حرية التفكير وحق التعبير عن الرأى لأنها تتعلق بالبحث عن الحقيقة والكشف عنها وحرية النشر وحرية (تعليم) الحقيقة كما يراها الأكاديميون المتخصصون كل فى مجال تخصصه دون التعرض لأية ضغوط أو الخضوع إلى سلطان غير سلطان العقل والأساليب والوسائل والمناهج العقلانية التى تؤدى ليس فقط إلى الكشف عن هذه الحقيقة ومعرفتها بل وأيضاً إلى إرساء قواعدها على أسس صلبة وقوية وراسخة»(١٦).

ومع ذلك فإن هذه الحرية الأكاديمية يجب أن تمارس ضمن إطار معين حتى لا يساء استخدامها وتخرج عن قواعد ومبادىء الموضوعية التى يجب مراعاتها فى التعليم الجامعي الأكاديمى. وثمة فارق كبير بين تدريس المذاهب والاتجاهات السياسية والايديولوجيات المختلفة بأسلوب علمى موضوعى يتوخى التعرف بالأسس والمبادىء التى تقوم عليها هذه المذاهب والاتجاهات والايديولوجيات وتاريخها وأصولها وتطورها مثلا وبين الدعاية لأحد هذه الاتجاهات أو المذاهب أو الأيديولوجيات وتزيينها للطلاب وإغرائهم باعتناقها، أو فرضها بالقوة بما يتعارض مع النظام السياسى القائم فى المجتمع. «أى أنه ليس من حق الجامعة، أو الجامعيين الاحتماء بحق الحرية الأكاديمية فى نشر المذاهب السياسية أو الدينية التى يعتنقونها والدعاية لها لما فى ذلك من خروج على التقاليد الجامعية فى الدراسة والبحث والتدريس، وهى تقاليد تقوم علي مبدأ الموضوعية الفكرية. وحتى حين يتعرض الأكاديميون في كتاباتهم على تدريسهم للنظام السياسى القائم فى المجتمع فإن ذلك لن يكون بقصد الإثارة أو التحريض على تغييره، لأن فى ذلك خروجاً على رسالة الجامعة ووظيفتها وليس فقط إساءة استعمال (الحرية الأكاديمية)»(١٧) .

جـ - وليس ثمة ما يبرر أبداً الاقتصار على الاتصال بثقافات الغرب، أو الأخذ منها

دون غيرها من الثقافات العالمية الأخرى التى يمكن أن تثرى الواقع الثقافى المعاصر وتفتح أمامه مجالات من الفكره والإبداع وتكشف له عن أنماط من الحياة والقيم والعلاقات ورؤى العالم لا تتوفر فى الثقافات الغربية التى طال اتصال المجتمع العربى بها والتأثر بها والخضوع لتياراتها واتجاهاتها الفكرية والأدبية والفنية لدرجة تدفع الكثيرين الآن إلى الظن بأن المجتمع العربى والثقافة العربية المعاصرة وقعا بالفعل فريسة الامبريالية الثقافية الغربية.

فهناك شعوب الشرق الأقصى القديم والحديث بكل آدابها وفنونها وفلسفتها وحكمتها البالغة ونظراتها الثاقبة العميقة إلى الحياة التى سجلتها في مجموعة كبيرة جداً من الكتابات التى ترجم معظمها إلي اللغات العالمية وظهر عدد كبير منها في سلسلة شهيرة باللغة الإنجليزية تحت عنوان (كتب الشر المقدسة)، ولا نكاد نحن نعرف عنها شيئاً مع أنها منبع عميق للحكمة والمعرفة والإبداع وفهم الطبيعة الإنسانية...

وهناك الثقافات الأفريقية الكبرى الخصبة وكان لبعضها علاقات قديمة بالثقافة العربية كما أن بعضها تاثر تأثراً واضحاً بالإسلام والثقافة الإسلامية وامتزجت بذلك فيها عناصر ثقافة إفريقية تقليدية بعناصر عربية إسلامية فضلاً عن بعض العناصر الأخرى الأجنبية ليخرج منها كلها نتاج ثقافى عميق له إبداعاته في مجالات كثيرة متنوعة تستحق الإحاطة بها.

ثم هناك أيضاً ثقافات أمريكا الجنوبية التى تمتزج فيها عناصر ثقافية وحضارية قديمة وعريقة يرجع بعضها إلى آلاف السنين بعناصر عربية حملها الغزاة المستوطنون من الأسبان وغيرهم، وانعكست كل هذه العناصر فى الإبداع الأدبى والفنى المعاصر فى أمريكا اللاتينية بخصائصه ومقوماته المتميزة. وهذه كلها ثقافات لا نكاد نعرف عنها سوى القليل جداً.

ولكن الاهتمام بها يحتاج بغير شك إلى تغيير جذرى فى النظرة إلى أسلوب وفلسفة وسياسة التعليم وبخاصة التعليم الجامعى، وكذلك تغيير النظرة إلى العالم وعلاقة المجتمع العربى، والثقافة العربية، كما يتطلب إدخال تعديلات فى مناهج بعض الكليات والمقررات الدراسية مثل الأدب المقارن الذى يهتم بآداب أمريكا الجنوبية والآداب الأفريقية واداب الشرق الأقصى، أو الفكر الفلسفى الذى يمكنه أن يقدم للطلاب فلسفات الشرق الأقصى بدلاً من أن يبدأ بالفلسفة اليونانية، ومثل بعض مقررات ودروس الأنثربولوجيا التى يجب أن تعنى بالثقافات الإفريقية وبعض ثقافات الشرق الأقصى وبعض الثقافات التقليدية فى أمريكا الجنوبية وما طرأ عليها من تغير، وهكذا.

وهذا معناه أن الجامعة عن طريق فتح

مجالات وميادين جديدة للاتصال الثقافى من خلال المقررات الدراسية فى بعض الكليات على الأقل يمكنها أن تسهم فى كسر احتكار الثقافة الغربية للعقل العربى المعاصر وهدم أسطورة الغزو الثقافى الغربى والتحرر من الإمبريالية الثقافية الغربية، وذلك على افتراض قبولنا لهذه المصطلحات والمفاهيم .

د ـ «وتنتمى المؤثرات الثقافية الوافدة من الخارج إلى أنماط فكرية معينة تتعلق بنوع الحياة والعلاقات والنظرة إلى العالم السائدة فى المجتمعات الغربية والمميزة لثقافات الغرب، وهى فى أساسها وجوهرها ثقافات علمية تعطى التجريب أهمية بالغة تكاد تصل إلى حد الأولوية المطلقة ولا تكاد تعترف بوجود حقائق مسلم بها، وإنما هى تجمع المشاهدات أو الملاحظات وتقيم عليها التجارب ثم تستخرج منها المعرفة الصحيحة الدقيقة»(١٨). «فالطابع الغالب على ثقافات الغرب هو الطابع العلمى التجريبى، ولا يقتصر ذلك على العلوم الطبيعية وحدها إنما هو يمتد إلى العلوم الاجتماعية مثل علم النفس وعلم الاجتماع. فهى إذن ثقافة يتحكم فيها المنطق والرياضة وقوانين العلوم بل وأيضا قواعد اللغة المفهومة ذات الدلالة المحددة الدقيقة»(١٩). وهو ما يعكس حتى فى الفلسفات الأربع الكبرى المعاصرة رغم ما قد يبدو بينها من اختلاف وتعارض فى النظرة إلى الأشياء، وهى فلسفة التحليل فى إنجلترا، وفلسفة البرجماتية فى أمريكا، والفلسفة الوجودية فى غربى أوروبا، ثم فلسفة المادية العربية، والذى يشكل تحدياً واضحاً للثقافة الغربية المعاصرة وأيضا هو (النظرة الإنسانية التى تجعل من الإنسان مبدأ وغاية، وتجعل هذه الحياة هى الأولى والأخيرة)» (٢٠) .

وواضح أن هذه النظرة لا تتفق تماماً مع النظرة الثقافية العربية الإسلامية التى تجعل من هذه الحياة مرحلة أولى لها ما بعدها بكل ما يترتب على ذلك من مواقف اجتماعية وأخلاقية ودينية وما يتصل بها من علاقات ومعاملات وأسلوب وقيم تختلف اختلافا كبيراً عما هو قائم فى الغرب.

وليست المسألة هنا مسألة رفض هذه المواقف والتيارات والرؤى أو قبولها، أو الاكتفاء بتزويدها أو تدريسها فى الجامعات كمجموعة من المعارف دون الانفعال بها كما يحدث فى الأغلب حين نكتفى بالنظر فى القضايا أو التخصصات النظرية أو العلمية، أو السياسية، أو الأدبية والفنية المختلفة، ونقنع بعرضها دون محاولة جدية لنعرف الظروف والأوضاع الاجتماعية والسياسية العامة التى سادت المجتمعات التى أفرزت هذه القضايا، وتلك التخصصات. فالنظرة العلمية التجريبية التى تسيطر على كثير من مظاهر الثقافة الغربية هى وليدة ظروف وتطورات معينة، وهذا هو ما يجعل معظم كتاب ومفكرى العرب يعتقدون أن العلم هو

(ابتكار) غربى أو أوروبى، وأن أصول «العلم الكلاسيكى» ترجع إلى الفلسفة والعلوم الإغريقية بشكل مباشر، وأن هذا «العلم الكلاسيكى» سواء فى إطاره المعاصر أو فى سياقه التاريخى، يبدو فى النهاية وكأنه عمل مقصور على الإنسان الأوروبى دون سواه، بل وكأنه بالضرورة هو الوسيلة التى يتسنى بها تعريف هذا الفرع من بنى البشر....

وقد يحصل بالفعل اعتراف بوجود علوم عملية معينة لدى حضارات أخرى، إلا أن هذه العلوم تظل خارج التاريخ أو لا تدخله إلا بقدر مساهمتها فى العلوم التى هى أوروبية فى الأصل ... وما الصورة المرسومة للعلم العربى إلا مثل بليغ عن هذا المنهج»(٢١).

ويتخذ هذا (الغزو الثقافى) إذا نحن قبلنا استخدام هذه العبارة أشكالا أخرى لا تقل عن ذلك خطورة وتتكامل فى الوقت نفسه مع التأثيرات الثقافية الوافدة عن طريق وسائل الإعلام. «ومن أخطر هذه الأساليب (تفريغ) العالم العربى من كفاءته العلمية والإبداعية عن طريق تشجيع هجرة العلماء والمبدعين إلى دول الغرب وبخاصة أمريكا، وكذلك (تفريغ) الثقافة العربية ذاتها من مضامينها وإنجازاتها أو على الأقل التشكيك فى قيمة هذه المضامين والإنجازات، أو التهوين من شأن المفكرين والمبدعين والمثقفين العرب، واعتبار البارزين منهم حالات استثنائية شاذة، أو ردهم إلى أصول غير عربية وغير إسلامية. وذلك فضلا عما تلجأ إليه بعض الهيئات والمؤسسات الأجنبية من سرقة منجزات الحضارة فى مختلف مراحل تاريخ العالم العربى كما هو الحال مثلاً فى تهريب الآثار وما إليها من نفائس وكنوز»(٢٣) .

وهذه كلها أمور يجب أن تؤخذ فى الحسبان فى أى محاولة لنعرف أساليب ووسائل مواجهة هذه الأخطار والتصدى للتحديات الثقافية المعاصرة التي تتمثل ليس فى قوة وفاعلية تأثير هذه التحديات، وإنما أيضاً فى الهجوم على مقومات الثقافة العربية القومية والتهوين من اشأنها والتشكيك فيها.

وقد رأينا أن الجامعة تستطيع أن تقوم بدور فعال فى مواجهة هذه التحديات الثقافية على الرغم من الصعوبات التى قد تحد من قدرة الجامعة فى هذا المجال، وهى صعوبات ناشئة من نفس الظروف والأوضاع التى تحيط بالجامعة، وإن كانت فى الوقت ذاته صعوبات يسهل تذليلها والتغلب عليها وبخاصة إذا اعتبرت الجامعة التصدى لهذه التحديات جزءاً مكملاً لرسالتها التعليمية :

١ ـ ولقد سبق وأن أشرنا إلى أن التعليم الجامعى يعتبر مطلباً أساسياً فى كل أنحاء العالم كما يظهر من شدة الإقبال على الالتحاق بالجامعات ومن اهتمام الدولة

بإنشاء جامعات جديدة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الطلاب بحيث قد نجد أكثر من جامعة واحدة فى المدينة الواحدة. وكثيرا ما يؤدي ازدياد العدد إلى انخفاض مستوى التعليم الجامعى ومستوى الخريجين، وإن كان ذلك يتفاوت بطبيعة الحال من جامعة لأخرى، كما قد تتدخل فى ذلك بعض عوامل أخرى غير ازدياد عدد الطلاب ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الدخول هنا فى تفاصيلها...

ولقد فرضت هذه الزيادة في اعداد الطلاب على معظم الجامعات الالتجاء إلى أسلوب المحاضرة والتلقين بدلا من الاعتماد على الحوار والنقاش فى حلقات دراسية تضم أعداداً محدودة من الطلاب أو تشجيع القراءة الحرة والاطلاع مما يفتح أمام الطلاب أبواباً جديدة للمعرفة ويتيح لهم فرصة تنمية قدراتهم الخاصة على البحث والكشف والارتياد.

وقد يكون هذا الأسلوب التقليدى هو أنسب طريقة للتدريس للأعداد الكبيرة ولكنه لا يساعد على الكشف عن المواهب أو صقل القدرات الإبداعية، أو فتح مجالات الثقافة المتنوعة أمام الطلاب، وغاية ما يحققه هو الوصول بهم إلى مستوى معين من التعليم ومعرفة قدر معين من المعلومات تحدده الدروس التى يتلقاها الطالب والكتاب الجامعى المقرر» أو «المذكرات» التى يعدها له الأساتذة مما يقف حائلاً دون تحول التعليم الجامعى إلى ثقافة يسهم الطالب نفسه فى اكتسابها بجهوده الخاصة وحسب قدراته الشخصية ويتمثلها بحيث تصبح جزءاً من تكوينه العقلى، دون أن يؤثر ذلك بحال فى إعداده العلمى في مجال تخصصه.

٢ ـ ومحاولات التوفيق بين التخصص الدقيق والثقافة الواسعة العريضة المتنوعة، أو الجمع بينهما داخل نطاق الجامعة وفى إطار التعليم الجامعى من شأنها أن ترتفع بالتعليم الجامعى عن أن يكون مجرد مرحلة تالية ومكملة للتعليم الثانوى أو امتداد له، وذلك على اعتبار أن الهدف من التعليم الجامعى هو تكوين المواطن المتعلم المتخصص المثقف الواعى والمدرك لمشكلات العلم والحياة والمجتمع والثقافة العالمية مع العمل فى الوقت ذاته على تأكيد الهوية الاجتماعية والذاتية الثقافية والحفاظ عليها.

وقد يكون من السهل تحقيق الوظيفة التعليمية عن طريق الدروس والمحاضرات وحلقات البحث وإجراء البحوث والإعداد العلمى للخروج إلى الحياة العامة وممارسة عمل معين أو مهنة معينة تتفق، أو لا تتفق من قريب، أو بعيد مع فرع التخصص. ولكن تحقيق الوظيفة الثقافية إن صح التعبير أمر مختلف.

فليس من الضرورى أن ينحصر دور الجامعة فى مواجهة التحديات الثقافية فى

التصدى لهذه التحديات عن طريق اتخاذ موقف عدائى، أو دفاعى منها يقوم على النقد والتفنيد والرفض. إنما قد تتخذ (المواجهة) شكل الدراسة والفهم والتحليل ثم التحصيل والاستيعاب مادامت الأفكار والآراء والاتجاهات والتيارات والدعاوى الثقافية الأجنبية الوافدة لا تتعارض مع العقل، ولا مع القيم الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والدينية السائدة في المجتمع.

ولكن هذا كله يفترض أن الجامعة تتيح الفرصة لطلابها للاطلاع على هذه التيارات والاتجاهات والدعاوى وتعرفها ومناقشتها، وهو أمر قد لا يتحقق فى كثير من الأحيان، حيث يقف دونه أحياناً أسلوب التلقين والمذكرات كما ذكرنا، وتواضع قدرات الطلاب أنفسهم بوجه عام فى معرفة اللغات الأجنبية وفهمها فضلاً عن إجادتها بدرجة تسمح لهم بالقراءة والاطلاع وبالتالى الاتصال بالثقافات الأخرى، ثم إن القراءة الحرة الجادة العميقة ليست من العادات الاجتماعية التى يتولي البيت العربى غرسها ورعايتها منذ الطفولة من خلال التربية والتنشئة الاجتماعية.

وهذا الوضع يثير على العموم مشكلة الاهتمام بالترجمة والتعريب وليس فقط تعريب التعليم بوجه عام وبخاصة فى فروع العلم التى لا تزال تدرس بلغات أجنبية هى الإنجليزية فى الأغلب، ولا حتى ترجمة الكتب والمراجع الأكاديمية الأساسية حتى يتسنى للطلاب أولاً بأول الاطلاع على الإنجازات الجديدة المستمرة والمطردة فى مختلف فروع التخصص، وأيضاً ترجمة أمهات الكتب ذات الطابع الثقافى العام والتى لا تخلو من التعمق والنظرة الجادة إلى الموضوعات التى تعرض لها، وإن لم تدخل ضمن الكتب الأكاديمية المتخصصة، ولكنها تؤلف جانباً مكملاً لها وبخاصة إذا كانت تعالج موضوعات علمية دقيقة وعميقة وجافة بطريقة مشوقة لإبراز الجوانب الإنسانية فيها، أو علاقتها بحياة الإنسان والمجتمع.

وقد يذهب البعض منا إلى أن الترجمة ونقل الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية أمر بخرج عن صميم وظيفة الجامعة، أو ينظر إلى الترجمة على أنها عمل أقل مكانة ومنزلة من (التأليف)، وهذه مسألة تختلف فيها الآراء، ولكن المهم هو أن تؤخذ الترجمة كعنصر هام فى السياسة الثقافية للدولة، وأن يكون للجامعة شأن فى الاختيار، والأهم من ذلك هو توجيه الجامعة لطلابها إلى الإطلاع والقراءة الجادة المفيدة العميقة واعتبار ذلك جزءاً مكملاً للمحاضرات والمذكرات المقررة التى تفرض عليهم.

٣ ـ والاهتمام بنقل الثقافة الأجنبية وترجمة آثارها وتيسيرها للطلاب لا يتعارض مع ضرورة الانتباه إلى أخطار «الغزو الثقافى» على الثقافة القومية، إذا

ينبغى عدم المبالغة، أو التهويل والمغالاة فى إبراز هذه المخاطر والأخطار. فالأصل فى الثقافة هو الانتشار والاحتكاك بالثقافات الأخرى والاستعارات المتبادلة بين هذه الثقافات. وهذا أمر موكول إلى المجتمع المتلقى فهو الذى يستطيع أن يتحكم ولو إلى حد فى تقبل أو رفض الاتجاهات الفكرية المختلفة ليس عن طريق الحجر أو (التعتيم)، وإنما عن طريق الدراسة والبحث والمناقشة والنقد.

والجامعة هى المؤسسة المؤهلة بطبيعة تكوينها ووظيفتها فى المجتمع لأداء هذا الدور والقيام به، وليس فقط من خلال الدراسات والبحوث التى تقوم بها ولكن أيضاً من خلال الدروس والمحاضرات، أى من خلال العملية التعليمية ذاتها التى يجب أن تخضع هذه الاتجاهات والمذاهب والآراء للنقد والتحليل فى ضوء مقومات الثقافة التى أفرزتها من ناحية وفى ضوء مقومات ومكونات الثقافة القومية من الناحية الأخرى بحيث لا يتم قبول هذه الآراء والأفكار الوافدة لأنها (وافدة) ولأنها (أجنبية)، أو (غربية) فحسب ولكن هذا يتطلب الإحاطة الشاملة العميقة بالواقع الثقافى العربى المعاصر وبمتطلبات المجتمع والثقافة، وكذلك بنسق القيم الذى يحكم سير هذا المجتمع وهذه الثقافة .

فالمشكلة فى أساسها مشكلة منهجية تتمثل فى الموقف العقلى إزاء المؤثرات الثقافية الأجنبية وطريقة النظر إليها وأسلوب التعامل معها. وهذا هو المجال الحقيقى الذى تستطيع الجامعة أن تقوم فيه بدور فعال في مواجهة التحديات الثقافية المعاصرة لأنه يتطلب الغوص تحت المظاهر السطحية التى تتمثل في الحياة الغربية، أو التصرفات، أو حتى الأفكار والآراء التى تنقلها وسائل الإعلام ويتلقفها الناس أو حتى المعلومات والمعارف التى تملأ الكتب ويرددها الطلاب دون أن يتعمقوا فهم معناها، أو أن ينفعلوا بها دون أن يدركوا الظروف والأوضاع التى أدت إلى ظهورها ومدى ملاءمتها للمجتمع العربى.

فالموقف المنهجى الذى تقفه الجامعة من هذه التحديات الثقافية المعاصرة يأخذ مظاهر الثقافة المختلفة وإنجازاتها على أنها نتاج وحصيلة التوجه الذهنى العام، والنظرة إلى الحياة والموقف من الكون بكل عناصره ومكوناته الطبيعية والفيزيقية والبشرية والمبادئ التى يقوم عليها هذا التوجه ونوع المنطق وأساليب التفكير السائدة فى المجتمع. وهذا هو الذى يدعو إلى ضرورة الاهتمام بتاريخ العلوم عند العرب كمدخل لمعرفة العقلية التى كانت تحكم الفكر العربى والتى أدت إلى ذلك الإنتاج الوفير الغزير من الأعمال التراثية فى مختلف ميادين الفكر العربى والأدب والفن، كما أنه هو الذى يدعو إلى ضرورة الاهتمام بسوسيولوجية العلم لمعرفة الأوضاع

والظروف الخاصة بالمجتمعات التى أبدعت الثقافة الغربية والفكر الغربى والعلم الغربى وظهور الاتجاهات العقلانية والمناهج التجريبية والأساليب الرياضية في كل جوانب الفكر والحياة.

وعلى ذلك فإن أية محاولة جدية للحاق بثقافة العصر التى هى فى أساسها ثقافة علمية تعتمد على المنطق وأسلوب التفكير الرياضى الدقيق المحكم سوف تتطلب إعدادا فكرياً وذهنياً منذ البداية وإدخال تعديلات جذرية على أسلوب الحياة ذاته.

وهذه مسألة تتعلق بالتنشئة الاجتماعية التى قد تتعدى حدود الجامعة، وإن كانت الجامعة تستطيع أن تلعب فى ذلك دوراً هاماً وأساسيا بحكم طبيعة عملها ومهمتها فى ترسيخ أسلوب التفكير العلمى الدقيق المحكم بين طلابها من ناحية، وما قد يقوم به أساتذتها من نشاط أكاديمى وثقافى فى المجتمع من خلال وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرى بحيث تصبح الثقافة العلمية بالمعنى الواسع للكلمة جزءاً أساسياً من تكوين العقل العربى ليس من حيث المعلومات والمعارف الجزئية المفردة المتفرقة التى تدخل تحت باب (المعلومات العامة)، أو (الثقافة العامة)، ولكن من حيث المنهج وأسلوب التفكير .

المراجع

1 . Stephen R . Craubard " Thoughts on Higher Educational pruposes and Goals : AMemorandum" in Americam Higher Education:Toward an Uncertain Future. Daedalus Fall 1974 . P . 8 .

(2) Martin Meyersin . Civilizing Education : Uniting Liberal and professional ' Daedaluso . P . cit P . 173 id . preface . p V III .

(3) Ibid . p . 176 .

(4) Harold Entwistle. Class. Culture and Education . Methuen london 1978 . p . 110

(٥) أحمد أبو زيد «الإسلام المناضل» مجلة عالم الفكر المجلد الحادى عشر ، العدد ٢ ص ٢٦١ .

(6) Charles Adams . Islamic Reliqious Tradition. in Leonard (ed) . The study of the Middle East wiley . N . Y. 1976 . p 29 .

(٧) شكرى فيصل: «المخطوطات العربية والوثائق والتخطيط المستقبلى لحفظها وصيانتها والإفادة منها فى التطور الثقافى العربى» الخطة الشاملة للثقافة العربية. المنظمة العربية للتربية الثقافة والعلوم،

المجلد الثالث . القسم الأول ، الكويت ١٩٨٦ ص ، ١٩٢ .

(٩) أحـــمـــد أبو زيد «أسطورة الغـــزو الثقافى، مجلة الهلال، مارس ١٩٨٨ ص٥٦

(١٠) مارشال ماكلوان ووسائل الاتصال . مـجلة عالم الفكر . المجلد ١٢ العدد الأول ص٢٠٢ .

(١١) أحمد أبو زيد «الثقافة السينمائية» مجلة الهلال، عدد سبتمبر ١٩٨٨، ص ١٢٦ ـ ١٣٣.

(١٢) أحمد أبو زيد: «أسطورة الغزو الثقافية» مرجع سابق ص٥٢.

(13) Richaed Brown & C. Daniels: ' Cultural Imperalism' : The Times Educational Supplemennnt, (T.E.S) December II. 1984.p18.

(١٤) أحمد أبو زيد: وسائل التخطيط الثقافى، . مرجع سبق ذكره ص ٥٠ ـ ٥١ .

(١٥) اليونسكو : أصوات متعددة وعالم واحد ـ الاتصال والمجتمع وغداً من ١٥٤.

(١٦) حمدى قنديل: نحو تخطيط ثقافى للسنما العربية، بعض المعادلات الصعبة، الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الثالث، القسم الثانى، ص٤٧٨.

(17) Meyerson , op . cit . p . 176 .

(١٨) أحمد أبو زيد: أسطورة الغزو الثقافية، مرجع سابق ص ٥٤ ـ ٥٦ .

(19) Russell Kirk: Academic Freedom. N.Y.1955. p.10

(٢٠) زكى نجيب محفوظ، هموم المثقفين، دار الشرق القاهرة ١٩٨١ ص ٢٧ .

(٢١) رشدى راشد، «العلم كظاهرة غربية» مجلة المستقبل العربى، العدد ٤٧، يناير ١٩٨٣، ص٥.

(٢٢) محى الدين صابر : قضايا الثقافة العربية المعاصرة، الدار العربية، تونس، ١٩٨٢، ص٨٧.

ديناميات صورة السلطة لدى المسجون
دراسة تحليلية لرواية لنجيب محفوظ
«اللص والكلاب»

د. محمد حسن غانم *



مقدمة الدراسة :

«تعد السلطة من الموضوعات الأساسية التى تلعب دوراً مهما فى حياة كل فرديم فكما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الأخرين، بل لابد له من التواجد مع الآخرين بدرجة ما، وحتى فى حالة الحضور الفعلى للآخر - كما بين ذلك التحليل النفسى - تجد الفرد يتواصل مع الآخر على المستوى المتخيل المتهلسيم** (١:٢٦). كما أن غريزة الاجتماعى هذه تلازمة منذ خروجه إلى الدنيا حتى رحيله عنها، فما هو نفسه إلا وليد اجتماعى بين ذكر وأنثى من الناس، وهو يدخل منذ ولادته فيما يكونان من مجتمع صغير هو الأسرة، لأنه محتاج إلى رعاية الأم وكفالة الأب، فإذا بلغ أشده واستوى فيما بعد - ضرب فى الأرض سعيا وراء الرزق مختلطا بغيره من الناس فى ذلك المجتمع الأكبر استبادلاً وإياهم النفع من مجموع ما يبذل ويبذلون من نشاط (٦٦:٢٧).

كذلك استتبع وجود الفرد مع الأخرين وخضوعه للسلطة التى تقوم بدور مهم ورئيسى فى عملية التشريع والضبط الاجتماعى «والذى وجد كقوة فعالة فى تنظيم السلوك الاجتماعى والثقافى فى الأشكال الأكثر بدائية وقدما للحياة الإنسانية، فكما أن الفرد محاط بالغلاف الجوىيم فهو أيضاً محاط من الميلاد إلى الوفاه بالضبط الاجتماعى الذى ربما لا يكون مدركاً مالم تقوده تجربة غير عادية للتعرف عليه» .(١:٦).

* مدرس بقسم علم النفس - كلية الآداب - جامعة حلوان .

** يشير الرقم الأول إلى رقم المرجع فى قائمة المراجع، ويشير الرقم الثانى إلى صفحة المرجع وهكذا فى بقية الصفحات ....

ويكاد يجمع علماء النفس اليوم على أن السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل تلعب الدور الحاسم والرئيسي فى تشكيل شخصيته. وفيها توضع بذور الصحة والمرض. وليس هذا فحسب بل «لقد اتضح أن العواطف والاتجاهات الأولى التى تتكون لديه فى هذه المرحلة ذات أثر عميق بارز فى تعيين موقفه من المجتمع وفى تشكيل نظرته العامة إلى الدنيا.

فمن نشأ فى بيئة عدوانية لم يشعر بالصداقة أينما ذهب، ومن نشأ على تربية قوامها الاستغلال وسوء المعاملة توقع هذا من المجتمع وتصرف وفقا لما يتوقعه منه المجتمع. ومن كانت صلاته بوالديه فى هذا المرحلة مما يحول دون حبه واحترامه وجد كل صلاته بالكبار، أو من يمثلون السلطة أو النفوذ ـ صلات عثرة يغشاها التحدى أو العدوان. (٦١:٤). وإذا نظرنا إلى الفرد وجدناه بحكم فترة طفولته الكبيرة نسبياً يكون أكثر اعتماداً على والديه ومن هم أكبر منه فى معيشته، فنحن نعتمد على الكبار فى إطعامنا وفى حمايتنا من كافة الأخطار التى تحيق بنا «فتبعاً لمدة طفولتنا الطويلة، نحن جميعاً نتعلم بعض التصرفات الاعتمادية الخضوعية، ولكن نظرا للخبرات المتنوعة فنحن لا نتعلم جميعاً تصرفات واحدة. فالأم هى مصدر السلطة بالنسبة للطفل، وهى أيضاً مصدر لإشباع حاجاته. وأول موضوع لحبه والاستمالة ـ لا الإجبار ـ كما يقول مورتن Morton ـ هى أساس السلطة» (١١٠:٣٠).

كما أن السلطة الوالدية تعد أولى مصادر التشريع فى واقع الفرد، تلك التى يستدمج صورتها الطفل ويتوحد بأوامرها ونواهيها فى البدايات الأولى لوجوده والقمع الذى يمارسه الآباء على أبنائهم إنما يعبر عما يستشعرونه من قهر الواقع الاجتماعى لهم ومن ثم ينتقل عبر عمليات التنشئة الاجتماعية إلى الأبناء (٤٠:٢١).

وقد استُنت لهذا المجتمع مجموعة من القوانين على جميع الأفراد الالتزام بها، ومن هنا فإن الخروج على هذه القوانين يعد جريمة لأنه هدم، أو عدم اعتراف بسلطة المجتمع. (٢٤٦:٣).

والعلاقة بين السلطة والمجرم علاقة جدلية عدائية، لأن السلوك الإجرامى ما هو إلا سلوك مضاد للمجتمع، أو الفرد بارتكاب الجريمة انما يقع مباشرة فى قبضة، أو فى مواجهة سلطة المجتمع التى تسعى جاهدة إلى وسيلة الردع «وقد أمكن فصل فئة من الجرائم تكشف عن حساسية مرتكبيها حيال كل ما يمثل النفوذ أو السلطة، ويكون الدافع الرئيسى لها كراهية لا شعورية نحو الأب نجمت عن حل غير موفق للصراع الأوديبى لكنها لا توجه مباشرة إلى شخص الأب ذاته بل تزاح وتنقل فى صورة تمرد أوعدوان على كل ما يمثل سلطة الأب وقيوده على

الرؤساء، وهؤلاء لا يطيقون السلطة فى أى مظهر من مظاهرها، وليس هذا بمستغرب إذ من الثابت أن العدوان إن حبّه على المعتدى اتجه إلى بديل عنه، إلى رمزه، وكبش الفداء فى حالتنا هو السلطة (٢٤/٨٣ :٨٤). «وقد تم الاتفاق على أن يكون السجن هو المكان الذى يتم فيه عزل هؤلاء الأفراد المجرمين بهدف إصلاحهم، أو تهذيبهم، أو حتى إيلامهم حتى يعودوا ـ بعد قضاء مدة العقوبة، أو الإصلاح ـ مواطنين غير عدوانيين تجاه المجتمع ومؤسساته.(٢٦ ، ٣)

والسجن يعد «كمجتمع مغلق يحتوى بداخله على عدد كبير من البشر يختلفون فى الأعمار والجرائم والمستويات الاقتصادية والاجتماعية، ولكنهم فى النهاية يعيشون معاً ويجمعهم لقب مذنب أو محبوس. (١،٨). ونحن على قناعة بأنه «لم تعد مهمة الباحث فى ميدان الجريمة أن يدين المجرم أو يعاقبه، أو يصدر عليه حكماً أخلاقياً، بل أصبحت مهمته أن يبحث فى أعماق المجرم، أو يعيد النظر فى سلوكه مبتدئاً بفكرة أنه إنسان فقد توافقه مع نفسه وجماعته، ولجأ للجريمة حتى يستعيد هذا التوافق المفقود(١،١٦) .

والواقع أن الدراسات النفسية التى تناولت الأعمال الأدبية جد قليلة، بالرغم من أن العديد من علماء النفس قد اتجهوا إلى فهم شخصية مجتمع من المجتمعات بطرق متعددة أبرزها دراسة الإنتاج الأدبى الذى ينهض على مسلمة مفادها أن الإنتاج الأدبى لشعب من الشعوب لابد وأن يعكس بحكم طبيعته الطابع القومى لذلك الشعب. (١٥، ١٢١:١٢٠). إضافة إلى أن العمل الأدبى ـ كما يذهب فرويد ـ ينطوى على لب أو جوهر الوجود البشرى. والذى يتم تطويقه وفقا لظروف الواقع الاجتماعى، ويرى أن درجة شيوع أو انتشار العمل الأدبى، أو الفنى هى مقياس لقدرة هذا العمل على التعبير عما هو مشترك بين الكاتب وجمهوره (١٣،١٤).

والمعلوم أن الأدب يسبق علم النفس فى كشف مجاهل الإنسان. هذه حقيقة بديهية. إذا إن إنجازات الأدب من رواية وقصص وأساطير ومسرحيات وأشعار بل وحتى خرافات قد فتحت المجال لدراسة الإنسان من حيث هو إنسان . وهذا إقرار سيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٦). حيث يقول: «الفن كما نعلمه منذ أمد طويل يمنحنا ألوانا من الرضى تعوضنا عن أقدم ألوان العدول الثقافية. وهذا لا يعادله شىء فى تحقيق المعالجة والتوافق بين الإنسان والتضحيات التى ضحى بها من أجل استمرار الحضارة(٢٣:٢٠).

لذا فإن فرويد S. Froud ـ يخلع نوعاً من القداسة والأهمية على العاملين فى مجال الإبداع إذ يقول : «الشعراء والروائيون يعرفون بين السماء والأرض كثيراً من الأشياء التى لم تزل حكمتنا المدرسية لا

تستطيع الحلم بها، فهم أساتذتنا ـ نحن البشر العاديين ـ فى فهم النفس لأنهم ينهلون من منابع لم نجعلها قابلة للادراك العلمى بعد (١٧، ٢٩).

ولذا فقد وضع سيجموند فرويد فلسفة خاصة لفهم الإنسان من خلال الفن فتعامل مع التراث الإنسانى تعامله مع الكائن البشرى فى طفولته (البدائية)، وتطوره فى اتجاه الرشد وما يصيب حياته من ضروب القلق التى تبعث على الكبت وتدفع إلى تطوير ميكانيزمات دفاعية أخرى يمكن استثمارها فى عالم اللعب الطفولى وأحلام اليقظة والنوم، ولذا فإن سيجموند فرويد يرى أن ثمة بنية مشتركة بين أحلام الليل النموذجية، وبعض الآثار الأدبية باعتبارهما نشاطا لا شعورياً يهدف إلى أشباع مقنع لرغبة مكبوته .(١١،٢٦،٢٧).

والواقع أن ما حفزنى إلى القيام بهذه الدراسة أمران : ـ

الأول : لم نعثر على دراسة قد تناولت هذا الجانب الثرى (صورة السلطة لدى المسجون) من خلال التناول السيكولوجى لعمل روائى وبالتحديد لرواية اللص والكلاب، والتى تمثل ـ بحق ـ ثراء فى تناول علاقة الفرد بالسلطة.

الثانى : أن نجيب محفوظ قد ذهب إلى القول بأن «تجربة اللص والكلاب تستحق أكثر من دراسة لأنها الوحيدة فى أعمالى التى يتعرف الناقد والقارئ العادى فيها على العمل الأصلى والعمل الفنى معا، فنستطيع أن نرى كيف تناول العمل الفنى الحقيقة وأعاد خلقها لأهدافه الخاصة (١١٩،٢٥). إذ من المعروف أن شخصية سفاح شهير أنذاك هو الذى أوحى لنجيب محفوظ برواية «اللص والكلاب». متحدثاً ومثيراً لقضية الصراع الأبدى والمتجدد بين الفرد والسلطة والتى لا يستطيع الفكاك من تاثيراتها عبر مراحل حياته المختلفة .

مشكلة الدراسة وأهميتها:

تتحدد مشكلة الدراسة فى تتبع ديناميات صورة السلطة لدى المسجون من خلال التحليل النفسى لرواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ. ذلك لأن الأدب فى أوسع معانيه ما هو إلا تصوير دقيق للنفس الإنسانية، ولذا فإن الأدب الإنسانى الرفيع والراقى لا يقتصر على التجربة الشخصية للأديب، بل لابد وأن تندمج معها ـ وفيها ـ تجارب تاريخية وأسطورية واجتماعية بل وحتى خيالية مما يجعل مفهوم الأدب ـ بحق ـ يتسع ليعبر عن جوهر الوجود الإنسانى (٢٦،٧،٢٤). كما أن علاقة التحليل النفسى بالأدب قديمة جداً من ناحية، ووثيقة جداً من ناحية أخرى، وأن فرويد يعترف ـ فى أكثر من موضع ـ بأنه تعلم من دوستوفيسكى، وسوفوكليس، وغيرهما من أساتذته من الأدباء لأنهم أدركوا بحسهم الأدبى وبصيرتهم الفنية ما انتهى هو إلى تقريره

بمناهج البحث العلمى (٢٣ : ٢٢).

أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى :

١ ـ التعرف على ديناميات صورة السلطة بأشكالها المتعددة كما يدركها بطل رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ .

٢ ـ التعرف على العوامل والتفاعلات التى قادت إلى هذه الصورة العدائية تجاه كافة أشكال السلطة .

٣ ـ التعرف على مدى سواء أو عدم سواء بطل رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ من خلال محكات الصحة النفسية.

الدراسات السابقة

يمكن عرض الدراسات السابقة على محورين : ـ

المحور الأول : الدراسات التى تناولت علاقة المجرم بالسلطة : ـ

يوجد العديد من الدراسات نذكر منها دراسة المركز القومى عن الاستجابات الإدراكية لدى الأحداث الجانحين (١٩٦٥) ومقارنتهم بالأحداث الأسوياء، ومعرفة مدى التحريفات الإدراكية من خلال جهاز (التاكستوسكوب)، وقد وجدت دلالات إحصائية بين الاستجابات العدائية لكلمات السلطة ومترادفاتها مقارنة باستجابة الأسوياء(١، ١٩٦٥).

وإذا كانت هذه الدراسة قد أجريت على الجانحين الأطفال، فإن العديد من الآراء والدراسات قد أثبتت أن إجرام الكبار ما هو إلا امتداد لإجرام قد تم إبان مرحلة الطفولة المبكرة (٣٥ ، ٣٦).

وتُعدّ دراسة شكرى عبد العظيم عن السجن ـ دراسة فى ديناميات الجماعة (١٩٨٤)، وقد توصل إلى العديد من النتائج أهمها النظرة العدائية من المسجون إلى رموز السلطة داخل السجن مثل الضباط ورجال المباحث، أما الموقف من الحارس فقد تباينت اتجاهات المسجونين تجاههم، فالحارس إما مجرد خادم أو «طربوش» (أى لا فائدة منه)، أو قد يكونون معهم علاقة قوية، أما الموقف من المجتمع فيكون أكثر عدائية، وكذا حب الكراهية الشديدة تجاه كافة أنواع السلطة، إضافة إلى الموقف العدائى من القانون ومن يقومون بتطبيقه (٨).

أما مجدّة أحمد محمود (١٩٨٥) فقد تناولت الفردية والانتماء، وقد لخصت نتائجها فى ثلاثة أبعاد وهى : العلاقة بالذات، العلاقة بالآخر، العلاقة بالسلطة. وقد وجدت أن السلطة تأخذ أشكالاً ثلاثة هى : صورة السلطة العدوانية (المهدرة)، صورة السلطة المهيمنة (المتسلطة)، صورة السلطة التابعة، أو المناوئة بخطط وأهداف غير قومية (٢١)، وتناولت دراسة مجدى حسن / وحمدى أحمد مكاوى (١٩٨٩) خصائص مرتكبى السلوك الإجرامى من الزاوية السيكوبيولوجية، وقد توصلا إلى

العديد من النتائج منها أن مرتكبي السلوك الإجرامي هم (مرضى ذكور مودعين بالمستشفى العقلي بالخانكة، وإناث مودعات بدار الإدمان بتهمة ممارسة البغاء، وأحداث منحرفون مودعون بمؤسسة عين شمس. يقل متوسط ذكائهم عن متوسط ذكاء الأسوياء بشكل دال، وأن نتائج رسم المخ بالنسبة لعينة المرضى العقليين قد أشارت إلى وجود اضطراب في النشاط الكهربائي للمخ (٢٢، ٢٨:١٩).

ودراسة سميرة شحاته (١٩٨٠). والتي تناولت العلاقة بين تصور الذات وتصور البيئة لدى الجانحات وقد توصلت إلى نتائج أيدت فروضها من حيث أن اضطراب صورة الذات قد أسهمت في اضطراب تصور الجانحة لكافة رموز السلطة والبيئة التي تحيا فيها.(٥).

وتناولت دراسة عادل صادق (١٩٧١)، القتلة المصريين وبأكثر من أداة سواء أكانت سيكومترية أم كلينكية، أم طبية. وقد توصل إلى العديد من النتائج والتي تؤيد حقيقة أن أن اضطراب الفرد ما هو إلا انعكاس لاضطراب البيئة التي يعيش فيها الفرد وهو امتداد للعلاقة الديالكتيكية بين الفرد وبيئته (١٣).

وتناولت دراسة محمد حسن غانم (١٩٩٠)، ديناميات صورة السلطة لدى المسجون، حيث قارن بين خمس فئات اجرامية: النشل / السرقة / القتل / البغاء / القوادة. ومقارنة نتائجهم بنتائج فئة الأسوياء فيما يتعلق بالسلطة ورموزها. وقد وجد زيادة نسبة الاستجابات العدائية بدرجة ملحوظة في الفئات المسجونة الخمس مقارنة بفئة الأسوياء (أي الذين لم يرتكبوا جرائم وبالتالي لم يصدر في حقهم أي أحكام تحتم دخولهم السجن).(٢٦).

أما عن الدراسات الأجنبية في هذا الصدد فنذكر دراسة باركلي وجاليمو اللذين تناولا بالدراسة المناخ الأسري لأسرة بغي، وقد توصلا إلى عدة نتائج منها سوء العلاقة بالأم، أو أن هناك تصدعا داخل هذه الأسرة، وأن هذا المناخ السيء قد قاد إلى النشاط البغائي (٣٢ ، ١١٣) . ودراسة جان مار عن السلوك المنحرف الذي تناول فحص نشاط القوادين. والعوامل التي تدفعهم إلى ذلك، أو فحص المناخ الأسري، وطبيعة العلاقات والإدراكات المتبادلة (٢١٧:٢٠٣٢،٣٤).

المحور الثاني: دراسات تناولت بالتحليل النفسي أعمال نجيب محفوظ :

إن الاهتمام بنجيب محفوظ قد زاد بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ . ولعل أهم الدراسات التي تناولت أعمال نجيب محفوظ :

دراسة أحمد خيري حافظ (١٩٨٥). عن «سيكولوجية الآخر عند نجيب محفوظ» من

خلال رؤية التحليل النفسى وبعض الفلسفات الآخرى منتهياً إلى أهمية الحوار مع الآخر، وأن الآخر إذا كان مضطرباً فإنه بلا شك سوف ينعكس على ذات الشخص. (٢٠٠٥:١٩٩،٢)، ودراسة لطيفة الزيات (١٩٨٩). عن الجديد فى اللص والكلاب، والشكل الروائى عند نجيب محفوظ من اللص والكلاب إلى ميرامار وهى عبارة عن مقالات نقدية تهتم بأدب نجيب محفوظ ولكن من ناحية التكنيك المستخدم فى الكتابة، حيث استخدم نجيب محفوظ تيارا لوعى، ذلك التيار الذى استخدمه «جيمس جوس Jamas Joyce وفرجينيا وولف Virginia woolf بيد أن الجديد فى دراسة اللص والكلاب هو أن نجيب محفوظ قد عمم استخدام هذا الأسلوب فبدت روايته وكأنها إحدى روايات مجرى الشعور، ويعد اتجاه جديداً فى الأدب (٥٦:١٨،٣٣).

ودراسة مصرى حنورة (١٩٩٠). عن مربع العبقرية فى مسيرة نجيب محفوظ الإبداعية حيث ينتهى إلى القول إن العبقرية الإبداعية تتحقق حينما تلتقى فى قمة مكعب ارتقاء الأديب، أو المبدع عموما والأبعاد الأربعة هى : البعد المعرفى، البعد الوجدانى، البعد الجمالى، أو التذوقى، البعد الثقافى الاجتماعى. ويرى أن هذه الأبعاد الأربعة قد تفاعلت مع بعضها البعض عند نجيب محفوظ. (٥٦:٣٣،١٩).

ودراسة عبد الرحمن أبو عوف عن «الرؤى المتغيرة عند نجيب محفوظ (١٩٩١) حيث تناول الزمن الروائى (١٠)، والدراسات النفسية التى تناولها يحيى الرخاوى لبعض أعمال نجيب محفوظ منها: فيضان الوعى فى : رأيت فيما يرى النائم، والقتل بين مقامى العبادة والدم فى ليالى ألف ليلة، ودورات الحياة وضلال الخلود فى ملحمة الخرافيش.(٣١).

ومن الدراسات الأخرى دراسة عبد الله السيد عسكر عن غياب الأب الرمزى ـ دراسة فى التحليل النفسى لرواية الطريق (١١)، وكذا دراسته عن : الصدام الآيديولوجى وهوية الذات، ودراسته فى التحليل النفسى لرواية قلب الليل لنجيب محفوظ (١٢).

تعليق عام على الدراسات السابقة :

من خلال عرضنا للدراسات السابقة اتضح ـ فيما يتعلق بالدراسات التى تناولت علاقة المجرم بالسلطة ـ أن هذه الدراسات كانت ميدانية وتناولت بعض الفئات الجانحة، أو المجرمة حيث قادتها الجريمة إلى الوقوع فى براثن السلطة. ومن ثم فقد أظهر أفراد عينات الدراسة ـ بغض النظر عن طبيعة الجريمة ـ النظرة العدائية التى يكنونها للسلطة، خاصة سلطة البوليس والشرطة والسلطة القضائية. كما فى دراسة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (١٩٦٥). ودراسة شكرى عبد العظيم

(١٩٨٤)، ودراسة مجدة أحمد محمود (١٩٨٥). ودراسة محمد حسن غانم (١٩٩٠).

وعن الدراسات التى تناولت أعمال نجيب محفوظ نجد الآتى :

١ ـ أن الدراسات التى تناولت أعمال نجيب محفوظ ـ ومن منطلقات متعددة ـ لم تتناول قضية علاقة الفرد بالسلطة (وهو ما نحاول تناوله فى هذه الدراسة).

٢ ـ حتى الدراسات القليلة التى تناولت رواية «اللص والكلاب» لم تتناول هذه القضية بصورة تحليلية نفسية، إذ تناول ـ مثلا ـ أحمد خيرى حافظ (١٩٨٥). قضية اضطراب العلاقة بالآخر، وكيف أن اضطراب وعدم سواء المجتمع يقود حتما إلى اضطراب الأفراد لكن ذلك يثير تساؤلاً: لماذا يضطرب البعض من الأفراد ولا يضطرب البعض الآخر؟!. وهنا يتحتم البحث فى سيكوديناميات هذا الشخص المضطرب / المتمرد على السلطة لسبر أغواره وصولاً إلى مصدر هذا الاضطراب.

كما أن دراسة لطيفة الزيات قد تناولت رواية «اللص والكلاب» من منظور أدبى وليس نفسى حيث ركزت على الجديد فى «تكنيك» كتابة هذه الرواية واعتمادها على مجرى تيار الوعى (٥٦:٣٣،١٨). فى حين أن عبد الرحن أبو عوف قد تناول مفهوم الزمن الروائى فى بعض أعمال نجيب محفوظ (١٠)، وأن حنورة قد ركز على مربع العبقرية لدى نجيب محفوظ (٥٦:٣٣،١٩). بينما تناول يحيى الرخاوى وعبد الله عسكر بعض أعمال نجيب محفوظ البعيدة تماما عن هذه الرواية، أو التى تثير القضية التى نحن بصدد تناولها.

ورغم ذلك فقد استفاد الباحث من الدراسات السابقة، والتى أثارت لديه تساؤلا وأهتماماً بضرورة تناول ديناميات صورة السلطة لدى المسجون ليس من خلال دراسة ميدانية على مجموعة من الأفراد، بل من خلال تناول شخصية روائية تنبض بالحياة ولها فلسفتها الخاصة فى التعامل مع الذات والآخر، وكيف أن وجود بعض الأفكار واللامنطقية ـ تجاه السلطة ـ قد قادها إلى الانفعالات الحادة والسلوك الاجرامى مما حتم على ـ الفرد والسلطة ـ أن يدخلا فى مواجهات دامية انتهت بانتصار السلطة فى سحق تمرد الفرد المناوئ لها .

تساؤلات الدراسة :

١ ـ ما هى ديناميات صورة السلطة لدى المسجون (بطل رواية اللص والكلاب). كما تتضح من خلال تحليل مضمون الرواية؟

٢ ـ ما هى العوامل التى تشابكت وتفاعلت وقادت إلى الصورة العدائية لكافة أشكال السلطة كما تتضح من خلال تحليل مضمون الرواية ؟

٣ ـ ما هو موقع بطل رواية اللص

والكلاب على متصل السواء وعدم السواء النفسى من خلال التحليل النفسى لمضمون الرواية ؟

المنهج والاجراءات :

أولاً : عينة الدراسة : رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ . ويتمثل منطق اختيار هذه الرواية فيما يلى .

١ ـ لأنها الرواية الأولى لإبداعات نجيب محفوظ، بل وفى الأدب العربى عموماً التى تستخدم مجرى تيار الشعور (١٨،١٦). ولا شك أن هذا الأسلوب هو الأقرب إلى المنولوج الداخلى «ولا شك أن ذلك ييسر للباحث مهمته، فهو يتناول الرواية على أنها «تداع طليق» من شخص أشبه ما يكون فى جلسة التحليل النفسى، ومن خلال هذا التداعى تتحدد الأفعال النفسية التى تحدد ملامح البطل الأساسية، ويسهل أيضاً استخدام المعطيات اللاشعورية.(١٢٥،٢).

٢ ـ أنها الرواية التى من عنوانها تستطيع أن تحدد طرفي الموضوع، فالأنا، أو اللص فى مقابل الكلاب، أو أشكال السلطة، كما يدركها الشخص المجرم، ولا شك أن ذلك يسهل مهمة الباحث حتى يتحدد الموضوع ومنذ البدء .

٣ ـ أن هذه الرواية بالذات تحدد مدى عبقرية نجيب محفوظ، إذ استطاع أن يحول قصة المجرم الذى اطلق عليه «السفاح». فى ذلك الوقت وتحديداً فى أواخر الخمسينات وبداية الستينات إلى رواية توضح معالم الصراع بين الفرد الذى يسعى إلى التغيير والتمرد، والسلطة التى تقف أمام كل ذلك .

٤ ـ أن دراسة علاقة الفرد بالسلطة من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة المستمرة، لأن هذه العلاقة لا تنفصم، كما أن الفرد لاب أن يكون له موقف من السلطة بغض النظر عن طبيعته. ولذا فأن «الفرد والسلطة» من الموضوعات الجوهرية لدى الإنسان.

مفاهيم الدراسة : سوف نستخدم فى دراستنا مفهومين هما :

١ ـ السلطة : AUTHORITY

تعرف السلطة في موسوعة علم النفس والتحليل النفسى بأنها «أحد الأشكال الرئيسية لتنظيم أفعال الناس وتنسيقها لتحقيق هدف عام، وتكون الممارسة إما بالتبادل، أو بممارسة القوة، أو بفرض السيطرة التى تهدد المخالف، أو المتمرد من المكافأة، أو سحب الامتيازات (٨٠،٩). وتعرف السلطة من وجهة النظر الاجتماعية بأنها : «قوة نظامية وشرعية فى مجتمع معين» مرتبطة بنسق المكانة الاجتماعية، وموافق عليها من جميع أعضاء المجتمع، وترجع أهمية السلطة على أنها توجيه سلوك الأفراد بصورة محددة لإنجاز الأهداف العامة، ويتحقق ذلك من خلال بعض الميكانيزمات مثل : التبادل والمصالح

المشتركة والتضامن والقوة (٢٠ ، ٣٢). ويعرف محمد غانم (١٩٩٠). السلطة تعريفاً إجرائياً بأنها : «موقف الفرد من الأوامر والنواهى التى يتلقاها إما خضوعا لها أو تمردا عليها، باعتبار أن هذا الضبط لسلوك الفرد هام جداً لصالحه ، ولصالح الآخرين. (٢٦، ٢٥).

٢ ـ المسجون :

يعرف المسجون في الدراسات النفسية التى اجريت على المسجونين ـ ومنها هذا التعريف الذى نتبناه ـ بأنه كل من يحكم عليه بالإبداع في مؤسسة عقابية لمخالفته القانون يسمى مسجونا. (٨ ، ١٢٧) .

أداة الدراسة : تستخدم هذه الدراسة تحليل المضمون Content Analysis، وإن كان من المهم أن يذكر أن ثمة خلافا كبيرا حول التكييف المنهجى لتحليل المضمون فى المراجع العربية والأجنبية، فهناك وجهة نظر ترى أن تحليل المضمون هو أحد المناهج المستخدمة فى وسائل الاتصال المكتوبة والمسموعة بوضع خطة منظمة تبدأ باختيار المادة محل التحليل وتصنيفها ـ وفقا لأسس معينة ـ إلى مستويات كمية وكيفية (٢٩، ١٧ :٥٢)، فى حين ترى وجهة النظر الأخرى أن تحليل المضمون ما هو إلا مجرد أسلوب أو أداة يستخدمها الباحث لتحليل معلومات معينة وذلك فى إطار منهج شامل هو منهج الدراسة المسحية (٧ ، ١٠٧). وعلينا أن نحدد موقفنا من هذا الخلاف ونرى تجزئة العمل الروائى إلى وحدات وفئات وبنود قد يحول العمل الأدبى إلى مجموعة من الأرقام التى قد لا تنفذ إلى جوهر ديناميات العمل الروائى، وإذا كان أسلوب التجزئه يصلح فى وسائل الاتصال وتكميمها فإنه لا يصلح فى فهم عمل روائى يتطلب خبرة ونقاذ ومهارة فائقة فى الوصول إلى الدلالات التى تكمن خلف فلسفة العمل الروائى وليس فقط التناول السطحى للأحداث . وتشير الدراسات السابقة إلى وجود طريقتين لتناول العمل الأدبى وهما :

أولاً : التناول النفسى للرواية، أو العمل الأدبى فصلاً إثر فصل (كما فعل فرج أحمد فى تحليله النفسى لرواية طوبى للخائفيين ليائيل ديان).

الثانى : تناول القضية المركزية للعمل الروائى مثل ما فعله عبد الله عسكر فى تحليله لروايتى : قلب الليل والطريق لنجيب محفوظ، حيث تناول فى الرواية الأولى قضية تشكيل هوية الذات، وفى الثانية تناول قضية غياب الأب الرمزى. وسوف نركز على الفكرة المحورية للرواية، وكذا الاحصاء الكمى لكلمات تدل على اضطراب العلاقة بالآخرين مثل الخونة، الخيانة، الغدر .. الخ.

أما ما يدعيه البعض من ضرورة تحديد الثبات والصدق ضماناً للموضوعية فى تناول

العمـــل الأدبى فنرى أن النظر إلى هذه القضية يختلف حين يتم تناول عمل إبداعى متشابك وقد يفتح المجال ـ وهذا هو الاتجاه الحديث فى تناول الأدب ـ للقراءة المتعددة للنص الواحد .

ولذا فإن قراءتنا لرواية اللص والكلاب ستسير فى الخطوات الآتية : ـ

١ ـ العلاقة بين بطل الرواية والسلطة الوالدية (الأب ـ الأم ـ الأخ الأكبر ـ بديل الأب ـ الزوجة ـ الابنة)

٢ ـ العلاقة بالسلطة التعليمية (المدرس ـ ناظر المدرسة).

٣ ـ العلاقة بالسلطة الدينية (وتحديد الارتكاز على محور إقامة الشعائر الدينية).

٤ ـ العلاقة بسلطة القانون والقائمين على تطبيقه

٥ ـ العلاقة بالشرطة (الضباط ـ المباحث ـ كافة رموزهم كالمخبرين).

٦ ـ طبيعة وديناميات العلاقة بالسلطة بصفة عامة .

٧ ـ مدى سواء أو عدم سواء بطل الرواية من خلال الاحتكاك إلى معايير الصحة النفسية .

ملخص للرواية : تبدأ رواية اللص والكلاب بخروج (سعيد مهران) من السجن بعد أن قضى أربعة أعوام نتيجة خيانة زوجته (نبوية) وصديقه (عليش سدرة) ويفكر فى الانتقام. ولكن الرصاصات تكون طائشة ويقتل رجلا لا يعرفه بدلا من قتله للخونة (نبوية وعليش)، كما يقتل خادم رءوف علوان (مثله الأعلى ومرشده). بدلاً من قتله رءوف نفسه، وهنا يصبح حديث الناس، ومصدر قلق للشرطة، وينجح فى الاختفاء عند غانية (نور) كانت ومازالت تحبه إلا أنه يصر علي الانتقام ، ويقع أخيراً فى قبضة الشرطة (الأعداء)، وهو مقتنع بقضيته، رافضاً الاستسلام للكلاب.

مناقشة النتائج وتفسيرها : ـ

أولاً : مناقشة التساؤل الخاص بديناميات صور السلطة (بكافة أنواعها) لدى المسجون سعيد مهران:

١ ـ العلاقة بالسلطة الوالدية ـ الأسرية:ـ

أ ـ العلاقة بالأب: علاقته بالأب سطحية ، إذ يتحدث عنه قائلاً : «عم مهران، الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة. العمل والقناعة والأمان. وقد اشتركت معه فى الخدمة منذ الطفوله «(ص٨٨)، بيد أن الأب حاول قدر جهده تعليمه أمرين : ـ

الأول : إلحاقه بالمدرسة بناء على تعليمات الطالب ـ حينذاك ـ رءوف علوان، وقد حقق سعيد مهران نجاحه فى مراحله الأولى ، إلا أن موت الأب المفاجئ لم يجعله يكمل تعليمه .

الثانى : اصطحاب الأب ابنه إلى الشيخ

«على الجنيدى» لحضور حلقات الذكر (ص٨٩). «طفولة وأحلام وحنان أب وأخيلة سماوية: المهتزون بالأناشيد يملأون الحواس والله فى أعماق الصدور. يتردد صوت: انظر واسمع وتعلم. افتح قلبك. هكذا كان يقول الأب» (ص١٨).

(ب) الأم: علاقته بها سطحية، ولم يذكرها فى تداعياتها إلا حين أصابها النزيف بعد موت والده المفاجئ – وذهب بها إلى مستشفى خاص إلا أنه طرد خارجه. ولفظت أنفاسها فى مستشفى حكومى (ص٨٩ : ٩٠)، وكان مرضها هو الدافع الأول لقيامه بالسرقة تحت ضغط العوز والاحتياج وقسوة الآخرين.

(ج) الأخ الأكبر: يتضح من خلال تحليل مضمون الرواية أنه كان الابن الوحيد للأسرة «ورغم البساطة والفقر كانت الأسرة تفوز......الرجل وامرأته يتحادثان والطفل يلعب (ص ٨٨). وهذا يطرح ثلاث ملاحظات:–

١ – يبدو أن الوالدين قد اقترنا فى سن متأخرة.

٢ – أنهما كانا طاعنين فى السن (حيث وصفهما فى أكثر من موضع بالكهولة).

٣ – أنه الابن الوحيد، وذلك قاده إلى تضخم فى ذاتيته تلك التى قادته إلى التمرد، أخذ على عاتقه محاربة الشر، وهو يتلمس المعنى لحياته، ويتلمس المعنى لموته فى تحقيق هذا الهدف، ألم يقل «أن من يقتلنى إنما يقتل الملايين. أنا الحلم والأمل وفدية الجبناء وأنا المثل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه» (ص١٢٠). وسوف نوضح ذلك فيما بعد حين نتناول التساؤل الثانى:

(د) بديل الأب أو الأب الثانى إن جاز التعبير: وهو رءوف علوان: فلقد أثر فى سعيد كثيراً وغير العديد من قيمه. فقد نصحه بمواصلة التعليم، أو بمعنى أصح «بالمسدس والكتاب. بالمسدس للتعامل مع الماضى (رموز السلطة المستبدة)، والكتاب لفتح مغاليق المستقبل (ص٩٨، ٩٩)، وكذا تدعيمه الفعل السرقة، بل واعتبار ذلك عملا مشروعاً (ص٩٠)، وكذا التخطيط مع سعيد مهران لسرقة العديد من القصور (٣٥:٣٦)، «وإن من يسرقوننا فلابد بنفس الأسلوب أن نسترد ما سرقوه منا». ولذا فقد تم تدريبه على كيفية استخدام السلاح لتحقيق ذلك، وشهد تدريباته فى الفجر نجاحات منقطعة النظير.

ولذا فحين خرج من السجن ووجد كم التغيرات التى لحقت «بخالقه الذى ارتد» (ص٣٧). زلزل ذلك كيانه. وما يؤكد استنتاجنا بأن تأثير رءوف علوان كان أكثر من تأثير والده قول سعيد ساخراً. «أليس عجيباً أن يكون علوان على وزن مهران» (ص٢٩).

هـ – نبوية (الزوجة): نعرف من خلال مضمون الرواية إنها كانت تعمل خادمة عند آمرأة تركية، وقد حدثها عن حبه، وأخلص لها، إلا أنها خانته مع صديقه حين ابلغا عنه

الشرطة فقبضت عليه، ولولا الخيانة ما كان السجن، كما نعرف أنها كانت تسبقه إلى أية شقة أو فيلا ينوى سرقتها تعمل خادمه أو غسالة لبعض الوقت حتى ترشده عن المخارج والمداخل، وقد ظلت ذكرى الخيانة عالقة فى ذهنه، بل بسببها كره كل النساء ودخل فى تمرد ضد كافة أشكال السلطة (مواضع متعددة من الرواية خاصة ف ١، ف٧ ٢ ف ١٠).

و ـ ابنته (سناء) : مشاعره تجاهها متناقضة فتارة يفصح عن حبه لها «سناء إذا خطرت فى النفس انجاب عنها الحر والغبار والبغضاء والكدر، وسطع الحنان فيها كالنقاء تحت المطر (ص٨). وحين قرر أن يقتل نبوية وعليش (الزوجة وصديقه اللذان خاناه) تظهر الثنائية الوجدانية ـ بشقها الآخر ـ تجاه سناء، إنها ابنته وفى نفس الوقت رفضه حين خرج من السجن وطلب رؤيته (ص١٤ ، ١٥) ثم هى «الشوكة المنغرزة ـ فى قلبى» (ص٥٩). ثم يتساءل: هل أترك أمك الخائنة إكراما لك؟ أريد جواباً فى الحال» (ص٥٩). ورغم ذلك كان دافع الانتقام أكبر من أن يكبح ، كما أننا نرى أنه لم يحب ابنته على الأطلاق لسببين:ـ

الأول : أنه بعد أن خرج من السجن وذهب إلى منزل زوجته السابقة وصديقه الخائن مدعياً ـ رؤيته ابنته، إنما كان ذلك رغبة على السطح الهدف منها التمويه لاختبار الحصون لكى ينتقم فى الوقت المناسب (ف١، ص١١» إنما جئت أجس حصونك . وعند الاجل لا ينفع فجر ولا جدار» (ص١١).

الثانى : أن الشيخ على الجنيدى استطاع أن ينفذ ببصيرته إلى أن فهم رفض الطفلة لوالدها ليس مستندا إلى أسباب سطحية منطقية وهو حرمانها منه وعدم رؤيته له بل قال له «وما أشبهها بك» (ص٢)» أى إن البنت الصغيرة مثلك، وقد تحجر قلبها مثلك .

ثانياً : العلاقة بالسلطة التعليمية : يتضح من التحليل النفسى للرواية أن سعيد مهران لم يواصل دراسته، فقدا انتظم فى السنوات الأول فقط وقد حقق نجاحاً، ولم يكمل له الدراسة النظامية بسبب ضيق ذات اليد، ووفاة والده ثم والدته، وتحمله المسئولية، ثم اعتمد على القراءة غير الرسمية للعديد من الكتب التى كان يمده بها رءوف علوان، وهى كتب ثورية تمض على مقاومة الفساد. وملأ أفكاره باتجاهات معينة تجاه الأثرياء، بل إن رءوف أمده بالعديد من الأفكار التى تحرضه على السرقة قائلاً له: اليس عدلاً أن ما يؤخذ بالسرقة يجب أن يسترد بالسرقة (ص٦٠)، لذا كان سعيد مهران حريصاً جداً على استرداد كتبه من زوجه السابقة عقب خروجه من السجن، وحزنه على ضياع أكثرها، وتجاهله لسخرية المخبر «من ابن لك هذا العلم؟ ثم «أكنت تسرق فيما تسرق الكتب ؟ (ص١٧)، ثم

وضع الكتب عند الشيخ على الجنيدى (الفصل الثانى) وفى المرات القليلة التى كان يذهب فيها إلى الشيخ كان يجلس دوما بجوار الكتب (ص١٣١).

ولذا فإن العلاقة بهذه السلطة قد تبلورت فى اتجاه كراهية هذه السلطة بل ومحاربتها بأفكار معينة .

ثالثاً: العلاقة بالسلطة الدينية: يتضح من خلال الرواية «فقر» الاتجاه الدينى عند سعيد مهران. فرغم أن والده كان «يحج» إلى هذا المكان، ويتبرك بالشيخ على الجنيدى إلا أن سعيداً كان تأثره بأفكار «رءوف علوان» التقدمية الثورية أكبر من الإيمان بالدين (حيث الرضى والقناعة والرضى بالقليل)، واتضح ذلك فى العديد من المحاور : -

الأول : أن سعيد مهران أعلن للشيخ أكثر من مرة «أبى كان يفهمك أكثر منى» (ص٢١)» ويشير ذلك إلى فقدان لغة التواصل والتفاعل بل والحوار مع الآخر، ذلك الأخر الذى يشير إلى الذات ويشكلها .

الثانى : أنه لم يذهب إلى الشيخ عقب خروجه من السجن بسبب حاجته إلى الدين أو جريمة إيمانية وإنما فقط كان يريد المأوى «كان أبى يقصدك عند الكرب، وجدت نفسى .... فقاطعه (الشيخ) بهدوء لا يخرج عنه: أنت تريد بيتا ليس إلا» (ص٢١). ويشير ذلك إلى سطحية العلاقة بالدين .

الثالث : أن الشيخ طلب من سعيد أن يتوضأ ويصلى ، أو حتى يأخذ مصحفاً ليقرأ لكن سعيد تجاهل هذا العلاج الروحى لأزمته، وظل يجادل الشيخ بالخونة والخيانة والأوغاد، والغدر ، ونكران ابنته له (ص٢٥،٢٦).

الرابع : استحالة التفاهم، أو حتى اللقاء الفكرى والأيديولوجى - بين سعيد مهران والشيخ، لأن كل منهما يسير فى طريق مختلف، فسعيد يرى أن «الأوغاد ثلاثة، والشيخ الجنيدى سعيد بهذا العدد قائلاً له: «طوبى للدنيا إذا اقتصر أوغادها على ثلاثة)(ص١٣٢)، وظل الجدل والخلاف قائماً وفى أكثر من لقاء (ص١٣١ - ١٣٤). وترى أن الموقف من الدين - كما سبق وأشرنا سلبى فسعيد مؤمن بالله - بلا شك - إلا أنه لا يؤدى الفرائض، كما أنه فيما يبدو غير مقتنع بحكم الله فى ثراء البعض وفقر البعض الآخر، ويبحث عن عدالة مثالية لا وجود لها على أرض الواقع. وربما كانت الأفكار التقدمية التى يزرعها رءوف فى رأسه قد جعلته يوقن أن الفقر ما هو الإنتيجة استغلال الأغنياء لهم، فالأب قانع وسعيد رافض . وهذا أحد أهم محاور تمرده.

رابعاً : العلاقة بسلطة القانون : لعل مأساة سعيد - أيضا - أن موقفه عدائى تجاه القانون، فهو يرى أن القانون ظالم ، وأن من يقومون بتطبيقه ظالمون وأنهم

ينحازون في أحكامهم تبعا لمكانة الشخص، وأنهم يتركون اللصوص الحقيقيين، ويطبقون القانون على «الفقراء والمهمشين»، علما بأن مثل هذه الاتجاهات قد توصل إليها الباحث الحالي في دراسته عن ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين ، بل ذهبوا إلى أن مسألة القبض عليهم من رجال الشرطة ثم تطبيق القانون عليهم هو من قبيل سوء الحظ، بدليل أن هناك العديد من اللصوص من الذين يسرقون أكثر منهم ورغم ذلك لم يتم القبض عليهم، وهذا ما جعل سعيد مهران يردده لنفسه أكثر من مرة . فلولا خيانة زوجته وصديقه ما استطاع الجن نفسه أن يلقى القبض عليه.

وقد استطاع نجيب محفوظ بحدسه الواعي أن يعبر عن ذلك في الفصل (١٥) حين جعل سعيد مهران يهلوس لنفسه بأن يدافع عن نفسه أمام المستشارين، إلا أنه وقبل أن يمضي في دفاعه أكد لنفسه (..ولكن كيف تطمئن على قضاتك وبينك وبينهم خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام؟ إنهم أقرباء للوغد (يقصد رءوف علوان) ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان) (ص١٢٠) .

خامساً : العلاقة بسلطة الشرطة : علاقة عدائية . وقد برزت بجلاء في الفصل الأخير (ف١٨) حين رفض الاستسلام لهم وفضل أن يستمر في إطلاق الرصاص باتجاههم أو حين هتف صوت الشرطي في ظفر : سلم لا فائدة من المقاومة سلم وأعدك بأنك ستعامل بإنسانية» إلا أنه سخر من ذلك قائلاً: كإنسانية رءوف ونبوية وعليش والكلاب! (ص١٣٩)، وظل يقاوم حتى نفدت ذخيرته ولقى حتفه . كما استخدم ميكانيزم «التوحد بالمعتدى»حين طلب من نور أن تحضر له قماش بدلة ضابط، وقام هو «بالحياكة»، وارتداها رغم الحصار، وذهب لكى يقتل رءوف علوان، كما أنه حين فاجأه مخبران في الصحراء وكان يرتدى نفس البدلة «وخشى أن يفلت الزمام منه بقوة (أى أن يشكا فيه) فبقوة لا تعرف التردد وجه قبضتيه معا إلى بطنى الرجلين فترنحا وقبل أن يتمالكا نفسيهما آنهال عليهما لكما في مواطن الضعف .. حتى سقطا مغشياً عليهما (ص١٢٦).

أما موقفه من المخبر حسب الله فقد حاول «مداهنته» في أكثر من واقعة خاصة الفصل الأول من ص . ١ : ١٧)، كما أطلق على الشرطة في أكثر من مناسبة كلمات مثل : الأوغاد الكلاب .

سادساً : العلاقة بالسلطة بشكل عام: موقف سعيد مهران هو موقف عدائي، حيث نصب نفسه حاكماً وقاضياً وجلاداً لاقامة العدل والقانون في الأرض، وهذه مأساة سعيد مهران، والذى ظل منذ المنظر الأول في الرواية حتى آخرها وهو يركض تجاه نهايته المحتومه مؤكدا قول هيجل الشهير: «إنك بقتلك الآخر إنما نفسك تقتل».

التساؤل الثاني : ما هي العوامل التي تفاعلت وتشابكت وقادت إلى هذه الصورة العدائية للسلطة ؟

تشابكت مجموعة من الأحداث والمواقف وقادت إلى الصورة العدائية للسلطة. فقد كان الابن الوحيد لوالدين كهلين انشغلا بالبحث عن لقمة الخبز. والأب راض وقانع وكذا الأم، وحرص الأب على أن يلقنه درس الدين، ولكن الواقع كان أقسى وأمر حين مات الوالد، ومرضت الأم وتم طردهما من مستشفى خاص فاضطر أن يسرق، ولذا فقد قام والده الفكري - في مقابل الوالد البيولوجي ، رءوف علوان بتحريضه على السرقة، وأن الفقر الذي نعاني منه ما هو إلا رد فعل لسرقة الأغنياء لنا، ولذلك عاش في صراع تمثل في مستويين : ـ

الأول : القناعة كما يمثلها الأب البيولوجي (عم مهران الكهل الطيب بواب العمارة)، ويثبتها الشيخ على الجنيدي خلاصا في الدين

الثاني : قسوة الواقع وثراء البعض وفقر الأغلبيه مع دعوة للتحريض والسرقة كما يمثلها رمزه الأعلى (رءوف علوان).

ولذا فإن سعيد مهران احترف اللصوصية (حيث تتفق مع أفكاره أو تتعارض مع الرضى بالقليل، ومثل له رءوف الجانب الفكري في حين مثلت له نبوية زوجه وصديقه وأدواته التي كان يستخدمها لتحقيق السرقات . وإذا كان جانبه العقلي ـ أو أن شئت الدقة قل اتباعه ومريدوه قد خانوه ووشوا به إلى السلطة، فإنه ظل يبحث عن جانبه الفكري المتمثل في رءوف علوان، ولذا فقد عاش سعيد مهران انفصالا بين الفكر فكر الآخر، والفعل (حيث يقوم هو بالفعل). مما جعله ـ بعد الخيانة ـ يضع رءوف علوان في جانب ضحايا السلطة والكلاب والممثل لهم، وسعيد في جانب السلطة والاستغلال، ولذا فقد أخذ على عاتقه المحدود الإمكانيات مواجهة الظلمة وقوة بطش السلطة الغاشمة. وقد قاده ذلك إلى مجموعة من «التخبطات» غير المحسوبة التي قادته في النهاية إلى أن يلاقي حتفه، رافضه كافة المحاولات التي من خلالها يستطيع أن يتصالح مع نفسه ثم مع السلطة التي يخضع لأوامرها حتى وأن رفض ذلك على المستوى الشعوري والشخصي .

ثالثا: شخصية سعيد مهران بين السواء وعدم السواء؟

يذهب أحمد خيري حافظ إلى أن سعيد مهران ليس سيكوباتياً ، بل مأساته أنه كان يحيا في مجتمع مضطرب، وقد حاول

اصلاح هذا الاضطراب فعجز، أو بمعنى أخر ـ كما يقول خيرى حافظ «سعيد صرخة الاحتجاج المدوية فى عالم الظلام والفساد والخيانة (ص١٥٦).

ولكننا نختلف حول الرأى السابق، فبغض النظر عن «تصنيف» سعيد مهران فى فئة إكلينيكية ما، إلا أن معيار السواء وعدم السواء تحتم علينا إقرار حقيقة أن سعيد مهران كان مضطرباً وغير سوى لعدة أسباب: ـ

١ ـ من محكات السواء أن يكون الإنسان مرنا ومن الواضح أن سعيد مهران قد اعتنق أفكارا واتجاهات معينة ورفض التخلى عنها (رغم تغير الظروف)، بل ذهب إلى أبعد من ذلك واعتبر من يخالفه، أو يخالفه فى الرأى خائناً لدرجة أنه وصف «رءوف علوان» بخالقه الذى ارتد (ص٣٧)، ولذا فإن تكرار كلمة «خيانة ومشتقاتها» قد تكررت كثيراً فى الفصل الأول مثلا (٧) مرات وفى الفصل الثانى (٥)مرات، والفصل الثالث (٤) مرات، والفصل الرابع (٥) مرات وهكذا فى باقى الفصول ، ولذا فإن الشخصية السوية تستطيع أن تتجاوز خيانة مثل خيانة رؤوف لأنه من المفروض إذا كان الشخص يؤمن بمبادئ قد اعتنقها لا كفرد هو رمز وتجسيد لهذه المبادئ، بحيث إذا ارتد الفرد كفر التابع بالمبادئ(١)

٢ ـ من محكات السواء أن يكون الإنسان واقعياً، أى يتعامل مع الواقع كيفما تقتضى الضرورة بيد أن سعيد مهران، يلوى عنق الأشياء، ويرفض التعامل مع الحاضر ويقحم الماضى عليه. وهذه مأساته. فلم يعد يرى عليش سدره (صديقه وتابعه القديم) إلا ذلك الخادم الذى يتمسح به، ولم يعد يرى زوجه إلا خائنه قد نبتت فى أرض الوحل والخيانة، ولم يعد يرى رؤوف إلا ذلك الطالب ذو الملابس الرثة والأفكار التى تحرض على السرقة .

٣ ـ من محكات السواء النفسى أن يطور الإنسان نفسه، وهذا ما يفتقد إليه سعيد مهران ، وقد اتضح ذلك حين ذهب لزيارة رءوف علوان، وذكر له صراحة أنه قد تعلم مهنة الخياطة فى السجن(ص٣٤:٣٩)، ورغم محاولات رءوف الصادقة أن يساعده فى الحاقه بأى عمل إلا أنه سخر قائلاً : لماذ لا أعمل محررا معك فى الصحافة؟ وأصرعلى احتراف مهنة واحدة لا يجيد غيرها ألا وهى : اللصوصية (ص٣٥). ولذا فقد صدم فى رءوف علوان حين وجده يتبرأ من الماضى (ص٣٥) بل حين نصحه رءوف علوان بضرورة نسيان الماضى والبحث عن عمل شريف إلا أن سعيد مهران سخر منه

قـائلاً : «مـا أجـمل أن ينصـحنا الأغنيـاء بالفقر...!» (ص٣٦).

٤ ـ من مـحكات السـواء النفـسى أن يكون للإنسان هدف نبيل يسعى إليه. وسعيد مهران لم يكن لديه هدف سوى الانتقام من الأوغاد والكلاب، وقد عبر عن هدفه قائلا: قمة النجاح أن يقتلا معا، نبوية وعليش، وما فوق ذلك يصفى الحساب مع رءوف علوان ثم الهرب ، الهرب إلى الخارج إن أمكن» (ص٥٩). ونحن بدورنا نتساءل : هل قتل نبوية وعليش ورءوف وحتى مئات غيرهم ، هل ذلك القتل سيحل العدالة فى الأرض؟ وما الهدف من الانتقام ، إن سعيد مهران ليس كما يصفه أحمد خيرى حافظ بأنه متمرد (ص١٥٥)، وإنما هو إنسان يتخبط فى جنبات الاضطراب ، ويتحرك بلا هدف ، ولذا فإن نجيب محفوظ بحدسه الباهر قد جعله فى غمره انتقامه ينتقم من آخرين لا علاقة لهم بالذين خانوه.

٥ ـ من مـحكات السـواء النفـسى أن تكون الأهداف التى يحددها الشخص له على قدر إمكانياته، لكن سعيد مهران يريد أن «يرسى دعائم العدل فى الأرض»، ويظن ـ إلى درجة الاعتقاد واليقين ـ أنه نصير الملايين من ضحايا الكلاب والمستغلين ولذا فإنه يشكك فى نزاهة القانون، ومن يطبقون القانون لأنهم من وجهة نظره «منحازون» إلى اللصوص الحقيقيين، ويرى أن كل ثرى يسكن قصرا ما هو إلا لص يجب الانتقام منه، كما أن الحوارات الفلسفية التى دارت بينه وبين الشيخ على الجنيدى (رمز الجانب الدينى والقناعة والرضى بالقليل والتعلق بالمثل العليا). قد أفصحت عن مأساة سعيد مهران وأنه يركض وراء سراب، وقد أفصح عن ذلك للشيخ قائلا: «هل تستطيع أن تقيم ظل شىء معوج؟ فقال الشيخ برقة: ـ أنا لا أهتم بالظلال» (ص١٣٣) إشـارة إلى أن مهمة سعيد هى إقامة العدل فى الأرض وهو لا شك فوق إمكانياته كشخص .

٦ ـ من محكات السواء النفسى أن يقيم الإنسان توازناً بين الماضى والحاضر والمستقبل لكن يتضح أن سعيد مهران «يطفى لديه جانب الماضى ، ويفتقد كذلك إلى التعايش مع الحاضر وكذا المستقبل ، ورغم أن ابنته «سناء» وكذا المرأة التى أحبته بإخلاص من قبل (نور) يمكن أن يكونا من دعائم ربطة بالحاضر والمستقبل إلا أنه ضيع كل هذا، ولم تشغله غير فكرة واحدة وهى : الانتقام من الخونة والكلاب والأوغاد من وجهة نظره وإقامة العدل المفتقد على الأرض، وقد استغل (نور) فىّ إحضار السيارة وبدلة الضابط وكان بين كل جريمة

وأخرى يخطط لجريمة ثانية حتى يئست منه واختفت إلى الأبد من حياته لأنها آمنت أن الماضى هو قيد سعيد ومأساته أنه لا يتعامل أبدا الا مع الواقع ولا مع أى بصـــيص من الأمل مع المستقبل.

وهذه حـقـا مـأسـاة سـعـيـد مـهـران ، وعبقرية سبر أغوار النفس الإنسانية. وهذا مـا جعلنا ـ رغم كل مـا سبق ـ مـتعلقين ومشفقين بل ومنحازين إلى شخص سعيد مهران .

المراجع :

١ ـ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : الاستجابات الإدراكية للأحداث المنحرفين ـ بحث تجريبى ، «١٩٦٥» القاهرة

٢ ـ أحمد خيرى حافظ : سيكولوجية الآخر عند نجيب محفوظ ـ دراسة تحليلة لرواية : اللص والكلاب. فى كتاب : دراسات نفسية عربية ١٩٨٥، غير مبين الناشر . القاهرة.

٣ ـ أحمد فائق : الأمراض النفسية ـ دراسة فى اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع، دار أتون للطباعة والنشر، ١٩٨٢، القاهرة.

٤ ـ أحمد عزت راجح : سيكولوجية المجرم العائد ، المجلة الجنائية القومية، المجلد الأول، العدد الثانى ، يوليو ١٩٥٨، القاهرة.

٥ ـ سميرة شحاته :العلاقة بين تصور الذات وتصور البيئة لدى الجانحات، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠ القاهرة.

٦ ـ سعد محمد شاهين : مدخل فى علم الاجتماع والقانون، الناشر غير مبين ، ١٩٨٥، القاهرة.

٧ ـ سمير محمد حسن :تحليل المضمون ، عالم الكتب ، ١٩٨٣، القاهرة.

٨ ـ شكرى عبد العظيم : السجن ـ دراسة فى دينامية الجماعة ، ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٨٤، القاهرة.

٩ ـ عبد المنعم الحفنى : موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، مكتبة مدبولى ، ١٩٧٥، القاهرة.

١٠ ـ عبد الرحمن أبو عوف : الرؤية المتغيرة فى روايات نجيب محفوظ ـ سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١، القاهرة .

١١ ـ عبد الله عسكر : غياب الأب الرمزى ـ دراسة فى التحليل النفسى لرواية

«الطريق» لنجيب محفوظ ط٢ ، ١٩٩٧، الأنجلو ، القاهرة .

١٢ ـ عبد الله عسكر : الصدام الإيديولوجي وهوية الذات ـ دراسة في التحليل النفسي المضمون رواية «قلب الليل» لنجيب محفوظ ١٩٩٤، الأنجلو ، القاهرة .

١٣ ـ عادل صادق : دراسة نفسية وعصبية للقتلة المصريين، دكتوراه غير منشورة ، كلية الطب، جامعة عين شمس، ١٩٧١، القاهرة .

١٤ ـ فرج أحمد فرج : التحليل النفسي والأدب ـ دراسة في تحليل المحتوى لقصة يائيل ديان «طوبى للخائفين» غير مبين مكان ولا سنة النشر، القاهرة.

١٥ ـ قدرى حفنى : الأسرائيليون من هم ؟ دراسة نفسية ، ١٩٨٨، مكتبة مدبولى، القاهرة.

١٦ ـ كمال جندى أبو السعد : انحراف الأحداث الجناح ، بحث في ضوء التحليل النفسى وعلم النفس الإكلينيكى، دار المعارف، ١٩٧١، القاهرة.

١٧ ـ كابتاس لوى : النقد الأدبى والعلوم الإنسانية ، ١٩٨٢، دار الفكر ، سوريا.

١٨ ـ لطيفة الزيات : نجيب محفوظ ـ الصورة والمثال ، مقالات نقدية، كتاب الأهالى، رقم ٢٢ ، ١٩٨٩، القاهرة .

١٩ ـ مصرى حنورة : مربع العبقرية فى مسيرة نجيب محفوظ الإبداعية، محاضرات الموسم الثقافى الأول لرابطة الأحصائيين النفسيين ، ١٩٩٠، القاهرة.

٢٠ ـ محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، القاهرة.

٢١ ـ مجدّة أحمد محمود : الشخصية بين الفردية والانتماء ـ دراسة فى سيكولوجية العلاقة بين الفرد والمجتمع، دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس ، ١٩٨٥، القاهرة.

٢٢ ـ مجدّة حسن محمود، وحمدى أحمد المكاوى : خصائص مرتكبى السلوك الأجرامى ، مجلة علم النفس العدد ٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩، القاهرة.

٢٣ ـ مكرم شاكر اسكندر : أدباء منتحرون ـ دراسة نفسية ، دار الراتب الجامعية ، ١٩٩٢، بيروت ، لبنان .

٢٤ ـ محمد مندور : الأدب ومذاهبه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر غير مبين سنة النشر ، القاهرة

٢٥ ـ محمود فوزى : اعترافات نجيب محفوظ ، دار الشعب العربى، غير مبين سنة النشر، القاهرة .

٢٦ ـ محمد حسن غانم : ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين ـ دراسة نفسية مقارنة ، ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٩٠ ، القاهرة.

٢٧ ـ نجيب بكير : آدم وحواء والقانون والإنسانية ، مكتبة عين شمس ، غير مبين سنة النشر ، القاهرة .

٢٨ ـ نجيب محفوظ : رواية اللص والكلاب، غير مبين سنة النشر دار مصر للطباعة ، القاهرة .

٢٩ ـ نادية سالم : إشكاليات استخدام تحليل المضمون فى العلوم الاجتماعية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، عدد ٢٣ سبتمبر ١٩٨٣، الكويت .

٣٠ ـ هوراس . ب . إنجلش : علم نفس الطفل فى كتاب : ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية، المجلد الأول، ترجمة السيد محمد خيرى، إشراف : يوسف مراد، ط٤، دار المعارف ، ١٩٧٥، القاهرة .

٣١ ـ يحيى الرّخاوى : قراءات فى نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، القاهرة.

32 - Barclay, KL Gallemar. J : The Family of the prostitute, 1972, psychological Abstracts 1973. Vol: 50

33 - Freud,s : the Future of an illuison , standard edition of. s. Freud . The Hogrth pressl the institute of psy choanalysis, london, 1974.

34 - Jan - Mar : Deviant Behaviour, 1983. Ponderins panderins, voly (2) . U. N. A.

35 - Herbert. A.Blochand Givert: Man crim and Socity the farma of criminal behaviour gandon hanrepublishing, New york , 1962. A . S . A

36 - Robert Marton : Social theary and social Sturncture , 1957, New yark , U. S . A .

الغزو الثقافى والتحديات الحضارية رؤية نقدية

د . سامية الساعاتى *

« العباية العيارى ما تدفى وإن دفت ما تدوم »

« مثل شعبى مصرى »(١)



« إن الجيل الحالى من علماء الاجتماع فى الشرق الأوسط يجدون أنفسهم فى موقف يستوردون فيه أدوات تم تشكيلها وتطويرها لتناسب حاجات فترة الانتقال فى الثقافة الأوربية فى القرن التاسع عشر »(٢).

يمكن أن نختار لنقطة البداية فى أى بحث يتعلق بقضية كقضية الغزو الثقافى واحدا من مستويين :

(١) المستوى الوضعى التقليدى: المعمول به فى العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية المعاصرة، أى أن نبدأ بالتسليم بأن عملية الغزو الثقافى هى فى آن واحد ظاهرة طبيعية، لا مفر منها، من ناحية، ومن ناحية أخرى ظاهرة لابد وأن تتبدى بشكل أكثر حدة فى مجتمعات آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية فى عصرنا.

(٢) المستوى النقدى : أى أن نتساءل عن الجذور التاريخية لظهور فكرة الغز الثقافى. وكذلك ارتباط هذه الفكرة ببنيان الفلسفة الاجتماعية السائدة فى مجتمعات الغرب؛ ثم دراسة كيفية انتقال هذا الجو الفكرى إلى مجتمعاتنا.

---

* أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بكلية البنات ـ جامعة عين شمس .

(١) العباءة المستعارة لا تدفىء، وإن أدفأت فإن دفئها غير دائم .

(٢) عبد القادر زنفل، المدارس الفكرية العربية والهياكل الاجتماعية فى الشرق الأوسط «المستقبل العربى»، السنة ٢٤ العدد ٣٧ مارس آذار ١٩٨٢ ص٧ .

فإذا كان الهدف هو مسايرة تجارب مجتمعات أخرى فحسب، على اعتبار أن مجتمعاتنا لا يمكن أن تهدف إلى أبعد من تقليد الغير، فيكون الموقف الأول هوالمطلوب، بكل ما يترتب عليه من نتائج واختيارات أو قرارات تنفيذية..... الخ.

أما إذا كان الهدف هو تحقيق نهضة حضارية شاملة لمجتمعات أمتنا العربية، كما حدث أو مازال يحدث فى عدد من أمم الشرق المعاصر، فإنه يصبح لزاما علينا أن نختار الموقف الثانى النقدى. وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الموقف النقدى لاتمليه علينا فقط احتياجات تحركنا القومى، بل إنه فى الوقت ذاته يمثل فى الأساس الموقف العلمى المنهجى الأصيل، فالموقف العلمى يختلف اختلافا جذريا عن السلفية الفكرية وعن مجرد النقل والتقليد، وإنما هو يهدف دائماً إلى الإبداع ابتداء من النسيج الموضوعى للمجتمع، آخذا فى الاعتبار خصوصته الثقافية.

مسلمات الغزو الثقافي:

يستطيع المرء أن يستقرء وراء ظاهرة الغزو الثقافى فى المجتمعات العربية خطا فكريا يجمع بين عدد محدود من المسلمات التى يندر أن تصاغ صراحة:

(١) أن ظاهرة التخلف الثقافى فى مجتمعاتنا العربية تمثل فى المحل الأول الوجه السالب لعملية جدلية تركيبية شاملة، تمثل فيها مجموعة المجتمعات النامية فى الغرب العنصر الإيجابى .

(٢) أن للتقدم صورة وحيدة وفضلى هى التى تتمثل فى ثقافة الغرب الرأسمالى. وبالتالى فإن أرقى درجات الحضارة البشرية هى حضارة الغرب. ومازال هذا التمركز الأوروبى حول الذات Europeo-centrism يحكم تصرفات القوم حتى الآن، ويجد لنفسه الشاهد الأخير فى الابتكارات التكنولوجية المذهلة (بغض النظر عن جدواها الحقيقية وآثارها السلبية).

(٣) أن للتقدم مسارا فريداً يتعين على كل الشعوب أن تسلكه، وأن تمر بالباب الضيق الذى اجتازته الثقافة الغربية، فالتخلف Underdevolopement ليس إلا مجرد تأخر Backwardness. وكأن الأمم جميعا قد وقفت يوما على خط البدء من ميدان سباق وأخذت تعدو حين دقت إشارة البدء فقطع بعضها الشوط بأكمله. وتعثر البعض في منتصفه، فى حين لم يتجاوز جهد البعض الثالث إذ إنها تسلم بإمكان وصول كل الأمم إلى ما وصلت إليه

أمم الغرب، ولكن طبيعتها الحقيقية تظهر إذا ما تساطنا: ولماذا تأخرت أمم كثيرة؟ عندئذ يسوق البعض على استحياء أو بدون حياء تفسيرات لا تستند إلى أساس: تفسيرات جغرافية (مثل القول بأن ظروف البلاد الحارة تورث الكسل، وكأن تلك البلاد لم تكن بالدقة موطن الحضارات الأصيل)، أو دينية (مثل الزعم بأن الإسلام يعلم التواكل، وكأن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن من أزهى حضارات التاريخ)، أو قيمية (كالقول بأن بعض القيم الثقافية تقتل الحافز الفردى، وكأن الثقافة مستحيلة بدون فردية متورمة) على أن الزعم بالمسار الفريد، ينافى التاريخ، وينكر قدرات البشر. فقديما ازدهرت حضارة مصر، وحضارة الصين فى خطوط متوازية ومختلفة دون صلة بين البلدين(١)

وهذا الزعم بعد كل ذلك وقبله، يفرض على مجتمعاتنا أن تركز كل جهودها على محاكاة الغرب، والنقل فيه، والاعتماد على خبرته وعلمه ورؤوس أمواله. وبهذا تتأكد تبعيتها له، وتقفل أبواب الإبداع، ويلجأ القادرون عليه إلى الغرب، ما تيسرت لهم السبل وغالبوا شعورهم القومى، والوطنى، وهكذا تظل شعوبنا تجرى وراء سراب لن تلحق به.

والغرب حين يمدنا بالعون يوصينا بالصبر وتحمل الآلام والمعاناة كما تحملت شعوبه ومجتمعاته فى العقود الأولى التى تلت الثورة الصناعية. وليس عجبا أن يكون ذلك مسلك الغرب. فغاية الكرم أن يعطى المرء مما عنده النذر اليسير أو القدر الكبير. ولكن العجب أن يسلم باحثونا ومفكرونا بنظرية المسار الفريد للثقافة بأن يرضوا لأنفسهم وشعوبهم بهدف القدرة على المحاكاة وهى فضيلة القرد، متخلين عن القدرة على الإبداع وهى فضيلة الإنسان.

(٤) أن هذا المسار يمكن اختصار أمد سلوكه بالتركيز مباشرة على اكتساب ثمراته المادية آخذا عن الغرب.

وهذا الاختصار مبني على اختزال ظاهرة التغير الاجتماعى فى الغرب لردها إلى أمر واحد هو الآلة وما يتصل بها من تكنولوجيا وما تؤدى إليه من إنتاج مادى متزايد واستهلاك مادى لا تهدأ له شهوة. وفى ضوء هذا الفهم يكون الخلط بين الثقافة

---

(١) للمزيد عن مفهومى الثقافة والحضارة :
انظر: سامية حسن الساعاتى، الثقافة والشخصية، بحث فى علم الاجتماع الثقافى، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٣ ط ٢، وأيضا مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٨٢ ط ١

فى شمولها وبين مظاهرها المادية (الحضارة)، ويكون الظن بأن الحصول على هذه الأخيرة وحدها هوالثقافة بعينها.

وقد ساقت هذه النظرة بعض المجتمعات العربية إلى الظن بأن التزين بالزى الأوروبى، والكتابة بالحروف اللاتينية، ونقل النظم والقوانين الأوروبية تكفى فى ذاتها لتحويل البلد إلى (قطعة من أوربا)، اعتقدت بعض مجتمعات عربية أخرى حبتها الطبيعة بمادة أولية مرتفعة الثمن ومصدر طاقة تشتد عليه طلب البلدان الصناعية أنهم ببيع هذه الموارد النافدة وإقامة المبانى الأوروبية، واستهلاك السلع الحديثة، وإقامة بعض المصانع، يقتربون من مستوى حضارة الغرب(١) المنشود.

وأخيرا تناضل بعض النظم العربية من أجل تعبئة الجهود الوطنية والاستعانة بما تيسر من موارد خارجية لإنجاز تصنيع سريع يدخل بشعوبهم عصر التكنولوجيا الحديثة، ومواكب الكومبيوتر، ثقة منهم بأن هذا هو فى ذاته التقدم الثقافى والتنمية الثقافية. ولكن الجهود المبذولة لا تصفى الفقر والأمية والمرض، ولا تحرر كل الطاقات الكامنة لدى الجماهير ولا تقطع حبال التبعية الخارجية.

التحديات الحضارية المعاصرة (٢): دروس مستفادة :

ليس القصد مما سبق طرح تجربة التطور الثقافى فى الغرب جانبا، والامتناع عن التماس دروس منها، وإنما بيان أن الفائدة تتحقق بتحليل عوامل التطور الثقافى، وفهم أبعادها الحقيقية، والبحث عما يقابلها فى المجتمعات الأخرى، وليس نقل نتائج التطور نقلا أعمى .

ويمكن أن نلقى الضوء بعد هذا العرض السريع للموضوع، على التحديات الحضارية المعاصرة، والمرتبطة بالدروس التى استفادوها من التجربة الغربية .

أولا : الغزو الثقافى عملية تضرب جذورها فى كل جوانب الحياة وتفضى إلى مولد ثقافة جديدة، أو مرحلة جديدة من

(١) يقصد بالغرب فى هذه الدراسة أوربا وامتداداتها الثقافية. وبغض النظر عن النظام الاجتماعى والاقتصادى فإن دول أوربا الاشتراكية تعد جزءا من الثقافة الأوروبية بالمعنى الواسع. وقادة الفكر الاشتراكى لم يزعموا أبدا دفن التراث بكل ما يحتوى، بل أكدوا دائما أنهم ورثة كل ما هو إيجابى فيه ومحرروه ومكملوه.
(٢) مفهوم المعاصرة : نعنى به السمات الثقافية بعناصرها المادية وغير المادية التى يتميز بها مجتمع من المجتمعات فى فترة معينة من الزمن تكون، بالضرورة، الفترة الحاضرة.
انظر سيد عويس حديث عن الثقافة ، مكتبة الأنجلو المصرية، . ١٩٧٠ .

مراحل التغير والتطور الثقافى، بكل ما يميزها من قيم، وعادات، وسلوك، وأساليب إنتاج، وأوضاع اجتماعية، ونظم سياسية، وتقدم علمى، وتجدد أدبى، وفنى .

ثانياً : للثقافة شقان : شق فكرى وآخر مادى، وكل منهما يغذى الآخر ويقوى حركته. فمناهج العلم ومكتشفاته خلقت جوا مواتيا للاختراع، ولكن تحويل الاختراعات إلى أدوات إنتاج تفسره ضروروات اقتصادية وقوى اجتماعية ذات مصلحة قوية ، كذلك استمرار البحث العلمى التطبيقى مرتبط بتطوير الإنتاج، الخ .

ثالثا: التنمية الثقافية لا تستعار، وإنما هى فى الأساس عملية إبداع، فأوربا قد درست علوم العرب وفلسفتهم وأحيت تراث الإغريق والرومان، مركزة الأضواء على جوانبه التى تساند تطلعات التطور. ثم تجاوزت هذا كله بإبداع مستمر فى كل محاولات الفكر والسياسة. وقبلها. فعل أسلافنا العرب، فقد أخذوا عن اليونان والرومان والهند ومصر والشام والعراق، وفارس. ولكنهم تجاوزوا ما أخذوا إلى إبداع ثقافة جديدة زاهية بقدر ما هى أصيلة .

رابعاً : مولد ثقافة جديدة، أو تجديد شباب ثقافة عريقة تضم حضارة عريقة بالطبع، هو جهد يفوق طاقات أى مجتمع عربى منفرد وإنما هو ظاهرة «قارية» من حيث الاتساع الجغرافى أو الإسهام البشرى. وهذا ما يؤكده تاريخ أوربا، فقد اسهمت شعوب القارة جميعا، وامتدادها الثقافى فى أمريكا الشمالية بالفكر والممارسة.

خامساً : المحتوى التقنى الاقتصادى للحضارة الغربية والذى يبهر الناس، ذلك هو الجزء المادى من الثقافة الأوربية، لم يكن متصورا بدون استيلاء الأوروبيين على موارد الشعوب الأخرى: الموارد الأرضية (أمريكا الشمالية واستراليا...) والموارد البشرية (الرقيق الأفريقى والعمل فى المناجم والمزارع فى المستعمرات)، والطبيعة (المواد الأولية والطاقة). أما الثورة الصناعية فى ذاتها فلا يكتفى بها لتفسير كل شيء. كذلك لا يحل التصنيع بذاته كل المعضلات.

الخلاصة :

خلاصة القول بالنسبة لقضية الغزو الثقافى وعلاقتها بالتحديات الحضارية المعاصرة، أن التنمية الثقافية، تعنى فى حالة العرب، حركة إحياء ثقافى للمجتمعات

العربية، ترد للمجتمع العربى قدرته على التجديد ذاتيا، وتفتح أمامه سبل الإبداع، ولا يتأتى هذا إلا بتحرير العقل العربى من السلفية المتحجرة التى ترفض الاجتهاد والتجديد.

كذلك يجب الاهتمام بتحرير العقل العربى كذلك من التبعية لكل أو معظم ما نتعلم من الدول الصناعية المتقدمة.

وتحرير الموارد العربية من صنوف السيطرة الخارجية والاستئثار الداخلى. وبهذا، وليس بأقل منه، يمكننا أن نصل إلى إسهام جديد فى الثقافة البشرية يأخذ عن الغير، ولكنه لا يكتفى بمحاكاتهم، ويبنى على أفضل ما فى التراث دون انغلاق عليه، أو انكفاء على الماضى، وعندئذ نقيم مجتمعات حديثة بكل معانى الحداثة لها ثقافتها الحديثة، لكنها بالضرورة مختلفة عن المجتمع الغربى وثقافته (١).

ولكن هذه المقاصد السامية التى يجب أن نقصدها تصطدم بالضرورة مع واقع أن العرب لا يعيشون فى فراغ، أحرارا فى اتخاذ ما يرون من قرارات، فالأقطار العربية شأنها فى ذلك شأن معظم البلدان النامية، موثقة بشبكة كثيفة من العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية التى تربطها بالدول الرأسمالية المتقدمة. ومن ثم فلا يمكن الحديث عن التنمية الثقافية والتكامل الثقافى أو الوحدة الثقافية بين الأقطار العربية إلا بعد تحديد واضح لموقع العرب من عالم اليوم.

فالسيطرة الغربية على سوق رأس المال تفسر حقيقة مرة وهى أن أقساط خدمة الدين الخارجى وعوائد الاستثمار الأجنبى وفروق أسعار المواد الأولية تجعل الدول النامية تحول إلى الدول الصناعية من الأموال أكثر بكثير مما تتلقى منها. وأخيرا هناك الغزو الثقافى والسيطرة الثقافية التى يمارسها الغرب من خلال نظم التعليم والإعلام والاتصال، فالتعليم الحديث منتشر فى المدن الصناعية فى حين مازالت غالبية الأقطار العربية تعانى من الأمية، والمتعلمون عندنا تلقوا العلم فى مدارس الغرب أو فى مدارس وجامعات تقلد النمط الغربى للتعليم فى عزلة تامة عن ثقافاتنا، وتاريخنا،

(١) انظر اسماعيل صبرى عبد الله، العرب بين التنمية القطرية والتنمية القومية، المستقبل العربى، العدد ٩، السنة ١٩٧٨ .

وانظر غالي شكرى، الشخصية الثقافية فى عالم متغير ، المستقبل العربى، عدد ١٢ ، ١٩٨٦ .

وقيمنا.

وتبلغ المأساة قمتها حين تهدر اللغة القومية (العربية) وتسود لغة أجنبية التعليم والبحث العلمى والعمل الحكومى.. بل والمعاملات العادية بين الناس.. ومحصلة ذلك كله هو انبهار الفئات العليا والمتعلمة فى مجتمعاتنا بالثقافة الغربية. وحرصها الشديد على تقليد الغرب فى كل شىء. واعتقادها الجازم بأن طريق التقدم الوحيد هو محاكاة الغرب. ومصادر الأخبار تحتكرها أربع وكالات أنباء غربية تختار ما تذيع، وما تحجب . والسينما والتلفزيون (لا سيما مع استخدام الأقمار الصناعية) تنقل القيم الثقافية، وأنماط السلوك. والصور الزاهية لحضارة الغرب حتى إلى الأميين فى أقصى القرى من البلدان العربية.

وهكذا نرى أن المجتمعات العربية لا تواجه روابط اقتصادية غير متكافئة فحسب. فأمور الاقتصاد هنا لا تنفصل عن قضايا الثقافة والاجتماع، والسياسة. فنحن إزاء نظام للعلاقات الدولية له قلب يسيطر ويمارس الفعل داخل المجتمعات العربية، وهذا النظام يشبه الأوضاع الفلكية من حيث أن الجرم الأثقل وزنا يخضع حركة الأجرام الأخرى لحركته ويجذبها حتى تأخذ مكانها فى فلكه وتدور حوله.

وليس المطلوب من عالم الاجتماع الابتعاد عن العمل السياسى، بل إن المطلوب الابتعاد عن العمل السياسى، كبديل للأبحاث الاجتماعية الميدانية طويلة المدى، فالقيام بالأبحاث الميدانية الدقيقة التى تلتزم بوصف الواقع المعقد هى وحدها الكفيلة بإثراء النظرة السياسية، وجعلها قابلة لتغيير الواقع المرير فى كل أوجه المجتمع العربى.

وعلى الباحثين الاجتماعيين العرب أن يعمموا ثقافتهم العربية والدولية حتى يتمكنوا من إجراء النقد اللازم حول المنهجيات التى يستخدمونها فى أعمالهم، وبالتالى حتى يتمكنوا من تكثيف هذه المنهجيات تكييفا جديدا وسليما لمعطيات الواقع العربى، وهذا يتطلب جهدا فكريا كبيرا. للتعويض عما فات الأبحاث الاجتماعية العربية منذ أكثر من ثلاثين عاما، من القيام بالأبحاث المنهجية النقدية. وعليهم أن يحتاطوا فى استخدام المقولات والنماذج الخاصة بالدول الغربية استخداما آليا، وأن يلتصقوا بالواقع المحلى من خلال نظر ثاقب يسمح بإدراك الواقع إدراكا شاملا وصحيحا.

تقنين مقترح لطريقة أداء الحليات فى العزف على آلة الناى

د . محمد أحمد عبد النبى *



تعد آلة الناى من اهم آلات النفخ فى الموسيقى العربية التى لها دور فعال ومؤثر فى الحضارات المختلفةيم وقد اهتم بها قدماء المصريين، وآلة الناى تظهر إمكانيات متعددة، فهى قادرة على أداء ألوان متنوعة من الألحان كما أنها تؤدى ألواناً مختلفة من الارتجالات (التقاسيم) مما يجعلها متميزة فى أداء هذا اللون الذى يؤثر فى وجدان الشعوب .

كان العازفون يعتمدون على السماع والتلقين فى أداء مختلف ألوان الموسيقى العربيةيم ولما عرف التدوين الموسيقى اعتمد عليه الملحنون والمؤلفون فى سرعة تنفيذ أعمالهم واعتبره بعض العازفين انه معطل لإبداعه، وحاول البعض تعلمه، والاجتهاد فيه ولكن دون الاهتمام علي المدى الطويل بأهمية التدوين الموسيقىيم وما يترتب على ذلك من وجود أشكال ومصطلحات ترسم فوق العلامات الموسيقية، يؤديها العازف مضيفا إليها من روحه وإحساساته الأمر الذى يجعل عدم قراءة التدوين الموسيقى والاهتمام به - يؤثر فى أداء العازف لأشكال ومصطلحات التعبير المختلفة التى هى جزء أساسى مرتبط بالتدوين الموسيقى واللحنيمفى تلك الفترة كانت الآلات الموسيقية المستخدمة والموجودة على الساحة الفنية هى ـ الناى ـ القانون ـ العود ـ

* أستاذ مساعد بالمعهد العالى للموسيقى العربية ـ قسم الآلات (الناى) .

وآلات الإيقاع. ولم تكن آلة الأورج وآلة الجيتار تشتركان مع باقى الآلات بشكل دائم .

واهتم عازفو الآلات الوترية بتعلم النوتة الموسيقية دون غيرها من عازفى الآلات العربية الأخرى والتى ذكرناها من قبل. ثم بعد ذلك تم إنشاء المعاهد والفرق الموسيقية المختلفة، وبدأ جيل من العازفين المهرة دراسة الموسيقا والآلات المختلفة فى المعاهد الخاصة والحكومية، وتخرج جيل من العازفين والمغنين على دراية كاملة بأسس الموسيقى والغناء . وكما حدث فى السابق أن الآلات الوترية كان لها النصيب الأكبر من الدراسة والتحصيل ذلك مرجعه وجود مناهج لهذه الآلات تتفق مع إمكانياتها دون الآلات العربية الأخرى . ونخص بالذكر هنا آلة الناى التى تهم بحثنا والتى ظلت حتى الآن دون منهاج دراسى شامل لأهم جوانب التقنيات الحديثة لأهم أساليب وطرق الأداء التعبيرى، وكذلك المدونات الآلية والغنائية المناسبة لإيقاع وروح العصر .

مشكلة البحث :

لاحظ الباحث من خلال عمله أستاذاً لآلة الناى بالمعهد العالى للموسيقى العربية أن الدارسين لآلة الناى اعتادوا أداء حليات ابتكارية فورية عند أدائهم لبعض المقطوعات الموسيقية بمجهود فردى خاص دون الرجوع لأصول وأسس قواعد أداء الحليات، الأمر الذى أدى إلى قصور فى أهم جوانب الأداء التعبيرى، ومن ثم أصبح هناك تباين واختلاف في الأداء الجماعى بين عازفى آلة الناى والآلات الأخرى فى طريقة أداء الحليات والزخارف .

الهدف من البحث :

تقنين وتحديد أسلوب الحليات لدارسى وعازفى آلة الناى للوصول إلى مستوى أفضل للأداء .

وتنبع أهمية هذا البحث من أهمية آلة الناى فى الموسيقى العربية ومن محاولة التوصل إلى اكتساب الدارس والعازف المهارة الخاصة لأداد الحليات بالطرق المتعارف عليها عالمياً، وبذلك يكون البحث قد ساهم بالنذر اليسير فى محاولة الوصول إلى مستوى أفضل لدارسى هذه الآلة .

الإطار النظرى:

لعبت الحليات دوراً فعالاً فى موسيقى الآلات ذات المفاتيح فى القرن السادس عشر بعد أن كانت تزين وتزخرف الموسيقى الغنائية فقط فى القرن الثانى عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر. ويرجع تاريخ

الحلية إلى القرن الثانى عشر، حيث انتقلت الموسيقى فى ذلك الوقت بحلياتها من أسبانيا حيث الحضارة العربية إلى أوروبا. وظلت الحلية من أهم العناصر فى تكوين الموسيقى (٩ / ٨٦١) وفى عصر الباروك والعصر الكلاسيكى ازدهرت الحليات واستخدمها المؤلفون فى الكثير من أعمالهم.

- حليات عصر الباروك : (٨ / ١٢١ - ١٢٤) :

الكادنزا: The Cadenza - الاهتزاز والذبذبة : Tremolo and Cibrato.

الفبراتوا : Vibrato

- حليات العصر الكلاسيكى (٧ / ٣٧٢ - ٣٨٥) (٥ / ٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٥٠).

التريل The Trill - الحلية الدائرية الاستدارة The turn

- الإبجياتيورا The Appoggiatura
- إتشيكاتوا The Acciaccatura
- التآلف المفكك The Arpeggio
- الموردنت Mordente
- الزحلقة The Slide
- البورتامنتو: The Bortamento
- الحليات المستخدمة فى الموسيقى العربية :

تلعب الحليات دوراً هاماً فى أداء الموسيقى العربية وقد أستخدمها المؤلفون والملحنون فى كثير من أعمالهم الأمر الذى أدى إلى وجوب الاهتمام بدراستها والاستفادة منها:

وقد اختار الباحث بعض الحليات التى تناسب آلة الناى والمستخدمة فى الموسيقى العربية يوردها فيما يلى :
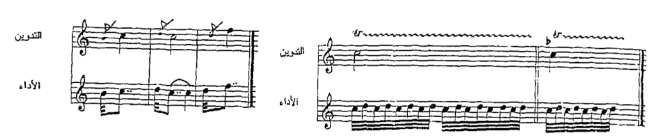
الحلية أو الزخرفة : Ornements (١ / ١٣٤ - ١٣٥)

هى نغمات موسيقية تكتب على هيئة صغيرة أو إشارة خاصة تسبق النغمة الأساسية أو تليها ولا تحسب مدتها الزمنية من أزمنة المازورة بل تأخذ مدتها الزمنية من مدة النغمة الأساسية التى يسبقها أو التى تليها. ومنها :

التريل أو الزغردة : Le Trille :

هى إشارة يرمز لها بالحرفين (Tr) ويتبعها خط متعرج (   ) يوضعان فوق النغمة الأساسية ويدلان على تكرار هذه النغمة التى تعلوها بدرجة متصلة، ويؤديان فى سرعة كبيرة منتظمة. وتكرر هاتان النغمتان حتى تنتهى المدة الزمنية لهذه النغمة الأساسية كما فى

نموذج رقم (١)



نموذج رقم (٢)

نموذج رقم (١)

ـ نغـمــات الارتكاز (الإتشــيكاتوا) Acciacctura كـــمــــا تــســـمــى Appogiature (١ / ١٣٢ ـ ١٣٣).
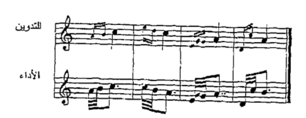
نغمة موسيقية أو أكثر تسبق النغمة الأساسية وتكتب على هيئة صغيرة وتأخذ هذه النغمة أو هذه النغميات مدتها الزمنية من بدء المدة الزمنية للنغمة الأساسية وتؤدى هذه النغمة أو النغمات فى سرعة كبيرة وتؤدى عـادة كـمـا يؤدى (التـربل كـروش). ومنها :

أ ـ الفردى :

هـو نغـمـــة فى زمن (الكروش) تسـبق النغـمة الأساسـيـة ويقطعـهـما خط صـغـير ويدون على هيئة صغيرة . كـما فى نموذج رقم (٢).

ب ـ المزدوج :

همـا نغـمـتـان فى زمن (الدبل كـروش) تسبقان النغمة الأساسية وتدونان على هيئة صغيرة على ألا يكون احدى هاتين النغمتين من نفس الطبقة الصوتية للنغمة الأساسية. وهاتان النغمتان تأخذان مدتهما الزمنية من زمن النغـمـة الأسـاسـيـة التى تليـهـمـا أو تسبـقـهمـا وتؤديان بسرعة بالنسبة للنغـمة الأساسية. كما فى نموذج رقم (٣).
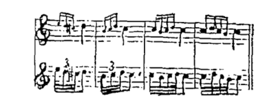


نموذج رقم (٣)

الجربتو: Le grupetto (١ / ١٢٦ ـ ١٢٧)

هى مجموعة إما من ثلاث نغمات أو من

أربعة نغمات بدرجات متصلة تسبق النغمة الأساسية أو تليها على أن تكون نغمات المجموعة أعلى من النغمة الأساسية ونغمة أخرى أسفلها أو أن تبتدئ المجموعة بنغمة تكون من نفس الطبقة الصوتية للنغمة الأساسية كما فى نموذج رقم (٤).

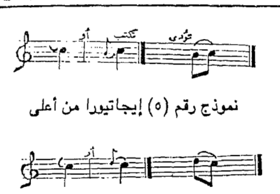


نموذج رقم (٤)

The Appoggiatura الابجاتيورا
(٥ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ـ ٢٤٨):

تسمى بالألمانية فوشلاج وهى اللمسة القوية التى تعزف فى الزمن الخاص بنغمة ما مجاورة غريبة عن الهارمونية فتصلها بالنغمة التى تتطلبها الهارمونية وهى عبارة عن علامة تركيز ذات استمرار مختلف تكتب قبل النغمة الأساسية أو أسفلها. والابجاتيورا تأخذ نصف زمن النغمة الأساسية التى تليها أو أقل من نصف الزمن. كما فى نموذج (٥ ، ٦)

نموذج رقم (٥) إيجاتيورا من أسفل



نموذج رقم (٥) إيجاتيورا من أعلى

انزلاق ـ تزحلق : Glissndo (٢ / ١٨٧).

انزلاق (زحلقة) الإصبع بسرعة كبيرة على أوتار الآلات القوسية يسميها الإيطاليون بصفة غير منتظمة حلية سريعة Acciacatura وتحدث بين نغمتى مسافة الثالثة الهارمونية وأحياناً بين نغمتى مسافة الرابعة التامة أو أكثر (٤ / ٢٥٧)

ويرى الباحث أنه من خلال العزف على آلة الناى قرابة خمسة وعشرين عاما نجدُ أن أداء الانزلاق (Glissando) يخضع لأسلوب أداء العازف وخاصة فى الأداء المنفرد (Solo) الذى تتميز به آلة الناى. ويرى الباحث أن المدرس لابد وأن يقدم للدارس الشرح لطريقة وأسلوب أداء الحليات التى تحتاج لأدائها إلى قدرات خاصة وذلك حسب المستوى التحصيلى لكل دارس.

الفيبراتو: Vibrato (٣ / ٧٦)

هو طريقة أداء تعطى نوعية من التعبير بصوت احدى النغمات بواسطة ذبذبات لحظية سريعة للطبقات الصوتية. ويختلف آداؤها حسب نوع الوسيط غناء كان أو الآت وترية أو آلات نفخ أو آلات ذات لوحة مفاتيح

وهناك نوعان من الفيبراتو يستعملان فى أداء آلة الناى وهما :

ـ فيبراتو الرأس، يؤدى بواسطة هز الرأس:
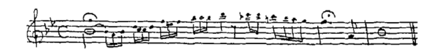
ـ فيبراتوا هز الآلة ، وينتج عن هز الآلة:

يستعمل فيبراتو هز الرأس فى العزف على آلة الناى بتغلب فيبراتو الحدة على فيبراتو الشدة؛ لأن الفيبراتو هنا يحدث نتيجة للتغيير المتناوب لموقع اصطدام التيار الهوائى، ويرى الباحث أن استخدام الفيبراتو فى أداء الليجاتو Legato واحد من أهم الوسائط التعبيرية الأدائية الواسعة الانتشار فى الفن الأدائى على آلة الناى وعلى كافة الآلات الموسيقية، فاستعمال الفيبراتو هنا يمهد إلى ليونة وسلاسة الانتقال من نغمة إلى أخرى.

وتفتقر معظم كتب أصول العزف على الفلوت خاصة والآلات الهرائية عامة إلى ذكر أى شىء عن موضوع الفيبراتو ويقتصر بعضها على ذكر ضرورته الموسيقية وشىء ضئيل عن بعض طرق إخراجه. ويرى الباحث أن أداء الفيبراتو على ألة الناى لا يرتبط بآلية قراءة العازف بل هو خاضع تماماً لرغبانه الموسيقية فى كل جملة. كما يخضع عامة لدرجة تدريبه على تربية طابع أدائه الشخصى الذى يميزه عن غيره من العازفين .

الكادنزا The ceadenza (٥ / ٣٤ ـ ٣٥) :

ارتجالات حرة تستعمل لتزيين النهاية. وهى امتداد للحلية خارج إطار الميزان فى الحركة. وتعتبر الكادنزا قمة أنواع الحليات ولذلك فمن الطبيعى أن يؤجلها المؤلف ليصل بها إلى قمة الزخرفة الموسيقية . وهى عبارة عن نغمات كثيرة متتابعة بدرجات متصلة أو منفصلة تدون على هيئة صغيرة وهذه النغمة تسبقها نغمة أساسية أو سكته تكون فوق علامة الإطالة (Corona) وتكون هذه النغمات خارجة عن أزمنة المازورة كما فى نموذج رقم (٧)



نموذج رقم (٧)

ويرى الباحث أن الكادنزا تستخدم بكثرة فى الموسيقى العربية فيبدأ بها المؤلف الموسيقى، كما فى لونجا الفراشة وموسيقى مناجاة لعطية شرارة، وأحيانا تكون قبل الحركة الثالثة كما فى كونشرتو الناى لعطية شرارة، والكادنزا يؤديها العازف مضيفا إليها بعض الارتجالات مع الاحتفاظ بروح المقام الموسيقى وهى تبين مهارة العازف المنفرد.

الاطار التطبيقى : يتضمن :
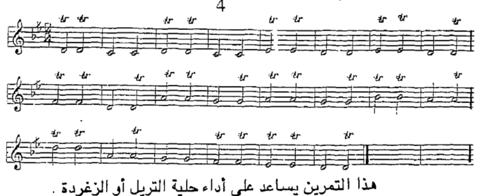
ـ تمرينات تطبيقية مقترحة فى مقامات متنوعة لأداء هذه الحليات .

ـ نماذج تطبيقية مقترحة لبعض المقطوعات الموسيقية قام الباحث بوضع الحليات المناسبة لها.

ـ التمرينات التطبيقية المقترحة :

أولاً : ـ التريل أو الزغردة .

التمرين الأول : فى مقام البياتى ميزان $\frac{4}{4}$ فى زمن البلاتش .

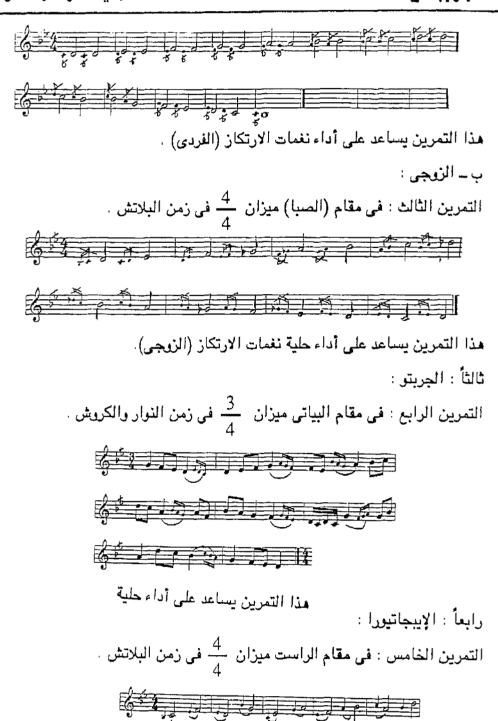


هذا التمرين يساعد على أداء حلية التريل أو الزغردة .

ثانياً : نغمات الاتكاز القصيرة (الفردى ـ الزوجى) ،

أ ـ الفردى :

التمرين الثانى : فى مقام (العجم) ميزان $\frac{4}{4}$ فى زمن البلاتش



هذا التمرين يساعد على أداء نغمات الارتكاز (الفردى) .

ب ـ الزوجى :

التمرين الثالث : فى مقام (الصبا) ميزان $\frac{4}{4}$ فى زمن البلاتش .

هذا التمرين يساعد على أداء حلية نغمات الارتكاز (الزوجى).

ثالثاً : الجربتو :

التمرين الرابع : فى مقام البياتى ميزان $\frac{3}{4}$ فى زمن النوار والكروش .

هذا التمرين يساعد على أداء حلية

رابعاً : الإبيجاتيورا :

التمرين الخامس : فى مقام الراست ميزان $\frac{4}{4}$ فى زمن البلاتش .

هذا التمرين يساعد على أداء حلية الإبيجاتيورا .

ـ نماذج تطبيقية لبعض المقطوعات الموسيقية :

اختيار الباحث نموجين :

النموذج الأول: موسيقى عزيزة لحن محمد عبد الوهاب ميزان $\frac{4}{4}$ عدد الموازير ٤٩ .

قام الباحث بوضع الحليات المناسبة على عدد من الموازير.

اشتملت موسيقى عزيزة على الحليات الآتية :

ـ حلية التريل جاءت فى مازورات أرقام (٣ ، ٥ ، ٧ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٠)

ـ حلية الإتشيكاتورا جاءت فى مازوات أرقام (١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٤١) .

ـ حلية الأبجياتيورا جاءت فى مازورات أرقام (١ ، ٤ ، ١٢ ، ٢١) .

ـ حلية الجريبتو جاءت فى مازورات أرقام (٢٣ ، ٢٥ ، ٣٧) .

النموزج الثانى : موسيقى بنت البلد لحن محمد عبد الوهاب مقام بياتى ميزان $\frac{4}{4}$ عدد الموازير ٣٩ .

اشتملت موسيقى بنت البلد على الحليات الآتية
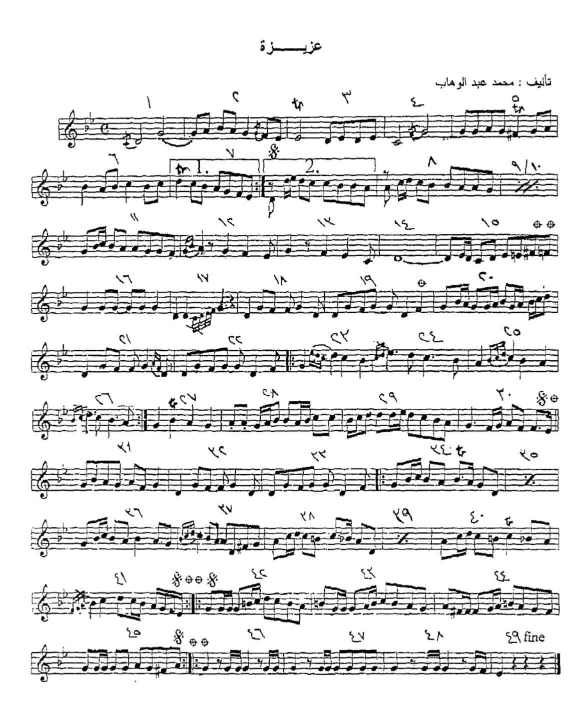
ـ حلية التريل جاءت فى مازورات أرقام (٣ ، ١٤ ، ٣٤)

ـ حلية الإتشيكاتورا جاءت فى مازوات أرقام (٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٣٥)

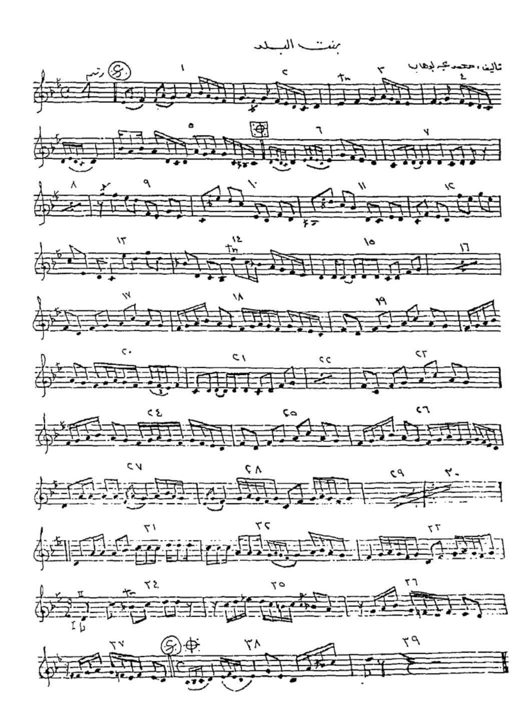
ـ حلية الأبجياتيورا جاءت فى مازورات أرقام (١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠)

ـ حلية الجريبتو جاءت فى مازورات أرقام (٤ ، ٦ ، ٢٢ ، ٣٨) .

النموذج الأول : عزيزة تأليف محمد عبد الوهاب



النموذج الثاني : بنت البلد تأليف محمد عبد الوهاب



نتائج البحث :

قام الباحث بعرض لتاريخ آلة الناى والمراحل التى مر بها العازفون لتعلم التدوين الموسيقى، وما ترتب على ذلك من قصور فى الأداء التعبيرى لعازفى آلة الناى، وعرض الباحث تاريخ الحليات فى عصر الباروك والعصر الكلاسيكى منها الكادنزا ـ الإهتزاز والذبذبة ـ الفيبراتو ـ التريل ـ السليد ـ الزحلقة ـ البورتامنتو ـ الجربتو ـ نوت الارتكاز (الإتشيكاتور). واختار بعض الحليات المناسبة لآلة الناى والمستخدمة بكثرة فى الموسيقى العربية والتى هى موضوع البحث. واقترح تمرينات تطبيقية لأداء هذه الحليات ليتمكن الدارسون من طريقة الحليات بالطرق المتعارف عليهاعالمياً. واختار الباحث بعض النماذج لمقطوعات موسيقية معروفة. وقام بوضع بعض الحليات المناسبة لها على عدد من الموازير .

ـ خبراء فى مجال العزف على آلة الناى :

د . محمد أحمد عبد النبى : أستاذ مساعد لآلة الناى بقسم الآلات بالمعهد العالى للموسيقى العربية، أكاديمية الفنون .

د . قدرى مصطفى سرور : أستاذ مساعد لآلة الناى بقسم الموسيقى العربية، كلية التربية الموسيقية جامعة حلوان .

د . عاطف إمام فهمى : أستاذ مساعد لآلة الناى بقسم الآلات بالمعهد العالى للموسيقى العربية، أكاديمية الفنون :

أ . عبد الحميد عبد الغفار : عازف ناى وخبير الموسيقى العربية بوزارة الثقافة .

قام الباحث بتوزيع استمارة استطلاع رأى الخبراء فى مجال العزف على الناى، وجلس مع كل منهم لشرح فكرة البحث والهدف منه ثم بدأ فى جمعها وأخذ آرائهم .

استخلص الباحث رأى الخبراء فى :

ـ التمرينات التطبيقية المقترحة لأداء الحليات.

ـ المقطوعات الموسيقية والحليات التى أدخلت عليها.

ـ وقد جاءت نتائجها كالآتى :

حصلت التمرينات التطبيقية المقترحة لأداء الحليات على موافقة جماعية بنسبة ١٠٠٪ وحصلت فكرة المقطوعات الموسيقية التطبيقية والحليات التى أدخلت عليها بنسبة ١٠٠٪.

توصيات البحث :

فى ضوء ما توصل إليه الباحث من نتائج ومن أجل التوصل لمستوى أفضل لدارسى آلة

الناى يتقدم الباحث ببعض التوصيات والمقترحات يوردها فيما يلى :

ـ يوصى الباحث أساتذة آلة الناى وضع خاص لأسس قواعد أداء الحليات

ـ ضرورة وجود مقطوعات موسيقية تشتمل على أهم الحليات المستخدمة فى الموسيقى العربية .

ـ الاطلاع على أهم أساليب وطرق أداء الحليات .

ـ تقديم المدرس الشرح والتدريب على طريقة أداء الحليات .

قائمة المراجع:

(١) أحمد بيومى : قواعد الموسيقى ونظرياتها ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٤ .

(٢) أحمد بيومى : القاموس الموسيقى ـ القاهرة ـ الهيئة العامة للمركز الثقافى القومى (دارالأوبرا) ـ ١٩٩٢

(٣) حسام يعقوب إسحاق : الفيبراتو كواسطة فنية تعبيرية فى العزف على الفلوت ـ العراق ـ منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقى ـ ١٩٨١ .

(٤) سعيد فهمى عوض : صعوبة توحيد الحليات لعازفى آلة الكمان العربى وكيفية التغلب عليها ـ رسالة دكتوراه ـ بحث غير منشور ـ المعهد العالى للموسيقى العربية ـ أكاديمية الفنون ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

(٥) سلوى عزت أمين : تدرج أساليب عزف الحليات من عصر الباروك إلى آخر عصر الكلاسيكى ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية التربية الموسيقية ـ جامعة حلوان ـ القاهرة ـ ١٩٨٠

(6) Basrien James w, : How to teach piano success fully general words and unsic publishers 1973 .

(7) Doningtan, Robert , The in terpretation of early unsic first published, London, 1963 .

(8)The new Grove Dictionary of music and musicans, Edited by slanly sadi, macmillan publishers limited , 1980 .

تاريخية الرؤية المعاصرة في إضاءة التراث النقدى

د. حسن البندارى *

(١)

عمد بعض الباحثين منذ ثلاثينيات هذا القرن - إلى دراسة «نصوص النقد العربى القديم» برؤية ذات طابع ثنائى «تاريخى - فنى»، غايتها إضاءة النصوص بمنهج معتدل أحياناً ومقتحم غالباً. وقد تأسس «الاعتدال» على تجنب تحميل النصوص غير ما تحتوى عليه أو عدم «إقحام ما لم يخطر بعقول المؤلفين القدماء من نظريات وآراء»(١)، ويؤكد ذلك قول أحد الدراسين بأنه ينبغى على أن أترك النقاد القدامى يتحدثون بلغتهم «فلا أترجم ما قالوه إلى لغة نقدية معاصرة،إلا فى حالات قليلة جداً، حين تستغلق العبارة على القارئ المعاصر، كما هى الحال فى نقد حازم القرطاجنى»(٢)، وربما ظهرت هذه النظرة بمظهر سلبى، لا نحيازها إلى النصوص وتغليب الإشادة بعبقرية أصحابها.

* أستاذ النقد الأدبى . بكلية البنات . جامعة عين شمس.

(١) د. محمد مندور .النقد المنهجى عند العرب، نهضة مصر. ط (٢) ١٩٧٢ ص٦ .

(٢) د . إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبى عند العرب. نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى . دار الشروق، عمان ـ الأردن - طبعة ١٩٩٣ ص ١٢ .

ويعنى «الاقتحام» بأن الباحث يتخذ أسلوب «حوار التراث» الذى يخمل الإشادة الغالية، لأنها تخلو من التقويم الموضوعى للنص، ولأنها ليست سوى «تجاهل للحقائق الأدبية والنقدية فى أدبنا المعاصر نفسه فضلاً عن الآداب العالمية، كما أن وقوف الباحث عند حدود الشرح والإحصاء لهذه الآراء - يفقده الأصالة فيعيش بآرائه فى غير عصره عن قصور أو ضيق أفق»(١).

وقد أفاد البحث النقدى «المعتدل» و«المقتحم» من معالم هذا الاتجاه ومفرداته التى ترددت فى المؤلفات الأوروبية الحديثة، مثل «البحث عن الوثائق أو الهورسطيقا» Heuristik، و«نقد المصدر»، و«نقد التفسير الهرمنوطيقا» ونقد النص -Textk ritik، و«الترتيب النقدى للمراجع» الذى يتنوع إلى «تصفح» recensio، وإصلاح emendato وفحص النص -exami natio (٢).

وتمثلت الإفادة من هذا الاتجاه فى تسرب بعض هذه المفردات إلى عدد من المؤلفات العربية التى عرضت لنصوص التراث النقدى، إذ استغل أصحابها هذه المفردات لإضاءة النصوص موضع النظر، لا سيما أن غيرنص منها قد احتوى على بعضها. كطبقات فحول الشعراء لابن سلام الذى قسم الشعراء إلى طبقات على أساس زمنى ومكانى، وعنى بـ «توثيق الشعر» و«صحة نسبته إلى قائله(٣). وكتاب الحيوان للجاحظ الذى تناول تأثير البيئة والموهبة والجنس فى الشعر(٤). وكتاب الوساطة للجرجانى، الذى ألمح إلى تأثر الشعر وقائله بالبيئة(٥).

ويؤكد قيمة هذه الإفادة بعض الباحثين المعاصرين حين رأوا ضرورة الاستفادة من تجارب الغير، ومن التقدم المنهجى الكبير الذى أحرزه الباحثون الأوروبيون فى مجال الأدب واللغة(٦) وإن أبدوا حذرهم من التوسع فى فرض مذاهب الآداب الغربية على النصين الإبداعى والنقدى(٧). وهى

(١) د . محمد غنيمى هلال: دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده،، نهضة مصر د . ت صـ ٩

(٢) لانجلوا وسينوبوس، وبول ماس، وإما نويل كانت: النقد التاريخى ترجمة د. عبد الرحمن بدوى - دار النهضة العربية طبعة (١) ١٩٧٠م صفحات ٣٣ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ١٢٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ .

(٣) طبقات فحول الشعراء. تحقيق : محمود شاكر. المدنى - القاهرة ١٩٧٤ صـ٧ وما بعدها.

(٤) الحيوان . تحقيق : عبد السلام هارون . الحلبى مصر - ١٩٣٨ - ٤ / ٣٨ .

(٥) الوساطة : تحقيق أبو الفضل، والبجاوى، العصرية، بيروت ط ١٩٦٩ ، صـ١٨ .

(٦) النقد المنهجى ص ٦ .

(٧) أحمد الشايب - تمهيد ص أ» بتاريخ ١٩٢٧ - الذى مهد لكتاب طه أحمد إبراهيم تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى ط (١) ١٩٣٧

المذاهب التى لم تخطر على عقول نقادنا القدامى ـ كما أشرنا منذ قليل .

والواقع أن الباحث محق فى هذا الحذر تجاه الأفكار المطروحة عليه، خاصة إذا نظر إليها بمعيار عملى نفعى من زاوية اعتقاده بأنه «لا قيمة لفكرة تستفاد من ثقافة أخرى إلا بقدر ما تلبى حاجة أو تحل مشكلا، أو تضىء سبيلاً»(١).

لكنهم نبهوا رغم هذا التحذير إلى عدم الاقتصار على ما كتبه الأقدمون من نقاد الأدب العربى أمثال قدامة والآمدى والجرجانى وابن رشيق وغيرهم ممن غلبت على مذاهبهم الأفكار الجزئية والمباحث الموجزة الضيقة والنظرات السريعة، لأن الفن الأدبى يحمل طاقات عاطفية وشعورية تعكس مزاج صاحبه، وإمكانيات بيئية ذات دلالات مختلفة .

وفى ضوء هذا كان من الضرورى التفكير فى تحرير الدرس النقدى من الدائرة الشكلية الجزئية وتنظيمه وإقامته على أسس سليمة، وذلك بالاتجاه إلى دراسته بثنائية «تاريخية فنية» تعنى بأطواره وأصول أحكامه اللفظية والمعنوية وعوامل الابقاء على هذه الأصول أو تغييرها، والمؤثرات التى تدخلت فى صياغة أحكامه حقاً أو باطلاً، ومظاهر الحضارة العربية والأجنبية التى كان لها سلطان على فنّ النقد الأدبى (٢).

فكل من الجانب التاريخى والجانب الفنى اعتمده عدد من الباحثين المعاصرين من حيث أنهما يمثلان فن النقد الأدبى الخاص بهذا الاتجاه، على نحو ما نرى ذلك فى مؤلفاتهم التى شقت لها اتجاهاً متميّزاً– وسط المؤلفات النقدية الأخرى– يتمتع بالأصالة لاتسامه بالتطور الطبيعى؛ فقد بدأ بدراسات تتصف بروح حذرة مترددة، ثم ما لبث أن قوى وتمكن بدراسات أخرى جنحت إلى التحاور مع التراث تحاوراً قام على الفحص والتحليل الفنى. وهذه المؤلفات منها ماهو كتب موسّعة ومنها ما هو بحوث مركزة.

فمن الكتب: تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى لطه إبراهيم ١٩٣٣، والنقد المنهجى عند العرب للدكتور محمد مندور ١٩٤٣، ودراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث للدكتور بدوى طبانة (١٩٥٣)· وأسس النقد الأدبى

(١) د. سعد مصلوح: شكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية. ضمن المجلد (٢): قراءة جديدة لتراثنا النقدى ـ نادى جدة ـ السعودية ط (١) ١٩٨٨ ص ٨٢١ .

(٢) أحمد الشايب . مقدمة كتاب تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم صفحات ح ، هـ ، و .

عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى (١٩٥٨)، وتاريخ النقد الأدبى عند العرب: نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن للدكتور إحسان عباس (١٩٧١)، واتجاهات النقد الأدبى فى القرن الرابع للهجرة للدكتور أحمد مطلوب (١٩٧٣)، ونقد الشعر فى القرن الرابع الهجرى للدكتور قاسم مومنى (١٩٨٢)، وقيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم (١٩٨٩)، ومقاييس الحكم الموجز فى الموروث النقدى (١٩٩١) للدكتور حسن البندارى وغير ذلك من الكتب.

ومن البحوث المركزة: جناية عمود الشعر على الشعر العربى (ضمن كتاب: دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده. للدكتور محمد غنيمى هلال (١٩٦٩)، والنقد العربى القديم والمنهجية للدكتور عبد القادر القط: بمجلة فصول (١٩٨١)، ونظرة فى كتاب المثل السائر للدكتور محمد الهادى الطرابلسى بقراءة جديدة لتراثنا النقدى (المجلد الأول) (١٩٨٨). وتنويع الحكم النقدى بالوصف والتصوير للدكتور حسن البندارى بدراسات عربية وإسلامية(١٩٩٣). وغير ذلك من البحوث.

(٢)

ولئن اتسمت هذه الكتب والبحوث بفروق فى الرؤى البحثية وتمايز فى التناول واختلاف فى التوجّه والنهج ـ فإنها تشترك جميعاً فى «التاريخية الفنية» وفى الاعتماد-الغالب-على مفردات هذه الثنائية، مما استدعى جمع معطياتها وتصنيفها والتقريب بين المتشابه والمتوافق منها وحصره ما أمكن فى سبعة محاور هى: «نقد المصدر»، و«تحقيق النصوص ونسبتها»، و«الإحاطة التتبعية»، و«تاريخية التناول»، والتسرب الثقافى، و«التحوّل أو العدول» و«التحليل النوعى».

أما المحور الأول وهو «نقد المصدر» فيعنى أن عدداً من باحثى هذا الاتجاه قد دعوا عند دراسة التراث النقدى إلى اتخاذ ستة إجراءات ضرورية: أولها: «تجميع الكتب أو النصوص القديمة» التى تدرس ظاهرة معينة بغية الاعتماد على بعضها أثناء دراسة هذه المسألة على نحو ما بين ذلك د. محمد مندور وهو يتابع بالتحليل موازنة الآمدى التى تشبه الموازنة المعاصرة(١) وثانيها «البحث فى المصادر المختلفة» لصاحب النص النقدى موضوع

(١) النقد المنهجى عند العرب صـ ١٥ .

الدراسة بأن نلتمس مثلاً المصادر المتنوعة للأحكام النقدية التى استند إليها الآمدى وهو يفحص شيوع ظاهرة البديع فى شعر أبى تمام(١). أو المصادر التى اعتمد عليها حازم القرطاجنى وهو يتناول العلاقة بين الشاعر والمتلقى(٢) ثالثها: «دراسة الملاحظات النقدية السابقة» التى وجهت إلى شاعر معين وذلك لتكوين رؤية منصفة غير بعيدة عن النظر النقدى الحديث(٣). ورابعها: «دراسة الشروح التى تناولت شعر الشاعر لمعرفة أثرها وتأثيرها على نحو ما تم بالنسبة لشروح ابن جنى لشعر المتنبى. وطرق الكتب التى عرضت لتلك الشروح(٤) . وخامسها: «دراسة الروايات المتفاوتة» باعتبارها مصدراً للنص النقدى كما صنع حسن البندارى عندما درس روايتى الحكم النقدى لطرفة بن العبد على بعض شعر المسيب بن علس، أو عمرو بن كلثوم(٥)، وطه إبراهيم حين فحص مدى صحة «الرواية» التى تعرضت لأم جندب وامرئ القيس وعلقمة الفحل، لارتكازها على حكم ذى مقياس نقدى، وكيف خامره الشك فى صحتها(٦) . وسادسها : يختص ببحث أصول الكتاب النقدى، ككتاب الموازنة، الذى يرجع إلى مؤلفات القرن الثالث الهجرى(٧).

ويستند باحثوا المحور الثانى «تحقيق النصوص ونسبتها» إلى أربعة أفكار متنوعة.

الأولى: فكرة فحص الشعر «الموضوع» أو «المنحول» على النحو الذى نهض به: طه إبراهيم، ومحمد مندور، وبدوى طبانة، وطاهر درويش، وحسن البندارى وسواهم - حيث اتفق هؤلاء على أن ابن سلام طبق الروح العلمية «بإسناد كل قول إلى صاحبه، وكل شعر إلى عصره(٨). واستعمل أدلة عقلية ولغوية ونقلية وفنية. تتعلق بحداثة العربية الفصحى، واستبعاد أى قصيدة

(١) السابق صفحات ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .
(٢) د . حسن البندارى: حولية كلية البنات جامعة عين شمس عدد ١٦ / ١٩٩٠ .
(٣) السابق صـ ١٩٠ ، صـ ٢١٠ .
(٤) السابق صـ ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٥) مقاييس الحكم الموجز فى الموروث النقدى، الأنجلو المصرية ط(١) ١٩٩١ صـ ٧ ، ٨ .
(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى ط (١) ١٩٣٧ ص - ٢٠ ، ٢٢ .
(٧) السابق ص ١٧٦ .
(٨) السابق ص ٧٦ . وحسن البندارى: قيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم الأنجلو المصرية ط(١) ١٩٨٩ صـ ٨١ .

تعزى إلى عهد أقدم من عهد المقصدين للقصيدة وهم امرؤ القيس ومهلهل وطرفة، وبأنه ـ ابن سلام ـ توصل إلى أسباب ظهور هذه المشكلة المنحصرة فى «العصبية النوعية»، و«ألوان الرواة»(١). كما بين الباحثون الأربعة الأول، وفى «عملية التدوين» عند الباحث الأخير(٢)، وبأن صنيع ابن سلام في «تحقيق النصوص» و «وصحة نسبتها» إجراء أساسى فى العملية النقدية تيسره «الدربة» على قراءة النصوص والتمرس بها(٣).

والفكرة الثانية هى «فكرة فحص «النسخ القديمة» الأخرى غير المعروفة، فبها يتمكن الدارس من «تحقيق النص قبل الحكم عليه». كما فعل الآمدى حين اطلع على النسخ العتيقة التى جهلها الصولى. وهذا الاطلاع يمثل «أولى مراحل النقد المنهجى المستقيم»(٤).

والثالثة تتعلق بحاجة الدارس إلى «المعرفة الواسعة» بأسماء الأماكن، وأسماء الأشجار والنبات والمواضع والمياه التى ترد فى الشعر حتى يستطاع معرفة الصواب فيها على وجه الحقيقة وللتأكد من صحة نطقها(٥).

وأما الفكرة الرابعة فإنها تتصل بضرورة التأكد من أن الكلمة فى النص أو العبارة ـ لم يدخلها تصحيف ولا تحريف(٦).

وأما المحور الثالث وهو «الإحاطة التتبعية» فيتجلى فى «الوعى الشامل بمذاهب الشعر وفنونه»؛ فالآمدى فى الموازنة لا يكتفى «بالخوض فى أشعار أبى تمام والبحترى، ولكنه يتعرض لكثير من شؤون الشعر العربى القديم والمحدث خاصة، وكذلك كتاب الوساطة؛ فهو يتصدى للبحث فى شعر المتنبى، ويعرض فى الاستشهاد أو التدليل أو التماس العذر إلى كثير من الشعراء»(٧). كما تتجلى فى الوعى بعلوم اللغة لتوضيح أحكام النقد وتعليلها، وبالأحداث التاريخية المواكبة للفن الشعرى وتقاليده لدى الشعراء، وبمتابعة من تناولوا الشاعر على مر السنين؛ فأبو هلال العسكرى يدير حواراً مع المتنبى مفسحاً

(١) السابق ص ٨٠ والنقد المنهجى ص ١٩ .

(٢) فى النقد الأدبى عند العرب ـ دار المعارف بمصر ط (١) ص ١٤٤ .

(٣) النقد المنهجى ص ١٩ . (٤) السابق ص ١٠٤ .

(٥) د . أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب . نهضة مصر ص (٢) ١٩٦٠ ص ٢٩١ .

(٦) السابق ص ٢٩١ .)

٧) طه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٥١ ، ١٥٢ .

المجال لغيره بغرض استمرار هذا الحوار الذى تولته فى العصر الحديث دراسات زكى مبارك التى أودعها كتابه «النثر الفنى». كما تتضح هذه الإحاطة فى ملاحظة القضية أو الظاهرة المعينة الواحدة فى بلدان عديدة. مثل قضية «الخصومة» ـ التى ثارت فى جرجان على يد على بن عبد العزيز الجرجانى، وفى فارس بنظرات ابن العميد، وفى بغداد بمناقشات ابن جنى.. وظاهرة «التوجه البديعى» فى الشعر التى درسها الجاحظ وابن المعتز فاستقرت اصطلاحيا فى كتاب البديع(١)، وتنامت فى غير كتاب مثل بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى. وظاهرة «الأخذ الفنى أو السرقات». التى أخذت حيزا واسعاً فى التراث النقدى(٢)

ويتمثل المحور الرابع «تاريخية التناول النوعى» فى فحص الباحثين المعاصرين للتراث النقدى من عدة زوايا؛ الأولى: «النشأة والمرجعية» ففيها جاء تفريقهم بين علم البيان وعلم النقد الأدبى. فعلم البيان يرجع إلى أصل واحد، لأنه عربى محض، بينما يرجع علم النقد الأدبى إلى جملة أصول فنية ترجع إلى المزاج العربى، وأمزجة أخرى ليست بعربية. وعلم النقد نما وترعرع فى كنف الشعراء والرواة والمتأدبين بينما ترعرع ونما علم البيان فى كنف المتكلمين، ومن هم إلى الفكر والعلم أقرب، وعلم النقد ظهر فى الشعر.. على حين ظهر علم البيان فى النثر»(٣).

والزواية الثانية تتصل بتطور كلمات أو صيغ بعينها كصيغ «نقد» و «أدب» و «شعر» و «نثر»، و «موهبة» و «تكسب»، وغير ذلك من الصيغ التى حظيت بنظرات أجيال النقاد واللغويين.(٤). والثالثة : دراسة القضية النقدية «كعمود الشعر»، وكيف أنها أضرت بالشعر العربى أو لم تضربه عبر مسيرته(٥)، وقضية «اللفظ والمعنى». وتتضمن هذه الزاوية تاريخية تناول معنى نص شعرى بشكل متباين (٦)، مثل نص

(١) د . بدوى طبانه دراسات فى نقد الأدب صـ ٢٤٨ .

(٢) د . حسن البندارى: قيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم ١٢٧، وما بعدها ، والصنعة الفنية فى التراث النقدى مركز الحضارة العربية ، ط (١) صـ١٢٧، وما بعدها.

(٣) طه إبراهيم : المرجع السابق صـ ٦

(٤) د . أحمد بدوى أسس النقد ص ١ ـ ٩ .

(٥) د . غنيمى هلال : دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده صـ ٩ ، ود. حسن البندارى عمود الشعريين والثبات والتحول ط (١) الأنجلو المصرية صـ٧، وما بعدها.

(٦) د . حسن البندارى تكوين الخطاب النفسى فى النقد العربى القديم طـ (١) الأنجلو المصرية ١٩٩٣ص ١٠٨ .

يتألف من ثلاثة أبيات اشتهرت فى تاريخ النقد العربى وهى :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطىّ الأباطح(١)

فعلى حين قرر كل من ابن قتيبة، وقدامة ابن جعفر، وأبى هلال العسكرى «توْهين معناها» لتفاهتها رغم تسليمهم بفصاحة ألفاظها وإحكام صنعتها ـ نجد من تصدى للدفاع عنها مثل ابن جنى وعبد القاهر حيث أشادا بألفاظها وبمعناها(٢).

وتكمن الزواية الرابعة فى الوقوف على تطور قضية «الصراع بين القديم والحديث» وتأصيلها على نحو ما عمد إلى ذلك عدد من الباحثين(٣).

ويبدو المحور الخامس وهو«التسرب ـ «والإسقاطالثقافى» فى كونه عنصراً أساسياً لتشكيل الرؤية النقدية لفاحص العمل الأدبى، على اعتبار أنه مكتسبات معرفية سابقة عليه أو مصاحبة له، سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة. وقد تمثل ذلك فى دراسة أفكار نقدية مثل «الخصومة بين القدماء والمحدثين» التى استعين فى تجليتها بمبدأين نقديين ترددا فى البيئات النقدية العربية وهما «ذاتية النقد» من حيث قيامه على الشعور والذوق، مما جعله ذلك يختلف باختلاف الأذواق. و «وفنية النقد» من جهة خوضه فى عناصر الأدب بالتحليل والتعليل(٤).

وفى هذا المجرى بحث المعاصرون «التأثير الأجنبى» فى النقد القديم، «وتأثره» بالإطار الثقافى المحيط به؛ فوجدوا أن

---

(١) كثير بن عبد الرحمن ، ديوانه ١ / ٧٩ وقد نسبت إلى كل من : يزيد بن الطثرية وعقبة بن كعب بن زهير.

(٢) تاريخ النقد الأدبى عن العرب ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(٣) مثل طه إبراهيم فى تاريخ النقد ص٨٩، ومحمد مندور فى النقد المنهجى ص ١٦٣ ، ١٨٦ ، ٢٤٩، وأحمد بدوى فى أسس النقد الأدبى عند العرب صـ( ) واحسان عباس فى : تاريخ النقد .. نقد الشعر ص ١٤٧ ، ٢٥٢ ، ٣١٢ .

(٤) طه إبراهيم ، تاريخ النقد ص ٨٩ .

القدامى رحبوا بهذا التأثير وإن آثروه ـ كما ندعو اليوم ـ متسماً بالاتزان. ومن ثم نادوا بالاعتدال فى الجمع بين القديم والحديث، كما وجدوا أن تأثر الناقد بالإطار الثقافى المحيط به مظهر لإمكان الاستعانة بإنجازات كل من علماء الدين، وعلماء العربية، ورجال الترجمة. وبعبارة أخرى: الاستعانة بفكرة «علمية الفترة الزمنية وفكرها»(١). التى أثرت بدورها فى حركة النقد الأدبى الذى أصبح يعتمد على مصادر ثقافية متنوعة تتمثل فى الذهنيات المتعاقبة للغويين والأدباء والعلماء المثقفين بثقافة أجنبية، والعلماء المتأثرين كل التأثر بالثقافة اليونانية.

وعلى الرغم مما تتضمنه دراسات المعاصرين لصنيع القدامى من «موافقة» على الاستعانة بالرؤى الأجنبية فى دراسة الأدب، ومن ترحيب بأهمية المصادر الثقافية المتنوعة بالنسبة للنقد ونقد النقد معاً ـ لكن بعض المعاصرين يحذرون من المغالاة فى «اسقاط» الثقافة النقدية الحديثة والحداثية على دراسة النص النقدى القديم، كما يحذرون من فرض مناهج حداثية على القضية النقدية ذات الطابع التراثى(٢) ولا سيما المناهج التى ولدّتها دراسة آداب مغايرة بطبيعتها التاريخية لأدبنا العربى(٣). وهذا التحذير صائب وصحيح، ويرجع ذلك إلى «خصوصية» المرحلة التى أفرزت هذه القضية أو تلك . فهى مرحلة محكومة بظروف تاريخية وفكرية تختص بها وتفرض اللغة النقدية التى تتناولها.

ويكشف المحور السادس «التحول النوعى» عن دراسة المعاصرين لألوان من التحول التى مارسها النقاد القدامى.

فثمة «تحول ذوقى» خاص بالأحكام النقدية التى بدأت بذوق ساذج غير معلل فى بعض نماذج نقد العصر الجاهلى، ثم نضجت بنضوج الذوق وثقافته فى نماذج من العصور التالية لذلك العصر.

وقد لاحظ المعاصرون ذلك فى ضوء دراستهم لاحكام نقدية لعدد من الشعراء والعلماء بالشعر(٤)، وفى ضوء تجربة ابن

(١) السابق ١٢٢ ـ ١١٤ .

(٢) د . عبد القادر القط. (النقد العربى القديم والمنهجية) فصول ع أبريل ٨١ صـ ١٣ .

(٣) د . محمد مندور :النقد المنهجى صـ ١٢٨ ، صـ ١٣٢ .

(٤) د . حسن البندارى: مقاييس الحكم الموجز. فى الموروث النقدى صـ ٧ وما بعدها.

سلام، الذى قاس فيها نجاح الناقد بمدى تحصيله المعرفى ومدارسته النصوص وتدريبه عليها(١)، واعتماده على القواعد والقوانين العلمية على النحو الذى جرى فى العصر العباسى(٢).

وثمة تحول فكرى نراه فى تطور مفهوم الفكر الذى يعتبر النقد أحد مظاهره؛ فقد درس المعاصرون: تطور نقد العصر العباسى من حيث انقسامه إلى «معسكرين» أو حزبين هما : حزب الأحرار المقابل للمحدثين، وحزب المحافظين المساوى للقدماء، اعتماداً على نصوص ابن قتيبة التى حددتهما، وبينت الدور المؤثر لكل منهما(٣).

على حين وقف بعض المعاصرين بالدراسة على نوع ثالث من التحول يسمى «التحول من الجزئى إلى الكلى»(٤)؛ فقد انتقلت الأحكام النقدية الصادرة على النصوص الأدبية فى العصر الجاهلى من الجزئية إلى الكلية منذ نهوض النقاد القدامى بمهمة التأليف المنهجى الذى عرفناه عند ابن سلام، والآمدى، والجرجانى، وعبد القاهر وغيرهم.

ويتضح المحور السابع «التحليل الفنى المتنوع» بدراسة المعاصرين لتحليلات عديدة مارسها النقاد العرب القدامى حين تصدّيهم لظواهر وقضايا أدبية مختلفة. فمثلاً عمد المعاصرون إلى «تحليل سمات نقد القرن الرابع الهجرى» فى ضوء عمل الآمدى فى كتاب الموازنة، والجرجانى فى كتاب الوساطة. وأوصلهم التحليل إلى الوعى بطبيعة العمل النقدى لدى الاثنين؛ إذ يتألف من عناصر صحيحة وسليمة تتجلى فى «الذوق المثقف»، و«الإحاطة» بمذاهب الشعر وفنونه»، و«دقة التعليل»، وغير ذلك، ليثبت التحليل ـ من ثم ـ «سيادة الروح العلمية وسريانها فى النقد الأدبى»(٥).

(١) النقد المنهجى ص ١٦٣ .

(٢) أحمد أمين: النقد الأدبى . نهضة مصر ط .(٤) صـ ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، أحمد بدوى: أسس النقد الأدبى عند العرب صـ ٨٧ .

(٣) أحمد أمين : النقد الأدبى ص ٤٤٠ .

(٤) د . بدوى طبانة : دراسات فى نقد الأدب العربى : صـ ١٢٩ وما بعدها .

(٥) طه إبراهيم : مرجع السابق ١٥١ ـ ١٦٦ . ود . حسن البندارى . قيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم صـ ٨١ بما بعدها

وقد نبه المعاصرون كذلك إلى ما اتصفت به دراسات النقاد القدامى من صفات عديدة ـ أيضاً ـ مثل : المقارنة الصحيحة، والشمولية، والتصفية، والإنصاف الموضوعي.

وتبدو «المقارنة» فى دراسة الظاهرة الأدبية اعتماداً على عناصر فنية بالعملين موضع المقارنة مثل وضع الخطة، وتحديد خصائص العملين، والاقتصاد فى الحكم النزيه، كما نرى فى مقارنة شعر أبى تمام بشعر البحترى(١)..

ونقف على «شمولية» الرؤية فى تحديد الآمدى لأخطاء أبى تمام؛ حيث استند فى تحليله إلى «الرواية» و «الفطنة النفسية»، و«الخبرة بالأشياء» ، و«المعرفة النحوية»(٢).

وتظهر «التصفية» التى لاحظها المعاصرون على نقد الآمدى فى استبعاده ما لا يدخل فى صميم الفن أو الإبداع، ولا صلة لها بشعر أبى تمام مثل «كفره» و «التخبط فى فهم شعره»، و «الادعاء الكاذب» من بعض شراحه ونقاده السابقين ـ كالصولى ـ بأنهم أكثر قدرة على فهم شعر أبى تمام، لا سيما أن الآمدى توصل بالتحليل إلى ضعف هذا الفهم وتهاويه. لتبقى فى النهاية العناصر الحقيقة ذات الصلة بالعملية الفنية(٣).

ويتضح «الإنصاف» الموضوعى لدى المعاصرين فى اعترافهم بتقدم النقد الأدبى على يد ابن قتيبة، لأنه «أخذ فى نقده بالروح العلميـــة فى الأحكام» إذ حكم نظره الشخصى، واستند إلى رأيه المستقل عن سواه، وقدر الأشياء فى ذاتها»(٤)، كما ظهر إنصافهم في ملاحظتهم أن دراسة الآمدى لأخطاء أبى تمام تمت «بروح علمية صادقة»(٥) مجافية للتجوز والانفعال

(١) النقد المنهجى ص ١٤٩ .

(٢) السابق ص ١٢٤ ـ ١٢٧ .

(٣) السابق ص ٨٣

(٤) السابق ص ٢٨ .

(٥) السابق ص ١١٥ ، ١١٦ .

ولكن رأى بعض المعاصرين أن تحليلات النقد العربى القديم تتصف «بالقصور النوعى»؛ إذ بينوا أن ثمة قصوراً يتعلق «بالموازنة» التى طبقها أبو تمام على أساس «الشك» فى بعض الروايات الخاصة بها(١)، وأن التحليل لدى القدامى جزئى، فلم نعرف عنهم أنهم حللوا نصا أدبياً كاملاً(٢)، وأن نظرية النظم كما درسها عبد القاهر قاصرة لأنها مقيدة بالعبارة المحدودة، فلم يدرس النص الأدبى الكامل الذى يحفل بعناصر الخيال والإيقاع والتماثل والنقاء الخ(٣) .

والحق أن الملاحظتين الأخيرتين تنطويان على دعوة تطبيق المنهج النقدى الحديث بمفرداته على نص نقدى قديم. وهذه الدعوة تواجه بتحذير فى نفس الموضع من نفس الدارس المعاصر بألا نفرض «المناهج الحديثة على نقدهم ـ أى القدماء ـ فلا نطلب من التراث النقدى «ما لم يكن من شأنه أن يوجد فيه»(٤). وهذا التحذير يمثل دعوة صحيحة تدعونا إلى بذل المزيد من الفحص والدرس، بغرض الكشف عن إمكانات النص التراثى وطاقاته النقدية، بدلاً من اتهامه بالقصور، أو النقص، أو الجزئية.

ويكفى أن الناقد القديم. قد وقف عند أفكار نقدية تناولت أحكام البناء الشعرى(٥) كفكرة ترابط الأبيات فى القصيدة على النحو الذى تناوله كل من ابن طباطبا، وابن رشيق ، وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم.

---

(١) طه إبراهيم : تاريخ النقد ص ١٧٩ .

(٢) د . عبد القادر القط : فصول ع أبريل ٨١ صـ ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) السابق ص ٢١ .

(٤) السابق ص ٣٠ .

(٥) د . حسن البندارى : تنوق الفن الشعرى فى الموروث النقدى والبلاغى . ط(١) الأنجلو المصرية ١٩٨٩ م

المتابعات

(الكتاب - المؤتمر)

المشهد الروائى
فى روايتى نبيل عبد الحميد
«حافة الفردوس» ، «وفرس النبى»



عبد الرحمن شلش *

المشهد الروائى لدى الكاتب المصرى نبيل عبد الحميد، مشهد يتسم بثرائه وغناه وعمقه، ومقدرة الكاتب على اصطفاء المنمنمات المرئية، مما يمكن أن يحقق ما يعرف بمشهدية الرواية ودراميتها. فنحن إزاء مبدع له حس درامى عال، وله إنجازات يصل عددها إلى أربع روايات، هى: «مسافة بين الوجه والقناع» ، «حافة الفردوس» ، «العصر الرمادى» ، «فرس النبى»، وتاريخ إصدار هذه الروايات على التوالى: ١٩٧٨، ١٩٨٣، ١٩٩٠ ، ١٩٩٨، بالإضافة إلى أن له ست مجموعات قصصية، أولاها صدر عام ١٩٧٠، وأحدثها صدر عام ١٩٩٥ .

إنه كاتب ينتمى إلى ما يسمى «جيل الستينيات» فى مصر، بوصفه جيلاً له إسهامات متميزة فى حياتنا الأدبية المعاصرة ، إبداعاً ونقداً .. ويكتب وعيناه على دراما الواقع ومتناقضاته.

ويبدو الكاتب مقلاً ـ إلى حد ما ـ فى كتابة الرواية، لكن القلة أو الكثرة لا تمثل مقياساً فى النقد، لأن العبرة ـ فى النهاية ـ بجودة العمل الروائى ونضجه. من هنا، فإن كاتبنا لا يعبأ بالكم، بل النوعية، لأنه لا يُعنى بمظهر الأشياء، بل بجوهر الأشياء وعمقها.

لكننا فى دراستنا هذه، سنحاول أن نتناول أبرز ملامح المشهد الروائى عند نبيل عبد الحميد، من خلال تحليلنا لنموذجين

* ناقد أدبى .

روائيين، مختارين من أعماله، هما «حافة الفردوس»[1] و«فرس النبي»[2]، ثم سنرصد ـ في الخاتمة ـ ما بينهما من جوانب اتفاق أو اختلاف. والتساؤل الذي نطرحه: كيف يعبر الكاتب عن المشهد الروائي، وعن العالم الذي يرصده تجسيداً وتصويراً، وتعبيراً .. في هذين النموذجين؟

١ ـ حافة الفردوس .. والعزلة القاتلة:

تنفتح رواية «حافة الفردوس» على عالم روائي متخيل، له ملامح واقعية، وملامح أسطورية .. عالم يبدو واقعياً وخرافياً، لكنه قريب من زماننا الحالي، الذي نرى فيه إنسان عصرنا الراهن، وكأنه عاد إنساناً أسطورياً بسلوكه وتفكيره وأفعاله، كما لو كان خارجاً من جب الخرافة، وطالعاً من جوف الأسطورة .

فالرواية تبدأ من حيث انتهت، بمعنى أن النهاية تقود إلى البداية، وأن النهاية تؤدي إلى البداية... متخذة بذلك شكلاً دائرياً .. نراه ـ مثلاً ـ متحققاً في رواية ماركيز: «مائة عام من العزلة»، ودالاً على استدارة الزمن فيها، كما يتحقق في أشكال مسرح الدوائر المغلقة، فضلاً عن كونه شكلاً من أشكال الحياة.

لننظر إلى مشهد البداية، وإلى مشهد النهاية في هذه الرواية. فالمشهد الافتتاحي يبدأ هكذا: «جسر الغمام يزحف قريباً من الأرض، كتلاً تتدافع وتتداخل وتتلوى، أشباحاً أسطورية تتمددأطرافها، كهوفاً وسراديب تزم أفواهها وتعتصر جوفها، صفير الهواء يأتي من بعيد ويهز الأشجار، ويرتطم بالجدران، ويخلع أوتاد الخيام، ويقلب المناضد والمقاعد، ويسوق الرمال والأواني والأكواب والزجاجات ولعب الأطفال وقطع الملابس والكتب القديمة والعصي والقبعات والأحذية وأطواق الزهور المضفورة»(الرواية ص : ٥) .

أما المشهد الختامي في الرواية، فهو يأتي على النحو التالي: «ومن بعيد بدأ جسر الغمام يتداعى، ويزحف قريباً من الأرض.. كتلة تتدافع وتتداخل وتتلوى .. تردد بداخل البرميل صوت الطفل، رفيعاً باكياً .. ظل يتطاير مع الهواء العاصف .. يتسع ... ويتسع ..حتى احتوى المكان!!» (ص:١٥٤).

وبين هذين المشهدين، يتجسد ذلك العالم الروائي، باتساعه، وامتداده، وبشخوصه، وإمكانته وأزمنته، ودلالاته، وجمالياته .

لقد اختار الروائي أرضاً صغيرة، هي المزرعة، كي تكون مسرحاً لرؤيته: جاء

(١) نشر مركز الحضارة العربية. القاهرة ط . (٢) ١٩٩٨ .

(٢) نشر المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ط . (١) ١٩٩٨ .

بمجموعة من البشر، تركوا الأهل والمال والسلطان، واعتزلوا حياتهم، وفروا إلى تلك المزرعة، من أجل أن يعيشوا فى خيام، وفى مناخ نقى صاف.

وكانت هذه المجموعة تضم خليطاً من البشر، بينهم الكبير والصغير، ومنهم المفكرون وغير المفكرين، والمخادعون وغير المخادعين، والعالمون وغير العالمين .

ولم تكن الرحلة إلى ذلك المكان سهلة ميسرة، بل كانت مضنية، خاصة للمفكرين منهم، كما قال قائد تلك الرحلة الأب العظيم الذى أضاف: «التجربة الروحية أثبتت لنا جميعاً أن أهل الفكر يعجزون تماما عن إدراك الحقيقة الخفية ورؤية الأنوارالسماوية، إذا هم أسلموا القياد إلى سلطان العقل المجرد» (ص:٢٩).

ودعاهم هذا القائد للرحلة ــ والتجربة ــ إلى ضرورة أن يكونوا شركاء فى كل شىء، وخاصة، فى التفكير فى أى أمر، أو فى اتخاذ القرار : «لتكن غايتنا قدس الأقداس، وأنوار الفيض والإشراق»(ص:٣٠).

إن هذا القائد للتجربة، استأجر المزرعة ــ التى أقام فيها مخيماً ــ من امرأة عجوز ذات دهاء، إذ كانت تعرف السر الذى أخفاه الرجل عن الجميع. وجعل ابن هذه العجوز حارساً على المخيم حتى لا يهرب أحد منه.

وظل ذلك السر لحد الكتمان حتى واجهته به العجوز ــ فى النهاية ــ موضحة أنها كانت تعرف زوجته قبل أن يقتلها: «كانت صديقتى لمدة طويلة، لم نكن نتزاور كثيراً، ولكنها كانت تطلعنى على أدق أسرارها ... وعندما عرفت أننى سأترك المدينة لأعيش فى مزرعتى البعيدة، بكت وأخبرتنى أن زوجها ينوى قتلها.. واعترفت لى بأنه فاجأها وهى تضاجع صاحبها». سكتت واختلست نظرة خاطفة إلى وجهه .. أردفت بصوت حزين: «لم أرها منذ زمن طويل .. ولكنى عرفت أخيراً أنها اختفت .. أو قتلت .. ولكنهم لم يجدوا جثتها، ففشلت المحاكمة .. وأفلت الجانى» (ص: ١١٩).

ولم يكن هذا الجانى سوى ذلك الرجل الذى أفلت من حكم العدالة، وجاء إلى ذلك المكان فى رحلة وهم وخداع وكذب وتضليل. وبذلك انكشف السر.

وتبدو الرحلة إلى حافة الفردوس خداعاً فى خداع، أو سراباً يظن الظمآن أنه ماء فى وسط الصحراء، لكنه لا يلبث أن يكتشف أنه وهم!

وحين اكتشفت العجوز حقيقة الرجل، قتلها، ثم قتل الجميع بالسم، عدا الطفل. وقتل الحارس الذى باغته بالبندقية، ثم مات هو بالسم ذاته، الذى أجبره الحارس ــ قبل اغتياله ــ على تجرعه : وبدا مشهد الموت

بالسم مأساوياً، معبراً عن الفاجعة التي حلت بمعظم الشخصيات

ولا تظهر هذه الشخصيات من خلال أسماء محددة لها، بل من خلال تجريد في الاسم، كالأب العظيم، والمرأة العجوز، والحارس والفتاة الجميلة ـ وهي فنانة موهوبة تجيد الرسم ـ والفتى الجميل ـ وهو عازف موهوب يعشق الموسيقى: لغة الأرواح ـ والرجل الطويل والمرأة الطويلة ـ وهما زوجان ووالدا الطفل ـ والمرأة الخفيفة، والفتاة البدينة، والفتى النحيف، والرجل الأصلع، والفتاة السوداء، والرجل الأشقر، والمرأة الشقراء، والصديق بطل حمل الأثقال، والضابط، والجنود، والطفل الذى لا يكف عن اللهو والمرح ببراءة ودهشة، وهو الوحيد الذى بقى حياً بعد موت كل من جاء إلى تلك الأرض الصغيرة.

إنها شخصيات تصارعت من أجل البقاء في تلك الأرض، لكنها كانت تعيش وهما صنعه لها الأب العظيم، وأسهمت هي في نسجه، وفي تصديقه. عاشت هذه الشخصيات عزلة رهيبة وممقوتة، حتى قضت عليها نيران الخديعة والوهم، والفردية، والأهواء والرغبات الجامحة، والعواصف الهوجاء.

ولم يكن الأب العظيم سوى مخادع عظيم، استطاع أن يخدع كل الشخصيات، باستثناء المرأة العجوز التى كشفت ألاعيبه، كما استطاع أن يسيطر على المجموعة التى كان قائدها، بوصفه المحرك والعقل المدبر والمؤثر، والمحور الرئيسى في المعالجة الروائية.

والصراع يحتدم في أعماق الشخصيات: بين القهر. والعدالة، والمادة والروح،، والواجب والخطيئة، والهروب والخلاص، والألم والشفاء، والدنس والطهارة، والحياة والموت أو البقاء والفناء، والجزء والكل، والوهم والحقيقة، أو الخديعة والصدق.

فالفتاة البدينة تقول ـ موجهة كلامها إلى الفتى النحيف، معبرة عن جانب من جوانب ذلك الصراع والخديعة ـ: «كلنا نعرف أننا خدعنا، وأننا جئنا طلباً للشفاء من الخديعة» (ص: ٦٠) .

وتسود مناخات القتل، والفزع، والرعب؛ مجسدة أبعاد المأساة التى شهدها الجميع، وكأن الدمار لهذا الوضع، أوالسلوك من العزلة والوهم والتوقع، يأتى من داخل حياة تلك المجموعة التى رضيت بالعزلة... معبراً عن الانهيار الكبير لذلك الشكل المتداعى في الواقع .

وسواء أكان الإطار أو المكان لذلك الصراع مادياً واقعياً، أم معنوياً متخيلاً، فهو إطار مكاني جاء مجسداً للصراع بين

الشخصيات، بمواصفاتها الجسمية أو دلالاتها الواضحة إلى الأنماط المتنافرة التى جمعتها الخديعة، لكن فرقتها العزلة، وشتتها المكر والعنف والقتل، وقضى عليها الانهيار النابع من سلوك همجى، لا يستقيم مع منطق العصر الراهن، ولا يتماشى مع معطيات الحضارة والتطور .

ولئن جاء التجريد فى المكان، متوافقا مع التجريد فى الزمان، فهما مع التجريد فى أسماء الشخصيات، من أبرز الأمور التى تجعل الرؤية ـ بوجه عام ـ تميل إلى الرصد التجريدى الذى يعطى هيكلاً عاماً للعزلة بوصفها ظاهرة مرصودة، دون أن يفقد المعالجة أهميتها الفنية العالية، تجسيداً وتعبيراً، عن عالم متخيل، ولكنه وثيق الصلة بواقعنا العربى .

فحين يغيب منطق العقل، وحين تكون الخديعة هى الأساس فى التعامل بين البشر، وحين يسود سلوك العزلة.. يمكن أن يحدث أى شىء، غدراً وقتلاً، على النحو الذى حدث فى تلك المأساة الرهيبة، التى تومئ إلى صورة الإنسان الضعيف، فكراً وسلوكاً وموقفاً .. فى زمن يهتز فيه الإحساس بالقيم السامية، كما تومئ إلى ما يحدث فى مناطق كثيرة فى العالم ـ حتى يومنا هذا ـ من عنف ودمار، وتخريب وإرهاب.

وتحتمل الرواية التفسير من منظور واقعى، يراها معالجة لجريمة ارتكبت فى الخفاء، ثم فر الجانى كى يتخفى بعيداً عن أعين العدالة، واضعاً أقنعة من الخداع والوهم والدهاء، حتى لا ينكشف أمره. لكن عندما ظهرت الحقيقة ووضحت كالشمس فى رائعة النهار، تحول مارداً شيطانياً أسطورياً، يقتل الذين خدعهم، مرتكباً جرائم جديدة تضاف إلى جريمته السابقة.

وبالمثل، فالرواية تحتمل التفسير من منظور رمزى، يرى الأب العظيم رمزاً إلى قوة السلطة المهيمنة على المغلوبين على أمرهم. وهو رمز إلى السلطة ـ بوجه عام ـ ببطشها وقهرها وقوتها وسيطرتها. لكن هناك ما يسمى السلطة الاستعمارية، أو السلطة السياسية، أو السلطة الاجتماعية، أو السلطة الدينية، أو السلطة الفكرية، وهذه هى الأقرب. وباقى الشخصيات يرمز إلى المخدوعين الذى جاءوا إلى العزلة القاتلة، ثم اكتشفوا أنهم عاشوا فى وهم، حتى قتلوا. والطفل ـ الذى بقى ـ يرمز إلى الأمل فى أمان حقيقى، لكنه مفقود. أما الشجرة العتيقة فترمز إلى الخصوبة والحياة والمعرفة. وأما التفاحة فترمز إلى الفاكهة المحرمة. أما القتل فيرمز إلى العنف قديماً وحديثاً .

ربما تحتمل الرواية ـ شأنها شأن أى

عمل غنى بدلالاته ـ تفسيرات أخرى، سواء جاءت واقعية، أو تاريخية، أو دينية، أو رمزية، أو تجريدية.. لأن الرؤية تقبل أكثر من تفسير.

ومن ناحية أخرى، فالروائى استطاع أن يجسد الصراع، وذلك من خلال حركة الأحداث وتشابكها، ورسم الشخصيات، وبناء المشاهد المعبرة. وإن أسرف فى التعبير عن مشاهد الجنس .

٢ ـــ فرس النبى... والجشع المميت:

إذا كان الروائى نبيل عبد الحميد فى روايته «حافة الفردوس» يحلق فى آفاق واقعية وتجريدية ورمزية، فإنه فى رواية «فرس النبى» يهبط إلى أرض الواقع، مقدماً رؤية لظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية فى مصر، وهى ظاهرة ما يسمى بالانفتاح الذى شهدناه فى الربع قرن الأخير من القرن العشرين. هذه الظاهرة وليدة التغيرات والتحولات فى زمن الانفتاح أو عصره، ولها تأثير ملموس فى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهو تأثير ظهر فى مجتمعنا إن سلباً، وإن إيجاباً.

إن الروائى يضع هذه الظاهرة تحت مجهر الرصد الفنى، وذلك من خلال معالجة تتناول أبعاد الظاهرة وتجلياتها ومؤثراتها والظروف المحيطة بها.. مشيراً إلى انعكاساتها على حياة الإنسان المصرى من جانب، والمجتمع ككل من جانب آخر.

فالمعالجة الفنية للظاهرة، تكشف ـ فى النهاية ـ عن حجم التغير الكبير الذى حدث فى مجتمعنا، فى ظل الانفتاح منذ حقبة السبعينيات حتى الآن ونحن فى نهايات التسعينات. إنه تغير متسارع، يتزامن مع التغيرات المتسارعة فى عالمنا اليوم.. بوصفنا جزءاً من كل .... ولا ننفصل عن الذى يحدث من حولنا. فكيف عالج الروائى هذه الظاهرة روائياً ؟

ما إن تبدأ الرواية، حتى نواجه مشهداً يصف موكباً فخماً وضخماً.. يقول الروای: «تحرك الموكب الفخم، خارجاً من ساحة المطار إلى الطريق الرئيسى. فى المقدمة يزمجر موتوسيكلان كبيران، ويطلقان أصوات «السارينة» المميزة والإشارات الضوئية. من خلفهما تزحف المرسيدس الحمراء، وعلى جانبيها سيارتان سوداوان تلمعان فى وقار. وفى الخلف «مينى باص» مملوء بأصوات تزعق فى حماس. انفرجت ملامح الحاج قطب المتلثة، وسرى فيها حيوية الانبساط والرضا. أعجبه شكل الموكب ومظاهر الأبهة، فخرج من عباءته القصبية، وتمطى على راحته فى مقعد المرسيدس الخلفى» (ص : ١).

هذا المشهد الافتتاحى فى المعالجة، يعبر

عن صورة صغيرة لموكب كبير، كأنه لمسئول أو ملك، أو رئيس، لكنه يدل على موكب الشخصية المحورية فى الرواية، بوصفها رمزاً من رموز الانفتاح. الموكب ينطلق متحركا من المطار حتى يصل ـ أخيراً ـ إلى مدينة نصر، حيث يتوقف عند السرادق الكبير، أمام عمارة الحاج قطب، الذى عاد ـ تواً ـ من رحلة الحج المباركة.

إننا إزاء شخصية ذات طبيعة مركبة وغامضة، تثير الشك، وتدعو إلى التساؤل: مَنْ هو هذا الرجل؟ ما ظاهره وما باطنه، أو ما الذى يظهر منه .. وما الذى يختفى ؟

كان هذا الرجل يعيش فى قصر كبير وواسع، يحتشد فيه الأثاث الفاخر، ويحيط به الأعوان والخدم. بدا نبتاً من نباتات برية، ظهرت فى مناخ مغاير لما كان سائداً من قبل ظهور الحقبة الانفتاحية، وكأنه نبت فى أرض غير الأرض. إنه « المعلم فرس النبى»، الشخصية التى انتهت كما يقول صاحبها، لأنه أصبح ـ الآن ـ الحاج قطب، بعد أن ترك طريق المخدرات إلى طريق آخر، كما كشفه أبو العيون ـ زميله وكاتم سره ـ وإن حاول الحاج أن يؤكد له : «أن شخصية الحاج قطب ستكون أفضل مليون مرة من شخصية المعلم فرس، لأنه اكتشف طريقاً آخر، أجدى وأسرع فى جمع المال، وبلوغ مركز القوة، من طريق تجارة المخدرات» (ص : ٢٥) .

ولم يكن ذلك الطريق سوى : بناء المبانى المخالفة، مثل برج التوحيد والنور، وشراء الأراضى بالطريقة الصحيحة أو الملتوية، وتنفيذ المشروعات الصورية أو الوهمية من أجل رعاية مصالح الناس والتخفيف عنهم، كما يزعم القطب (ص : ٢٧). فالرجل بوضعه الجديد ومركزه، سيكون بعيداً عن الشبهات، قريباً من مراكز السلطة (ص : ٢٦) . كان رجلاً داهية، عميق القرار، يفكر بألف رأس كى يفلت .. كما وصفه أبو العيون (ص: ٢٦). إن هذا الرجل فيه نصيب من اسمه القديم، الذى حاول أن يهرب منه أو يتناساه. وفيه من حشرة فرس النبى ــ الرمز والدلالة ـ أنه يعيش عالة متطفلاً على التهام غيره .

هكذا يظهر هذا النمط البشرى فى الرواية، كأنه شخصية أسطورية، مثله مثل الأب العظيم فى رواية «حافة الفردوس» وإن اختلفت الشخصيات فى الدوافع والرغبات، وفى التكوين النفسى والاجتماعى والثقافى. نراهن بحضوره الأسطورى القوى فوق مسرح الأحداث ـ كأنه كائن خرافى، أو ديناصور منقرض ـ لكنه يأتى ملتهماً كل شىء .. حتى الناس، والقيم والأخلاق. لا شىء يعنيه سوى الكسب والمال بالطرق المشروعة وغير المشروعة!.

من هنا، فهو نمط مسيطر ومهيمن على

كل ما حوله: أهل بيته، وزملاء الكفاح البغيض، وأعوانه، ورفقة السهر والفساد، ومعارفه من مسئولين في بعض الأجهزة الشعبية والحكومية.. وكأنه الوباء الذى يحل في مكان، فلا يتركه سوى خراب! .

وتبدو الشخصيات الأخرى فى الرواية، أشباحاً بجوار تلك الشخصية / المحور. لكنها شخصيات مثله من لحم ودم، فيها من الضعف أكثر مما فيها من القوة. إنها شخصيات تدور حول المحور والقطب، منها عباس معاونه وساعده الأيمن القوى، الذى يريد الزواج من فائزة. وانشراح زوجة الحاج قطب. وأم البنات، وكانت زوجة الأسيوطى الموجود فى السجن، وفائزة وحسنية هما ابنتا انشراح من الأسيوطى. والمأمور ياسر الشاهد الذى تنازل الحاج له عن قطعة الأرض التى حاولت وزارة الداخلية أن تحصل عليها، لكن الحاج رفض. وأبو العيون زميل التجارة القديمة. والمهندس مدكور الذى استغنى الحاج عن خدماته، لأنه وضع مبلغ مليون جنيه كإكراميات فى تكلفة الأدوار العشرة المخالفة فى البرج السكنى. واللواء عبد الجابر وزوجته. وبركات وزوجته عفاف، وغيرها من حشد كبير من الشخصيات التى تتسم كلها بالسلبية، دون أن يكون هناك حرص على تقديم شخصيات أخرى، تتسم بسلوكها الإيجابى .. فى مقابل النماذج السلبية لتحقيق تباين بين نوعيتين من الشخصيات حتى لا تكون كلها من نوعية واحدة.

ولأن الحاج كان يجيد قواعد اللعبة، فهو بارع فى تنفيذ الصفقات. لذا حين التقى «المكشوف» ـ وهو شقيق أحد الوزراء ـ حاول أن يوهمه أنه مواطن صالح، ويسعى لرفع المعاناة عن الحى الذى ينتمى إليه، مقرراً إنشاء مجمع خدمات خيرى، يشمل مستشفى، وجامعاً، ودار حضانة. وذلك على قطعة أرض كبيرة، استولت عليها الوزارة لبناء النادى الرياضى. أما المطلوب من «المكشوف» فهو أن يقنع شقيقه بأن قطعة الأرض هى للحاج قطب، ينقل ملكيتها إليه بشكل قانونى، نظير رشوة خمسة ملايين جنيه.

فالرشوة، والخداع، والادعاء، والمناورة، والجشع، والطمع.. جاءت كلها مفردات فى لغة تعامل الحاج مع الآخرين. والآخرون كانوا واقعين فى دوّامات الانتهازية والنفعية والحاجة، مما يدفعهم إلى السقوط فى مستنقع الوهم.

ويقرر الحاج أن يدخل لعبة الانتخابات، من أجل أن يصبح عضواً بمجلس الشعب، لهذا فإنه يعتمد على خبرة صديقه المأمور وعلاقاته، فى مساعدته، وفى الوقوف إلى

جواره.

وعندما كان يتطلع إلى صورة فى تأثر واضح، أخذ يقربها من عينيه وهو شارد فى تشوق. كانت الصورة ـ كما يذكر الراوى ـ لأخيه عبد التواب، الأخ الأكبر والوحيد، بعد أن مات الآخرون، أكلهم القدر فى حوادث متلاحقة، الواحد تلو الآخر، اجتثهم من غير رحمة من شجرة العائلة ليبقى هو البرعم الوحيد فى شجرة أبيه ... (ص : ١٥٨) .

ويتدفق نهر الخواطر ـ والحاج يحرك جمرات الشيشة بأصبعه، ويشد نفساً متراخياً ـ : «ومن يدرى .. فقد يباغته القدر ويأكله هو أيضاً، فى أى لحظة، وكما أكل كل أخوته. معقول يأكله قبل أن يرى الولد، ويضمه إلى أحضانه، ويتأكد أنه يحمل ملامح أبيه، أو جده، أو ملامح عمه عبد التواب. معقول يأكله قبل أن يعتلى مقعده فى مجلس الشعب، ويتمكن منه، فيقطع بذلك ألسنة أهل بلدته التى تطاولت على عائلته، عائلة فرس النبى، وحاصرت أباه حتى مات مقهوراً» (ص : ١٥٨) .

وبقدر ما يُعنى الكاتب بتحريك الشخصيات على كثرتها داخل المشهد الواحد، بقدر ما يعنى ببناء المشاهد على كثرتها ـ كذلك ـ فى النص الروائى. وهناك مشاهد كبيرة، يجيد الروائى رسمها، كما تتبدى فى الرواية، كمشهد البداية، الذى يرسم صورة لموكب الحاج القادم من الأراضى الحجازية. والمشهد الذى يحمل رقم (٥٦)، وهو يجسد مواجهة بين عباس والقطب من ناحية، والقطب ومنصور من ناحية ثانية، والقطب والمكشوف من ناحية ثالثة. والمشهد الأخير، الذى يأتى ختاماً لمأساة الحاج، مصوراً ضياعه بين الماضى والحاضر، والوهم والحقيقة، والهبوط والصعود، والحياة والموت، والحزن والفرح.. فالولد راح كما أتى، وينتفض الرجل لاهثاً، محاولاً الخروج من جوف الكابوس الثقيل .. وينتبه محدثاً نفسه : «قم يا فرس النبى، انشط يا رجل فاليوم عيدك» (ص: ٢٢٠). ونراه ـ وهو يتخيل لحظة دخوله قاعة المجلس ـ يخطو ثابتاً متعالى الهامة، إلى عالم المقاعد الكبيرة اللامعة، والميكروفونات الفضية المتناثرة، ووجوه الزملاء والوزراء ورجال الأعمال .. تبتسم كلها فى ارتياح، وتتكلم فى اطمئنان، بدا الرجل أكثر ارتياحاً وانشراحاً .. وتساءل بينه وبين نفسه : «أين ملابسى الجديدة؟ أين ملابس مجلس الشعب الموقر» (ص: ٢٢١).

ثم تنتهى الرواية نهاية مفتوحة هكذا: «وعندما همّ من سريره، انفجر صوت الطلقة المباغتة وهى تحض بأذنه فى سرعة رهيبة» (ص: ٢٢١) . إنها نهاية تثير التساؤل : أمات الرجل، أم أصيب؟

ومهما كانت النهاية، فهى تبعث على التفكير فى تلك الظاهرة التى لم تختف من حياتنا، بوصفها إحدى ظواهر التغيير المتسارع فى زمن الانفتاح. وكان الكاتب موفقاً فى تجسيدها روائياً، سواء من حيث الرصد، أو التعبير .

ملامح الاتفاق أو الاختلاف:

يبقى أن نقف ـ فى النهاية ـ عند وشائج صلة القربى بين هاتين الروايتين، لنرصد ما بينهما من ملامح، إن اتفاقاً وإن اختلافاً ، وذلك من خلال ملاحظات موجزة.

فالروايتان: «حافة الفردوس» و«فرس النبى»، تعتمدان على راو من الخارج، يرصد حركة الأحداث، ويعبر عن كل شيء فى المواقف المطروحة فى الرؤيتين. فهو ماسك الخيط، والسارد، والمعلق على الأحداث. وهو صوت معبر عن صوت الروائى الذى يطل من وراء قناع الراوى.

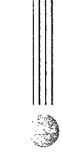
وفيما تميل الرؤية فى الرواية الأولى إلى التجريد فى الإسم والمكان والزمان، فإن الرواية الثانية تميل إلى التحديد الواقعى فى الملامح المشار إليها .

وإذ كان الكاتب فى الرواية الأولى يستخدم تقنيات للتعبير عن عالمه الروائى مثل : الحوار والمناجاة، والتصوير والتجسيد، والصراع، والحلم، والاسترجاع، والشخصية من الداخل، والتشويق الذى يشير إلى الفن الجيد فى إخفاء الفن، كما قال جون درايدن.. ـ فإن الكاتب استخدمها كذلك فى روايته الثانية.

وفيما جاءت الرواية الأولى فى اثنتى عشر مشهداً، فإن الثانية جاءت فى ثمان وستين مشهدا.

وإذا كانت الرواية الأولى انتهت بنهاية حاسمة، إلا أن الرواية الثانية انتهت بنهاية مفتوحة، تثيرالتساؤل.

وأخيراً، فإن رؤيتى نبيل عبد الحميد الإبداعيتين فى روايتيه: «حافة الفردوس» و «فرس النبى»، تتوازيان لتؤكدا أن ثمة تبايناً بينهما فى الموضوع، وفى المعالجة الفنية، مما يسهم فى إثراء المشهد الروائى عنده بصفة خاصة ، وفى تجربته مع الرواية بصفة عامة .



مؤتمر طهران لحوار الحضارات

د. محمد السعيد جمال الدين *

وجهت الحكومة الإيرانية الدعوة للجنة المصرية للحوار الحضارى للمشاركة فى مـؤتمر طهـران الذى عـقـد يومى الرابع والخـامس من ديسـمـبـر ١٩٩٩ بمقـر وزارة الخـارجية بالعاصـمة الإيرانية، وشـارك فى المؤتمر ممثلون عن كل من مصـر وإيران وإيطاليا واليونان، باعتبـار هذه الدول ممثلة للحضارات القديمة التى سـاهمت بنصيب بارز فى تكوين الحضارات الحديثة .

وكان السيد عمرو موسى وزير الخارجية، قد دعا منذ نحو عام ونصف مجموعة من أساتذة الجامعات المصريين للمساهمة فى تعزيز ثقافة الحوار بين الحضارات كبديل عن ثقافة الصـدام الى دعـا إليـهـا بعض المفكرين الأمـريكيين من أمـثـال هـنتنجـتـون وفوكاياما. سيّما وأن مصـر قد ساندت الدعوة إلى هذا الحوار على المستوى الدولي فى الأمم المتحدة .

وعقدت المجموعة سلسلة من اللقاءات الفكرية تمهيداً للمشاركة فى مؤتمرات دورية تعقد فى عواصم الدول الأربع المذكورة على التوالى وتنتهى قبل حلول عام ٢٠٠١ الذى اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة عاماً لحوار الحضارات .

وشـاركت اللجنة ببـعض أعضـائهـا فى المؤتمـر الأول الذي عقـد باليونان فـى ربيع ١٩٩٩ .

وقد شاركت اللجنة فى المؤتمر الثانى الذى عقد بطهران فى أوائل ديسمبر ١٩٩٩ بوفد كـبير، تقدّمه السفـير نبيل بدر مستشـار وزير الخارجية، وضم الوفـد كلاً من الدكتور محمود مكى أستاذ الدراسات الأندلسية بجامعة القاهرة، والدكتوَر محمد

* أستاذ ورئيس قسم لغات الأمم الإسلامية بكلية الآداب، جامعة عين شمس .

حسن وهبة أستاذ الحضارات اليونانية والرومانية بجامعة عين شمس، والدكتورة فايزة هيكل أستاذ الحضارة المصرية القديمة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والدكتورمحمد شفيق أستاذ علم الاجتماع بجامعة عين شمس، والدكتور محمد السعيد جمال الدين رئيس قسم لغات الأمم الإسلامية بجامعة عين شمس .

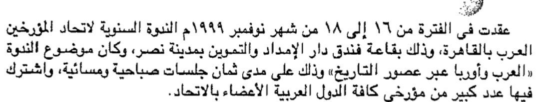
وكانت مهمة كل وفد من الوفود المشاركة أن يعرض رؤيته العلمية في مدى ما تحقق من تفاعل إيجابى بين الحضارات الأربع، الأمر الذي يسهم فى دعم الاتجاه نحو الحوار والتفاهم المشترك واحترام ثقافة الآخر والقبول بالتعددية الحضارية ومواجهة الدعوة فى الوقت نفسه إلى الصدام والنزاع .

وقد افتتح المؤتمر السيد كمال خرازى وزير الخارجية الإيرانية بكلمة جامعة عن الدور الذى تميزت به الدول الأربع عبر العصور فى تحقيق التقدم للبشرية فى شتى مجالات العلم والمعرفة.

وألقى السفير نبيل بدر كلمة مصر فعبّر عن دعمها لثقافة الحوار وحرصها على أن تنهض هذه الثقافة على أسس علمية رصينة تسهم فى التقارب والتواصل البنّاء بين الأمم والشعوب.

وحين جاء دور الأبحاث المتخصصة كان للوفد المصرى النصيب الوافر. فقد تحدثت الدكتورة فايزة هيكل عن نشأة الحضارة المصرية وخصائصها المؤثرة فى حضارات العالم القديم . كما تحدث الدكتور محمد حسن وهبة عن الديانة المصرية القديمة وأثرها فى الديانة اليونانية. وكان بحث الدكتور محمد السعيد جمال الدين عن مصر الإسلامية ودورها فى التفاعل الحضارى، ودار بحث الدكتور محمود مكى حول انتقال الحضارة الإسلامية إلي أوربا عبر الأندلس، أما بحث الدكتور محمد شفيق فدار حول أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية.

ومن المقرر أن يُعقد المؤتمر الثالث للحوار الحضارى بالقاهرة فى شهر نوفمبر المقبل إن شاء الله . .



مؤتمر العرب وأوربا عبر عصور التاريخ

د. أحمد إبراهيم الشعراوى *

عقدت فى الفترة من ١٦ إلى ١٨ من شهر نوفمبر ١٩٩٩م الندوة السنوية لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، وذلك بقاعة فندق دار الإمداد والتموين بمدينة نصر، وكان موضوع الندوة «العرب وأوربا عبر عصور التاريخ» وذلك على مدى ثمان جلسات صباحية ومسائية، واشترك فيها عدد كبير من مؤرخى كافة الدول العربية الأعضاء بالاتحاد.

وقد تناولت موضوعات الندوة عصور التاريخ المختلفة: القديم والوسيط والحديث، وحفلت الموضوعات بنقاش مثمر للعديد من النقاط الهامة عن : خطط الراشدين فى البحر المتوسط، والمحاولات العربية لفتح القسطنطينية فى العصر الأموى، ومعابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربى. وبطبيعة الحال فإن المعبر الرئيسى والهام للحضارة الإسلامية إلى أوربا كان هو بلاد الأندلس، ولذا فقد حظيت الأندلس بنصيب وافر من محاور الندوة ومن المناقشات المستفيضة لموضوعات أهمها: علماء الأندلس ودورهم فى التصدى للقوى الأوربية المسيحية فى عصر ملوك الطوائف، وقاعدة نربرنة، ودورها فى الجهاد ضد الفرنجة والتوسع فى أوربا، والتاريخ السياسى لمدينة اسنجة الأندلسية، وانتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوربا وأثر ذلك فى تطور علم الطب عند الأوربيين. أما موقعة بلاط الشهداء وفتوح المسلمين فيما وراء جبال البرتات فقد كانت مثار نقاش وتعليقات كثيرة لأهمية هذه الموقعة. وكذلك كان الحال بالنسبة لصقلية، وهى أحد المعابر الحضارية الإسلامية إلى أوربا، والنشاط البحرى الفاطمى فى صقلية وجنوب إيطاليا.

كذلك ألقت بعض الموضوعات الضوء على العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين العرب وأوربا فى العصور الوسطى، وأشارت إلى التأثيرات الحضارية المتبادلية بين المسلمين والصليبين فى بلاد الشام.

وأما فى مجال التاريخ الحديث فقد كان هناك موضوعات أهمها: جذور التنافس الأوربى فى الخليج، ومؤسسة التجارة الإنجليزية الميزانية السعودية لسنة ١٩٤٣ فى ضوء الوثائق الأمريكية، وشركة ما تسمان والصراع على امتيازات المناجم فى مراكش.

وهكذا نرى تنوعا فى موضوعات التاريخ المختلفة فى كافة عصوره القديمة والوسطى والحديثة.

وعلى كل حال فقد كانت هذه الندوة فرصة طيبة لجمع حشد كبير من مؤرخى العرب الذين ينتمون إلى كافة الدول العربية للتباحث وتبادل المعلومات والخبرات للنهضة بالدراسات التاريخية فى كافة بلدان العالم العربى.

والله نرجو أن يوفقنا إلى ما فيه خير أمتنا إنه نعم المولى وبه التوفيق والسداد

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، بكلية البنات ـ جامعة عين شمس.

المادة غير العربية

* البحث
* المقال النقدى



طفولة وكهولة

قصيدة بالفرنسية: د. نفيسة عليش•

ترجمة: د. كاميليا صبحى*

الطفولة تعادل الكهولة
الطفولة عكس الكهولة
أى روعة وجدة!
أى فرحة وعذوبة !
انتظار ميلاد .. طفل

* * *

أى قبح ودمامة !
أى ألم وبؤس
انتظار موت .. كهل

* * *

دعابة أم سخرية ؟
قسوة أم سخاء ؟
عيون محدقة ، صراخ، دموع
وجوه نضرة ، تقطيب وخوف
هدوء وصخب
عيون ناعسة، أفواه مقوسة
نظرات صامته، ملامح متهدلة
أبدان متثاقلة ، صارمة ، مفزعة
ما الذى يحدث ؟

* * *

هيا سريعا ، نبحث عن دار حضانة
هيا سريعا ، نبحث عن مدفن
بحاجة نحن إلى نصائح طبيب أطفال

• أستاذ اللغة الفرنسية ، وعميدة كلية البنات ـ جامعة عين شمس .
* أستاذ مساعد بقسم اللغة الفرنسية ـ كلية الألسن ـ جامعة عين شمس

بحاجة نحن إلى طبيب مسنين
حليب ، مقويات
حليب ، مقومات
وهن، وضعف .. وحكمة
تعلم ، تعلم .. وقلة خبرة
غيرة ، تكشيرة ، دفء ، حنان
أجساد دافئة
قلوب حانية
أطفال عجائز
وعجائز أطفال

* * *

معا جالسين على ذات الأريكة ..
على ذات الأريكة ،
عجوز هزيل ضامر ،
وطفل ينصت بشغف
وقد ضمت الأقدام، وارتكزت الأيدى على الأذقان
واحد يحكى ، والآخر ينصت
لكن ، كل هذا غير دائم ..
لنحكى حكاية الجنرال «دوراكين» ، لا بل عقلة الإصبع!
نفاذ صبر .. إيماءات .. كر وفر
إنه يتأرجح ، لا يثبت على حال .. يجرى
الطفل البرىء، «جافروش» المتقلب
يغنى ، يغنى ، يغنى ، ويغنى !
صبرا أيها العجوز ذو الثمانين عام.

* * *

أيها الصغير
اغتنم فرصتك ، وانعم باستقلاليتك
بفضولك، بابتكاريتك
داخل عالمك المحدود، واكتشف ، اخترع ..
وأنت أيها الكهل الحكيم
لم التشبث بالماضى ؟
جنتك فقدت إلى الأبد ..
أمازلت تحب شخصية «شيروبان» لبومارشيه

أتعيد قراءة «بلا عائلة» لهيكتور مالو
دع عنك هذا الحنين
أمض فى حياتك ، حاول ،
واجعل صغارك يحاولون ..
أعد على أسماعهم ، إن شئت ، حكمك
تحرك امض بسعادة
سواء كنت فى الثمانين من العمر أم بلغت المائة ..
اغتنم إيامك الأخيرة
تحمل ، ابتسم ثم امض إلى حال سبيلك ..
وداعا أيتها الحكمة ، أيها الإخلاص
وداعا للقماط ، لملابس الأطفال ولباس البحر
وداعا للقلنسوة ، لطاقم الأسنان ، والكوفية والعصا
وداعا للسيرك والمهرج والحاوى

* * *

وداعا للقراءة ، وداعا للخبرة
وداعا للخط ، وداعا للمخاطر
كم كان هذا عذبا ، بديعا
واليوم .. أى ثورة ، أى حنق
تجاعيد ، شعر متساقط
صعوبة تنفس ، أنين
صوت أجش ، لاهث ، أنفاس متقطعة
هيا ، استمر
فى سرد حكاياتك الخيالية
احك لهم قصة «الأطفال غير المحتملين» لكوكتو
ولتكن ميتتك رحيمة ، رحيمة
أو قص عليهم «أميل» لروسو
عالم سحرى أو طوباوى ؟
علاء الدين فوق بساطه السحرى
يجوب العالم مع فيلمه السينمائى

* * *

الطفولة والكهولة
يشهدان ويؤكدان
أن الثقافة .. خير ملاذ للإنسان .

Vos contes de Fée
Cocteau et les Enfants Terribles
Ah! que votre Mort soit très Douce
Émile et Émile chez Rousseau
Etait-ce magique ? Etait-ce utopique ?
De voir Aladin sur son tapis ?
Parcourir le monde avec la cassette ?
Enfant et Vieux certifient et prouvent
Que l'asile le plus sûr
C'est au sein de la culture.

Dans ton univers clos, découvre et invente
Mais pourquoi se pencher
Vers le passé
Sage vieillard ?
Ton paradis est irrémédiablement perdu
Aimes-tu encore le Chérubin de Beaumarchais ?
Relis-tu le Sans - Famille de Hector Malot ?
Oublie cette nostalgie
Passe ta vie et essaye
Et tes petits enfants doivent essayer

Répète si tu veux
Tes proverbes fabuleux
Marche et bouge avec plaisance
Octogénaire ! centenaire !
Profite de ton dernier séjour
Supporte, souris, et péris...
Adieu, adieu sagesse et foi
Adieu lange , layette et maillot
Adieu bonnet, dentier, foulard et canne
Adieu cirque, clown, prestidigitateur

Adieu lecture, adieu expérience
Adieu fortune, adieu dangers
C'était délicieux ! c'étaient merveilleux !
Aujourd'hui quelle révolte ! quelle fureur !
Les rides, les cheveux tombés
Respirer, gémir difficilement
Voix rauque et essoufflée
Allez, allez, continuez

Et vite, vite à la recherche
D'un cimetière
Le besoin et les conseils d'un pédiatre
Où est-il notre cher gérontologue ?

Du lait, des vitamines
Du lait, des vitamines
Faiblesse - Faiblesse et sagesse
Apprentissage - Apprentissage et maladresse
Jalousie, bouderie, tiédeur, tendresse
Corps tiède
Coeur tendre
Enfants Vieux !
Vieux enfants !

Ensemble sur un banc
Sur un banc, un vieillard presque momifié
Sur un banc, un enfant certes intéressé
Les pieds joints, le menton appuyé
L'un raconte, l'autre entend
Pas pour longtemps
Le Général Dourakine, non les Petites Filles Modèles
Les aventures de Télémaque, non Le Petit Poucet
Impatience, gestes, fuite et poursuite
Il se balance, remue et court
Candide enfant, capricieux Gavroche
Chante, chante, chante et chante !
Octogénaire, patiente !

Enfant
Profite vite de cette indépendance
De ta curiosité, de tes créations

Enfance – Vieillesse

Dr. Nefissa Eleiche *

Enfance = Vieillesse
Enfance ≠ Vieillesse
Que c'est beau ! C'est nouveau !
Quelle joie ! Quelle douceur !
L'attente ! La naissance
D'un enfant !

Que c'est laid ! C'est périmé !
Quelle douleur ! Quel malheur !
L'attente ! La mort
D'un vieux.
Plaisanterie ou moquerie ?
Cruauté ou générosité ?
Yeux ouverts, cris et pleurs
Visage frais, grimaces et peur
Assez léger, assez bruyant

Yeux cachés, bouches courbées
Regard muet, traits abîmés
Corps pesants, effrayants et serrés
Mais que se passe-t-il ?

Vite, vite, à la recherche
D'une pouponnière

* - Professeur de littérature française- Département de langue et de littérature française – Faculté de jeunes filles – Université Aïn - Chams

ملخص

المؤتمر الدولى للتربية والتدريس والتدريب

د. حسن مصطفى*

انعقد المؤتمر الدولى للتربية وتدريب المعلمين فى جولته العالمية بمدينة مسقط ـ سلطنة عمان ـ وقد أثيرت موضوعات فى المؤتمر ذات صبغة دولية، وذات تطبيقات محلية، تتعلق بنظام التعليم الأساسى، وبتوظيف المعلومات التكنولوجية. وقد انحصرت هذه الموضوعات فى ثلاثة محاور.

أما المحور الأول فيختص بعرض برنامج لإصلاح التعليم الأساسى وتطويره. إذ ركزت البحوث المقدمة على «ضرورة تنمية التفكير النقدى» فى منهج التدريس، والعمل على حلّ المشكلات والمهارات الحياتية للطالب المتعلم العمانى الصغير، التى تمكنه من مسايرة التطور العلمى العالمى ومواكبته. وقد أكدت كذلك على ضرورة زيادة ساعات تعرض الطالب لموضوعات اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم، بالإضافة إلى تعامله مع تكنيك المعلومات، ومهارات الكومبيوتر. وقد اهتم المسئولون فى عمان بتطبيق هذا البرنامج على عدد غير قليل من المدارس ابتداء من سبتمبر عام ١٩٩٨ .

وأما المحور الثانى فيعنى بالمشروعات العمانية الخاصة بالعملية التعليمية مثل مشروع «التعاون الأمريكى العمانى لتدريب المعلمين» ، الذى يهدف إلى إطلاع المعلمين على مجالات العلم والتكنولوجيا الحديثة التى تنهض بقدراتهم. مع مراعاة أن يتناسب هذا المشروع مع القيم العمانية الدينية والثقافية والبيئية.

وأما المحور الثالث فهو بحث «موضوع المشاركة» المكثفة فى تدريب المعلمين. وهذا البحث الذى تم طرحه فى بنجلادش، يحرص علي وجود توازن بين التكنولوجيا الغربية وظروف الدول التى توجّه إليها هذه التكنولوجيا. بمعنى أن لا يحدث تعارض بينها وبين القيم الدينية، والاجتماعية والثقافية عند التطبيق .

* أستاذ مشارك بقسم اللغة الإنجليزية ـ كلية الآداب ـ جامعة السلطان قابوس.

(12) Hilary Bourdillon, Senior lecturer in Education, Centre for Research intoTeacher Education, School of Education, The Open University, Walton Hall, Milton Keynes, MK7 6AA, UK
Tel: +44 1908 654123; Fax +44 1908 652218
e-mail: H.Bourdillon@open.ac.uk

8/9/99

(6) Daniel Nomishan, D. Ed
Fitchburg State College
Fitchburg, Massachusetts, USA
Tel: +1 978 6653516; Fax: +1 978 6653517

(7) Woodrow W. Denham, Ph.D.
(Former) Associate Professor of Anthropology
and Director of Information Sciences
North South University
Dhaka, Bangladesh
e-mail: hubley@emirates.net.ae

(8) Gwendolyn Y. Turner
University of Missouri - St. Louis
8001 National Bridge Road
St. Louis, Missouri, USA
Tel: +1 314 5165096
Fax: +1 314 5165948

(9) Howard Mehlinger
Director, Centre for Excellence in Education
Indiana University
Bloomington, IN 47405, USA
Tel: +1 812 8568210
Fax: +1 812 8568245

(10) Philip Lyon, The Hong Kong Institute of Education
Hong Kong,
work Tel: +852 29487761; Fax: + 852 294 87763

(11) Dr. Elaine Jacchow, Dean, College of Education,
Texas Technological University, P.O. Box 41071,
Lubbock, Texas 79409 – 1071 USA,
Hugh Barr, senior Lecturer, School of Education,
University of Waikato, Private Bag 3105,
Hamilton, New Zealand,
Tel + (07) 838-4500; Fax: + (07) 838-4555

Addresses

(Numbers in brackets cross-refer to those in the body of the article.)

(1) Dr. Hassan Mustapha
Department of English
College of Arts
P.O.Box 42
Sultan Qaboos University 123
SULTANATE OF OMAN
Tel/fax +968 538826
e-mail : hassanm@omantel.net.om

(2) V. Adamets
International Bureau of Education
UNESCO
Case Postale 199
1211 Geneve 20
Switzerland
Tel: +41 22 7981455 ; Fax: +41 22 7981486

(3) Dr. Sana Al-Belushi and
Said Al-Kitani
Technical Office for Planning & Studies
Ministry of Education , Sultanate of Oman
Tel: +968 793549; Fax: +968 797784

(4) Salha Issan & Nariman Gomaa, College of Education
and Islamic Studies, SQU, P.O.Box 32 Al-Khod,
Muscat, Sultanate of Oman ,
Tel: +968 515696; Fax +968 513817

(5) Jacira da Silva Camara, Catholic University of
Brasilia (UCB) & University of Brasilia (UNB, Brazil,
SQS 303, Bloco E, Apr 102,70336-050)
Brasilia DF, Brazil, Tel 55 61 226-8919, Fax 55 61 226-3050

Appendix
Recommendations **

1. Some of the final World Assembly recommendations were as follows:

Assertions of principles and practices:

- Programmes and equipment should be culture-sensitive, teacher-friendly, co-operative and minimally invasive.
- The role of teachers working within "traditional" paradigms needs to be considered sensitively and with all respect due for the traditions of the teachers concerned.
- Teacher educators and trainers should integrate technology in all courses on offer. The need to do this is getting more and more urgent given the vast and fast development taking place at the present time.
- The concepts and practices related to student-centred teaching and learning should be enhanced and promoted.
- "Teachers of teachers" should be made aware of, and familiar with technological developments.

Notes

* The Ministry of Higher Education, Sultanate of Oman, has just published Proceedings of the Assembly. This article was written before the Proceedings were published.

** It is perhaps worth mentioning that in arriving at the recommendations for the topic groups and also those for the overall Assembly the procedure followed did not involve any representative, official or otherwise, of ICET. Only presenters, rapporteurs, rapporteur leaders and the senior rapporteur (1) were involved in all stages of the write-up.

conferencing highlights " the collaborative nature of the learning" in subject classrooms in a learning community that is open and organized at the same time.

This article has not done justice to all presentations in the Assembly. It would have been unfair on the participants and the reviewers in the conference to even attempt to do that. Proceedings of the Assembly do of course provide comprehensive coverage*.

The title of the 44th ICET World Assembly emphasized Quality Teacher Education for an Interconnected world. Many participants covered that theme. However the healthy and realistic attitude that we may still live in a world dis-connected by technology give the proceedings qualities that are not often seen in gatherings of this nature.

effect it cannot survive without these technologies. Moreover, it is probably also an incentive for more use of new technologies and further development in these. Thus "computer-mediated conferencing...has been added to the... open and distance education delivery mediums".

The paper (12) on The Open University's (OU) Postgraduate Certificate in Education (PGCE) focused on "learning to teach" which was "revolutionised through the use of computer, computer software package, ...modem and printer". These were provided to students and tutors to develop students' competence in the use of IT. This and availability of the "First Class" comments gave students access to an electronic network.

The "electronic learning environment" developed and used by OU gives students access to 'virtual' "PGCE University Campus". Thus, "on logging on... a desk top metaphor of a University Campus, with various 'rooms or learning environments'" is demonstrated on the monitor. Consequently and significantly the technology that lies between the learner and their participation in (their educational) community is hidden and access is facilitated. E-conferencing in this environment supports student-teachers when they "rehearse" and begin to understand what it is to be a teacher.

Over the eighteen months of the OU's PGCE course student-teachers "develop their IT skills... and make use of the computer as part and parcel of their day-to-day lives". This includes "planning ... lessons on electronic templates, word processing their...assignments and sharing and making resources on their computers". Posted discussions and messages change student-teachers perceptions of aspects of teaching and learning. Their current and future students also get the benefit of this change in attitude and perception and the technology behind it and being driven by it. The posted discussions and conversations contributing to the specific 'classroom' are sometime formal arguments and sometimes "more conversational". Such e-

education goes beyond the use of "computers in the classroom" and is an area that should not only be 'studied'- it should be 'done'. Computers play a role there but they also have a role in other studies. In other words the role of computers is not restricted to technology. The by now familiar uses of the Internet, e-mail or electronic libraries are easily accessible to students. But "transportation systems, constructions ... rarely ...[figure] in teacher preparation programs".

In preparing teachers and students for the 21st century there is need to include technology in all teacher education programs. The teacher's need for such awareness may sometimes be greater than that of many students who keep demonstrating that they are more "technologically sophisticated than we seem to believe".

For educationalists to be "interconnected" means, among many other things, making it "possible to bring the world to the classroom". While all good teachers have always tried to relate classroom work to the outside world what the two authors (11) of a paper on " The Small World Project" refer to here is the net. The net has developed to be a tool and a skill similar for example to the effective use of the library. "Students need to be taught how to access information efficiently; and, having located relevant data, they need to be taught what to do with it."

The project ran for six weeks during which the seven schools participating in it in New Zealand were provided with a set of questions for each week. The purpose was for each school to find out where other participating schools are located and to collect information about them. Answers appeared on a home page each week. Each week had questions about a specific theme e.g. climate, historical events or recreational activities. Students had to meet the weekly deadlines. Information gathered over the six weeks was then presented on the project collective home page.

Distance learning is probably the one area that does not just rely on new technologies to transform the ways it itself operates. In

(i) to fit school curriculum and in consultation with schools,
(ii) to meet needs of individual teachers,
(iii) as special events program "in response to news breaking events" and
(iv) to educate teachers in international studies.

This last type was of particular interest since it aimed at helping participants "understand the world [outside the USA] today and the forces that are shaping the world of the future". The course offered content that students "would not otherwise have studied". The 8-minute videotape resulting from this course contained segments from different class sessions and included samples of the discussions held in these classes. The audio in the first part of the tape is mute. This provides users of the tape in other situations the opportunity to make their own "voice-over" descriptions as is suitable to their situation.

The impression given by the above presentations is that the need for technological advance in the field of education is obvious. However the transfer of technological developments will not always be simple or straightforward. Applications of technology in the West and in the East raise human-related issues. These need to be sensitively handled. The ICET 45th World Assembly highlighted the issues and focused on the solutions found or yet to be arrived at. But its work is not 'done' yet. This was reflected in many of the final recommendations of the Assembly (See below).

Teacher Training

Quite expectedly teacher training occupied the minds and practices of many educationalists such as those represented in the Assembly. The use of technology in the context of Special Education needs (SEN) raises specific challenges. Some of these were dealt with in a presentation entitled "Technology and Special Education" (10). SEN students will be found inside and outside institutions that especially cater for them. However there is "lack of knowledge as to what technology education is". Technology

not be seen as "serious... in many areas outside of the IT Department." IT is rapidly changing and together with these changes there is a requirement for equally rapid changes in intangible and sometimes even 'unteachable' attitudes and views of the end user. The global and openly accessible resources that come with such technology may need to be filtered or adapted for the use of local clients. In other words the author is of the view that pre-packaged technology needs to be un-packaged and re-packaged before the recipient culture is exposed to it .The need for culture-sensitive technology is a major issue that producers, exporters and importers should take note of and act upon.

Gwendolyn Turner (8) focused on the impact of technology, including computers, on self-improvement and the ability of 172 USA pre-service teachers to conduct research. While many of these teachers felt they were not "up to date on many of the new technologies" some went further to express "concern about their ability to keep up with what was current". Thus simple access to technology was neither the problem nor the solution. Compare this with the situation in Bangladesh and the worldwide picture turns out to be more complex than at first it seems. For both situations raise issues that are tangible (i.e. concerned with soft- or hardware) and intangible (e.g. perceptual & cultural). Turner's realistic 'findings' point out the seriousness as well as the urgency of addressing what may be called 'para-technological' issues. Once more here is an issue that might be pursued in further research.

Howard Mehlinger (9) reported on a professional development course. His paper on "Global Education for Teachers via Interactive Video" details the work Indiana University carries out in the field of international studies by its Centre for Excellence in Education. There again one issue was how to make the resources of the university more available to schools in Indiana.

The project designed offered four types of programs or services to schools. These, the author says, were developed in order

learning'. The teacher training and retraining implications of the project are significant. This is probably where higher education offers itself as a natural partner in the project. Higher education Faculty offer professional development courses and institutes, demonstrations of Science and Mathematics teaching and Technology applications, family Mathematics and Science fairs and round table discussion sessions. As an important by-product these activities help change both the attitude and behaviour of teachers, parents and administrators.

Working apart and separately the Ministry of Education in Oman and the PALMS frameworks in the USA each attempted a reform movement and arrived at their own model, practices, principles and conclusions. Some of these overlapped, some agreed while some were totally opposed to each other. Further research is perhaps needed to follow both frameworks up and to explore, in depth, the findings and implications of each of these two projects.

Partnerships

On one particular situation in Bangladesh, Woodrow Denham (7) reports on the "successes and failures" of a programme he describes as laying the foundations for a technology-intensive teacher training programme at a wealthy, new private university in Dhaka. The programme focuses, among other things, on the interesting area of "problems that derive from strongly held attitudes and values of the faculty and staff."

The paper distinguishes between the introduction of technology and the use made of it once it is installed. Western technology may work in a "western context" where all concerned share the attitudes, values and practices that arise and evolve in such contexts. Such compatibility does not necessarily exist in a non-western working environment. Many of the problems arising in cases of wholesale transfer of technology may "derive from religious & social values that operate throughout the university and the society at large". More significantly such problems may

teachers "to assess how much learning" and communication are taking place and in what manner. The frameworks developed view Science & Technology as "practices based on inquiry". The simple questions of: "How does it work" or "How can it be improved" are seen as fundamental to inquiry inside and outside the classroom. The answers to these questions and the explanations offered are suggested by science, technology and mathematics.

In this context science offers explanations for "the observable" while technology deals with issues of human adaptation to the environment. On the other hand mathematical power, among other things, helps students understand problems and equips them with the tools for solving them.

The frameworks adopted for these disciplines also suggested "that students learn best in an inclusive environment". This is a particularly insightful finding that systematically takes into consideration learner factors such as "background, individuality, gender..., culture, physical ability or developmental levels". None of these, individually or collectively, are seen as an obstacle. The frameworks work with each and with all of these factors.

While the Omani Reform model goes for an increase in the total member of teacher-student contact hours the PALMS project adopts a "less is more" principle. This is a concept based on the recent suggestion "that there are relatively few big ideas in science and mathematics" and "that teachers must make sure that students do not get bogged down with memorization of the trivia." Each model generates its own principles and applies these in different environments. Each of these models, however, should be watched carefully and followed up with all due attention to the needs and requirements of their respective end-client namely the student.

The student addressed in the PALMS framework is a student who 'can learn'. Implied in this situation is a teacher who can 'teach

curriculum frameworks in Mathematics ... Science and Technology". Funding was provided by the US Department of Education and the National Science Foundation.

The curricular frameworks of each of the disciplines developed emphasised problem solving (cf. Oman), communication, reasons, connections, inquiry and "the relations of Science, technology and human affairs". Mathematics and Science were seen as major contributors to the "vitality of the economy and the quality of life". Educationally they provide the right arena for problem-solving. Thus the disciplines developed help correct misconceptions about themselves. In PALMS they are presented not just as a pre-packaged, ready-made and complete "body of knowledge". In fact their status, as part of a process for establishing new knowledge and acquiring experience, is highlighted. The framework developed by PALMS suggests that questions asked by students would help them "explore the world and their environment more". The responsibility and role of teachers in this respect is of paramount importance. The aim is to make students "work like Scientists ... raising questions, hypothesizing and", equally important, attempting to answer "these questions".

This emphasis on enquiry on the part of young learners does not compromise the rigour of learning or the status of the teacher and his or her knowledge and experience (an issue of equal importance in the USA as well as in Oman and many other educational systems). On the contrary it will certainly result in a new partnership in the acquisition and ownership of knowledge and experience. It also capitalizes on children's natural curiosity. It also exposes them systematically and naturally to "the habits, ideas and values" of their culture with particular reference to Mathematics, Science and Technology and places these in the context of their day to day life.

Making connections between disciplines on the one hand and between these and real life on the other will enable parents and

New Information and Communication Technology

There is no one-to-one relationship between computers and advanced technology. There is also a difference between studying computers and/or advanced technology as tools in themselves and using them as tools to further knowledge and learning.

From Brazil an intended study (5) of the implications of the use of the Internet and its subsequent impact on 14 to 18 year olds focused on the behavioural aspects of these adolescents at school, in the family and within the educational system.

The use of Internet results in the loss of person to person relationship and skills (including "dating"!) and manual writing skills being seen as " something of the past". This, probably among other things, has led to the Internet being seen in some quarters as a "bad habit". The study should shed some light on behaviour characteristics of adolescents in the family, their attitude, abilities and types of learning in addition to the more positive potential of the Internet in fostering such concepts as solidarity, tolerance and justice.

When complete the study should be of interest to educationalists as well as families seeking to promote the use of technology in the service of "cultural diversity" and teacher specific knowledge.

On new information and communication technologies Daniel Nomisham's presentation (6) highlighted a model of actual "Partnerships Advancing the Learning of Mathematics and Science" (PALMS). As in the case of Oman above this reform movement aims at making students educationally and experientially equipped for the real world. However this partnership project follows a model different from the Omani state-directed and fully state-funded approach.
Thus PALMS capitalizes on co-operation between "business and industry, parent groups, school districts, museums and", significantly, "higher education". "It aimed at the development of

In order to equip those students for the demands of the 21st Century English will be introduced at an earlier stage and for a total number of contact hours equal to more than double the number of lessons students are currently exposed to. This increase in contact hours is a major consideration in the New Educational Reform. Thus the total number of class hours will increase from 5693 to 9600. English language, Mathematics and Science are among those areas that will have their contact hours significantly increased. Subjects that are not included in the current curriculum i.e. Life Skills, Information Technology and Computer Skills will be introduced at the rate of 240, 120 and 264 class hours respectively. Seventeen schools have already experienced the changes that this Reform brings. Other Schools will follow gradually according to plan.

The World Assembly proceedings included what amounted to national reports on developmental work. As pointed out earlier Oman, the country hosting the Assembly, is currently going through major revision and reviews of various aspects of education. The reports on Vocational Institutions were of particular interest since this crucial type of education is sometimes forgotten in world conferences on teacher education. One presentation (4) went beyond analysis of the system in operation in Oman and focused on teachers of Technical and Vocational Education who join the profession without formal training. The fierce competition to join the University has been a major catalyst in diverting attention from, and perhaps even undermining, the status of non-"academic" education. However the same forces work together with the need for Omanisation in drawing attention to diversifying types and sources of training teachers. This consequently points to the need for training trainers. In doing that the presentation draws upon corresponding situations in the UK, Spain and Germany.

The New Educational Reform in Oman reflects a firm commitment to bringing about realistic changes in grades one to four in stage one of the "Reform". Stage two will involve grades five to ten. These changes were effected in some schools beginning September 1988 with a view to covering all schools in the Sultanate by 2000. Sana Al-Belushi and Said Al Kitani (3) reported that, included in this Reform, the school year will be extended from the current 160 days to 180 days and that lessons will be forty minutes each, an increase of five minutes on each of the current class lessons.

More importantly perhaps is the curriculum being introduced into basic education. The launch of this major project puts Oman in the forefront of countries promoting "critical thinking", "problem solving " and "life skills" right from the beginning of the school cycle of all eligible young Omanis. The shift from teacher-centred to learner-oriented attitudes and methodologies will mark a quantum leap in the history of education in the Sultanate. By the end of their school education school leavers should be equipped with such skills and areas of knowledge and information as may be required of them in order to cope with the modern world. This is, and will be, a world where technology plays an ever increasing and perhaps even overwhelming role.

This reform will involve current teachers in a major re-training programme. Teachers already in the system, new teachers and teachers in training, will be made familiar with the implications of making the learner the centre of the learning (and teaching) process. All participants in this process will also assign to examinations only the weight and significance they deserve. The current teacher-centred and examinations-oriented practices and attitudes will be replaced by emphasis on the assessment, rather than mere testing, of the full person i.e. the child at school. Memorization, like exams, will be a tool to be used but not an objective in itself. Critical and individual thinking will be the mode in which all participants in the educational process will engage.

QUALITY TEACHER EDUCATION IN AN INTERCONNECTED WORLD

HASSAN MUSTAPHA (1)

The International Council on Education for Teaching (ICET) is not international by name only. Nor is it international just by either membership or numbers. The 44th World Assembly held in Muscat, Sultanate of Oman in December 1977 was witness to how international in both form and content ICET is. To this extent the topics covered were of international interest. Yet the solutions and the conclusions offered were in many cases of local nature. The 35 or so countries represented covered a spectrum of economic and social categories from the developed to the developing. No value judgement were made or implied on the nature or stage of educational development in any of the countries involved. Given this factual and attitudinal background it would only be possible in this article to investigate and comment on a limited number of presentations made. Some of the Assembly's recommendations are given in an appendix.

In his presentation to the Assembly V. ADAMETS (2) highlighted two major issues on the International Educational Agenda. These are "basic education and the new information and communication technologies". Most of the remaining part of this article will deal with how these issues were dealt with in the presentations concerned.

Basic Education

An exciting and challenging development in basic education is taking place in the Sultanate of Oman, the host country to the 1997 ICET World Assembly.

البحوث والدراسات المنشورة بالعدد (٣) لسنة ١٩٩٩
الناشر: مركز الحضارة العربية

٤ شارع العلمين - الجيزة تليفاكس ٣٤٤٨٣٦٨
ويطلب من مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد القاهرة ت: ٣٩١٤٣٣٧

البحوث والدراسات المنشورة بالعدد (٢) لسنة ١٩٩٩

الناشر: مركز الحضارة العربية

٤ شارع العلمين - الجيزة تليفاكس ٣٤٤٨٣٦٨

ويطلب من مكتبة الإنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد القاهرة ت: ٣٩١٤٣٣٧

فكر وإبداع

البحوث والدراسات والإبداعات المنشورة بالعدد (١) لسنة ١٩٩٩

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (القاهرة) ت : ٣٩١٤٣٣٧

يطلب من

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين ـ عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات ـ الجيزة . ج . م . ع
ت ٣٤٤٨٣٦٨

مكتبة الأنجلو المصرية

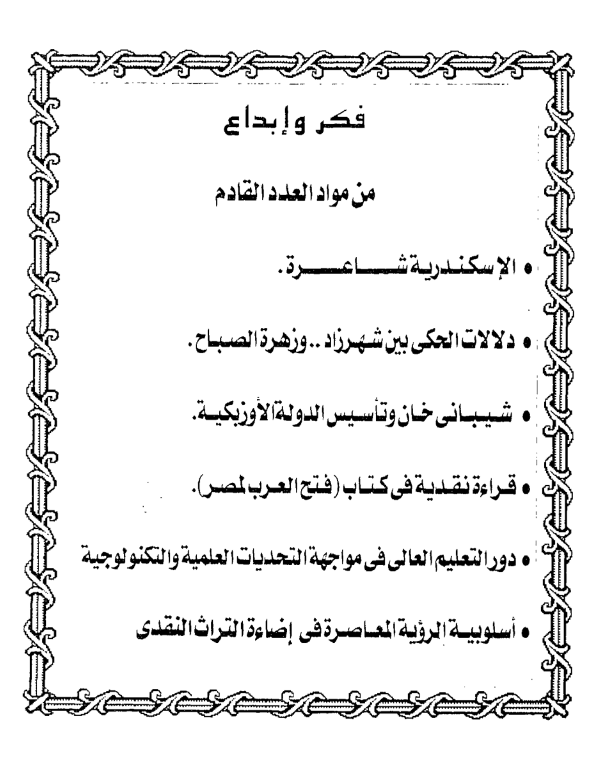
١٦٥ ش محمد فريد القاهرة
تليفون : ٣٩١٤٣٣٧

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة
ت / ٣٩٢٩١٩٢

نور للكمبيوتر
إخراج فني وصف كمبيوتر: حسن عبد الحليم
ت: ٦٥٠٢٥٢٣

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٧٥٤/٩٩
I.S.B.N . 977 - 291 - 154 - X

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت: ٥٨١٧٥٥٠



فكر وإبداع

من مواد العدد القادم

- الإسكندرية شاعرة.
- دلالات الحكى بين شهرزاد .. وزهرة الصباح.
- شيبانى خان وتأسيس الدولة الأوزبكية.
- قراءة نقدية فى كتاب (فتح العرب لمصر).
- دور التعليم العالى فى مواجهة التحديات العلمية والتكنولوجية
- أسلوبية الرؤية المعاصرة فى إضاءة التراث النقدى

FIKR WA IBDA'

- QUALITY TEACHER EDUCATION IN AN INTERCONNECTED WORLD
- Enfance Vieillesse

No . (4)
Dec 1999



Markaz
AL HADARAH
AL ARABIAH